رواية

زمن الضباع

أشرف العشماوي

مكتبة الدار العربية للكتاب

العشماوي ، أشرف.
زمن الضباع : رواية/ أشرف العشماوي
. ــ ط1. ــ القاهرة : مكتبة الدار العربية للكتاب، 2011.
248 ص ؛ 21 سم
تدمك :1 - 674 - 293 - 977 - 978
1 ــ القصص العربية .
أ ــ العنوان . 813
رقم الإيداع : 7734 / 2011

©

مكتبة الدار العربية للكتاب
16 عبد الخالق ثروت ــ القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ــ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : جمادى الآخر 1432 هـ ــ مايو 2011 م

رواية

زمن الضباع

أشرف العشماوي

مكتبة الدار العربية للكتاب

عَابِثْ
FB/3abeth

مكتبة عابث

http://mjanen.blogspot.com

@mjanen23

الإهداء

إلى كل من حاول إخراج

الأسد الكامن بداخله وفشل . .

لا تيأس . .

يكفيك شرف المحاولة . .

فما زال هناك أمل . .

مادمنا نحيا . .

1

شرخ في جدار العرين

أطل الثعلب برأسه من نافذة السيارة ، التي تقله يوميًا لمقر عمله متأملًا عرين الأسد ، وقد بدا من بعيد كقصر منيف ، تحوطه أبراج عالية ..

كان يحلو له دائمًا أن يفعل ذلك ، كلما اقتربت السيارة من الطريق الموازي لمقر العرين وكانت المسافة في تلك النقطة تسمح له بأن يرى العرين بوضوح كامل ، وهو يتربع قمة التل الأعلى في الغابة.. بينما الثعلب يقبع في سيارته ، يكاد لا يُرى بداخلها من فرط صغر حجمه ..

كان العرين بالنسبة له تحفة معمارية من الخارج وملاذًا نفسيًا من الداخل.. كان يشعر براحة وسكينة ودفء ، بمجرد أن تطأ قدماه مدخل العرين من البوابة الرئيسية ..كان عمله مساعدًا للأسد بالجزيرة المركزية يشعره بتميزه عن الآخرين ، فالعمل مع الأسد أمر مختلف تمامًا عن العمل مع أي حيوان أخر .. الجرأة والشجاعة والإقدام واتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب ..كلها صفات لا تجدها إلا في الأسد .. ورغم أنه كان يعمل في إدارة المعلومات بالغابة ، وهي إدارة لا توجد بها إلا أرقام وتقارير ، إلا أنه كان يشعر دومًا ، وكأنه في مرسم هادىء على شاطئ نهر ، يرسم لوحة بهدوء وتأن.. لا موظف يؤدي عمله والسلام ، حتى ولو كان يتقنه ..

تنبه لصوت التحية العسكرية التي أداها له اثنان من الفهود ، اللذان كانا يحرسان المدخل ، فحياهما بإيماءة من رأسه ، وعلى وجهه الابتسامة ذاتها التي كان شاردًا بها في تذكر بدايات عمله بالمكان ، عندما التحق بالعرين منذ خمسة عشر عامًا .. كانت لديه حاسة غريبة ، تكاد تجعله يتعرف على ملامح الحدث بتفاصيله قبل وقوعه ، وكأنه يراه أمامه في شريط سينمائي ، ولكن في مشاهد سريعة متلاحقة ، يصعب على غيره تتبعها أو تذكر تفاصيلها ..

كانت السيارة قد قطعت الطريق الخاص المؤدي للمدخل ؛ بحيث أصبح العرين في المواجهة تمامًا .. وكانت أشجار الجازورين العالية تحيط بالطريق من الجانبين ، فتجبرك على تركيز بصرك باتجاه العرين ، وكأنها تهيئك نفسيًا للقاء ملك الغابة..

نزل الثعلب من السيارة بهدوء شديد كعادته ، ثم قفز درجات السلم في رشاقة ، بعد أن ألقى نظرة خاطفة على تمثالين نصفيين لأسدين ، ممن حكموا الغابة لسنوات طويلة مضت ، وكانا يتصدران مدخل البهو الرئيسي في شموخ . . مر الثعلب من أمام الواجهة الزجاجية الكبيرة المرتفعة والعريضة في آن واحد ، والتي يرى طاقم مكتبه من خلالها وهم يعملون .. أشبال وفهود وحصان ، ومؤخرًا ألحقوا بإدارته جروًا وحمارًا.. لا بأس.. حياهم بيده من وراء الزجاج كالمعتاد ، وابتسامته العريضة لا تفارق وجهه ، ومضى يتأمل وجوههم وهم يردون له تحيته.. كان شغوفًا بمراقبة ردود الأفعال وتعبيرات الوجوه ، وكان يرى أنها تكشف كثيرًا عما هو كامن بداخل كل منهم ، مهما حاول البعض أن يتصنع الابتسام ، أو كان يجيد المواربة.. فلابد أن شاردة أو واردة ما سوف تظهر على وجهه ، فتكشف ما بداخله إلى أن يتحدث ، فتظهر الصورة الحقيقية عندئذ دون تجميل ..

لم يدخل غرفة مكتبه ، وإنما مضى باتجاه حجرة العرش ، إلى حيث يقبع ملك الغابة .. الأسد .

كان اليوم محددًا لاجتماع مهم ، دعا إليه الأسد ، ولكن دون أجندة محددة مسبقًا .. ولأنه أمر لم يحدث منذ سنوات بعيدة ، فقد أثار قلق الغالبية من الحيوانات ، التي تعمل في العرين.. كما أثار فضول بقية الكائنات التي تعيش في الغابة ، حتى سكان المناطق النائية بأطرافها..

كان الجميع في حالة ترقب ، وكأنهم يشعرون بخطر ما ، ولكن لا يعرفون له مصدرًا .. استأذن من أحد الأشبال للقاء الأسد على انفراد قبل الاجتماع المرتقب ، فأذن له على الفور ، فالثعلب من المقربين ، وتوجه الشبل فاردًا ذراعه نحو مقبض الباب ليديره .. لم يدخل الثعلب ، وإنما أمسك ذراع الشبل برفق وسأله هامسا : من بالداخل ؟

أجاب الشبل ، في هدوء وابتسامة رقيقة بدأت تغزو ملامحه : لا أحد الآن .. لقد غادر كبير الضباع منذ نصف ساعة ، بعد أن ترك تقريرًا للملك .. أعتقد أنه ما زال يقرؤه .

ظهرت بعض علامات القلق على وجه الثعلب ، فعاد يسأل وهو شارد الذهن ، كأنه يفكر ويتكلم في آن واحد : هل التقرير متعلق بأعمال التخريب الأخيرة ؟؟

أومأ الشبل بالإيجاب .. ثم خفتت ابتسامته قليلا ، وهو يقول : هل ستدخل الآن أم تفضل الانتظار حتى يبدأ الاجتماع .. فندعوك ؟

هز الثعلب رأسه مرتين ، وكأنه يؤكد حتمية لقاء الأسد الآن ، ودلف إلى حجرة العرش في هدوء ، يليق وهيبة المكان ، ولكن بخطى مترددة نوعا ما ..

كان الأسد يجلس على عرشه ويبدو مهمومًا بعض الشيء ..ظن الثعلب في البداية أنه قد يكون مرهقًا ، .. فقد كانت الفترة السابقة فترة عصيبة إلى حد ما، فقد قامت بعض فصائل الجاموس الوحشي بمظاهرات عارمة ، امتدت في بعض الأحيان إلى قلب الغابة ، وطالت منشآت حيوية فيها ، فأصابها جانب من التخريب أحيانًا .. وتدمير في أحيان أخرى . صحيح أنه تم السيطرة عليها تمامًا ، ولكن مع تكرار ما تقوم به قطعان الجاموس الوحشي ، وما قد ينضم إليها من حيوانات أخرى أو فصائل مختلفة ، ومع تصاعد حالة التظاهر إلى أعمال تخريبية ، فقد أصبح الشك يحيط بكلمة (تمامًا) ، التي نلحقها بعبارة تم القضاء على الشغب أو لقد أنهينا المشكلة !!!

- بات الوضع قلقًا ، وأصبحنا وكأننا نستعذب تدمير غابتنا ، وإنكار كل عمل إيجابي بها .. وكأننا لا نرى إلا السلبيات..

هكذا بدأ الأسد حديثه ثم استرسل : لم يكن هناك مبرر قوي لتلك المظاهرات ، التي أوشكت أن تتحول إلى فوضى .. إن هذا الوضع يقلقني بشدة ، ولابد أن هناك تقصيرًا في جهة أو إدارة ما .. وإذا ما تركنا الأمر يمر مرور الكرام ، وقلنا لأنفسنا العبارة الخالدة « كله تمام » ، وإن الأمور تحت السيطرة فإننا بذلك نكون نخدع أنفسنا أولًا..أنا أريد منك حسم هذا الموضوع ، ولكن ارجع لي أولًا ، قبل أن تخطو خطوة واحدة.

استوقفت تلك العبارة الأخيرة الثعلب ..فهي المرة الأولى التي يقول له فيها الأسد ارجع لي أولًا..!

لم يجد إجابة على وجه الأسد المرهق ، الذي ارتسمت عليه أيضا ملامح الغضب ، أثناء الحديث عن أعمال الشغب ..

كان الثعلب يدرك أن الأسد لا يميل أبدًا إلى الضرب بيد من حديد ، أو قمع المتظاهرين في مثل هذه الأمور ...ولكنه أيضًا يعي جيدًا أن الأسد حاسم إلى أقصى درجة ، وإلى أبعد حد.. وخرج بتصور سريع ، أراد أن يشرك الأسد فيه ليتأكد من سلامة استنتاجاته ، ويريحه في الوقت ذاته ويطمئنه بأنه لن يخطو أية خطوة ، إلا بموافقته حسبما طلب منه اليوم .

فقال في ثقة : إن معرفة الأسباب الحقيقية وراء تلك الفوضى وبواعث محركيها ، ولماذا يفعلون ذلك بغابتهم .. وكيف تم إقناعهم بما يقومون به .. هو بيت القصيد ؛ خاصة أن ما يتظاهرون من أجله لا يستحق عناء التظاهر أو هتاف الحناجر..

قاطعه الأسد بإشارة من يده قائلًا : لا أريد ذلك الآن فقد كلفت كبير الضباع به .. وإنما أريد اقتراح إجراءات حاسمة تردعهم هم وغيرهم ، ممن قد تسول لهم أنفسهم تكرار ذلك الفعل مرة أخرى .. أما ما تقوله أنت ، فأنا أعرف أن مرجعه سياسة القطيع التي دفعتهم إلى ذلك ، ولقد وافقت كبير الضباع على هذا الرأي عندما قاله لي هذا الصباح .. كما كلفته أيضًا بتقصي الحقيقة أكثر في هذا الشأن ..!!

اتسعت عينا الثعلب في دهشة ممزوجة بعدم فهم .. فمنذ أن ظهر كبير الضباع على الساحة وهو يزداد قوة ويتسع نفوذا ، ويكتسب كل يوم أرضًا جديدة ، لا لدى الأسد ، وإنما على حسابه .. للأسف !!!

فكيف لأسد أن يستشير ضبعًا..؟ ولا يغرنك لقب « كبير » الذي يسبق اسمه ، فهو دلالة على حجمه ، لا على ثقل فكره .. ثم إن هذا الرأي لا يعني سوى أن سياسة القمع والبطش بدأت تلوح في الأفق القريب ، ولن يستفيد منها إلا الضبع ورفاقه ..

استعاد الثعلب رباطة جأشه ، وخاطب الأسد في هدوء قائلًا : إن الأمور التي يتظاهر من وصفهم بالقطيع من أجلها قد تكون بالفعل لا تستحق كل ذلك ، فالغابة أوضاعها في الأغلب الأعم مستقرة ، على الأقل مقارنة بغابات أخرى مماثلة ..ووجود فساد أو إهمال أو حتى تقصير هنا أو هناك ، فهذا أمر وارد الحدوث ، ولا يعني أبدًا أنه ظاهرة..كما لا يعني النهاية.. فنحن نقاوم أولًا فأول ولا نتهاون ، فلماذا التركيز على الجوانب السلبية فقط ؟ ولماذا لا يرون الإيجابيات .. ونحن متفقان في ذلك ، أليس كذلك؟!

أومأ الأسد بالإيجاب ، فاسترسل الثعلب قائلًا : إذًا السؤال يكون «من غسل عقولهم وغيَّب تفكيرهم وأضلَّهم» هذا هو حجر الزاوية في الموضوع .. هذه يا ملك ليست سياسة قطيع ، وإنما تدبير من حيوان مكير .. يعمل على تضخيم السلبيات ، وهو ما يؤدي غالبًا إلى اليأس من إيجاد حلول لها.. أو يؤدي – إن شئت الدقة – إلى فقدان الرغبة في التوصل لحلول إيجابية لتلك السلبيات.. كما أن التلاعب بمشاعر الحيوانات ومخاطبة غرائزها الأساسية، في الوقت ذاته ، سيؤدي إلى إشعال النار في أرجاء الغابة كلها ، وسيأتي على الأخضر واليابس .. فعليك أولًا أن تفتش عن صاحب المصلحة من المحرضين ، قبل أن تنقب في نوايا المتلقي من المتظاهرين .. والأهم من هذا وذاك أن تتأكد من عدم تهوين السلبيات أو تضخيم الإيجابيات فقد تكون سلبيات نظامك ضخمة ، ولكنها تصل إليك ضئيلة ، حتى لا يتعكر صفوك، واسمح لي أن أقول لك بصراحة وشجاعة ، أفتقدهما في بعض الأحيان: إن من حولك من ضباع يفرضون عليك سياجًا من حديد يزداد سمكًا ، يومًا بعد يوم.. ومع الوقت ، لن تتمكن من الرؤية ولن تسمع إلا صدى صوتك! وإذا ما أردت أن تظل أسدًا ، فيجب أن تتحدث إليهم ، وتستمع بنفسك

إلى مشاكلهم ، وتعمل جاهدًا على حلها ، فوجود أسد بينهم يعطيهم الثقة ويبعث فيهم الطمأنينة ، وغيابه يقلقهم و...

وقطع حديث الثعلب رنين الهاتف الأحمر الأقرب إلى يد الأسد اليسرى.. تناوله الأسد في لهفة ، وكأنه ينتظر سماع خبر ما ..

كان النمر الآسيوي على الناحية الأخرى ..أخبر الأسد أن كبير الضباع تمكن من السيطرة تمامًا على الوضع ، وأصبح الآن يملك مقاليد الأمور ، والتي بدورها عادت إلى طبيعتها تمامًا.. كما أخبره أن ثورة قطعان الجاموس الوحشي والفصائل الأخرى التي انضمت إليها وشاركت فيها.. كانت بسبب نقص محدود في الطعام .. وقد كلف كبير الضباع مساعده الأول ، فرس النهر ، بتولي هذا الشأن ، وأخبره فرس النهر الآن أن الثورة قد أخمدت تمامًا ، وتم اعتقال رؤوس التظاهر..!!

كاد الثعلب أن يضحك من شر ما يسمعه ، ففرس النهر لم يتطرق إلى أصل المشكلة ، ومع تكرار كلمة « تمامًا » عدة مرات في المحادثة ، تسرب الشك إلى قلبه .. فقد كان الثعلب متأكدًا أنه لا يمكن أن تكون هناك حقيقة مطلقة في التعامل مع قطعان متشعبة من الحيوانات في حالة السلم ، فما بالك في ثورة غضبها ؟! وإذا كان نقص الطعام محدودًا ، كما قال ، فلماذا يكون رد فعله ثورة كما نقل النمر الآسيوي عنه ؟! لمصلحة من تهويل الأمور ؟ إلا إذا كان المقصود من ذلك تخويف وترويع من يمسك بمقاليدها ؟!

أنهى الأسد المحادثة الهاتفية .. وقد ارتسمت على وجهه بعض قسمات الراحة والرضا نوعا ما .. ولكنها سرعان ما انقلبت إلى غضب ، صبه بالكامل على رأس الثعلب ..طالبًا منه ألا يفرض رأيه عليه بهذه الصورة..

وألا ينسى أبدًا أنه ثعلب يعمل لدى الأسد ، وأن رأيه سيظل رأيًا أوليًا استشاريًا ، لا حقيقةً قاطعةً ، وأن قرار الأسد هو القرار النهائي ، وهو الوحيد الذي يتخذه على ضوء آراء الآخرين.

* * *

لم يستطع الثعلب أن يخفي ضيقه ، ولم يقو على السكوت أمام أسلوب الأسد في الحديث معه ، فرغم أنه ملك الغابة ، إلا أن الثعلب كان يدرك جيدًا أن لديه مساحة في عقله ، ورصيدًا في قلبه ، يسمحان له بالاقتراب منه والحديث معه دون قيود ..

صحيح أنه كان من أعماقه يكره كبير الضباع ، ويعلم بسوء نواياه ، ولطالما اصطدم معه ، ولكنه صدام أشبه بالحرب الباردة ، فالأسد ما زال ملكًا على عرش الغابة ، وكبير الضباع لن يكشر عن أنيابه في وجه الثعلب ، وهو يعلم أنه من المقربين للملك ؛ لأنه إن فعل لطارت رأسه قبل أن ينهي حديثه.. وكم من دروس مستفادة من رؤوس الذئاب الطائرة ، ولكننا ننسى أكثر مما نتذكر ..

هدأ الأسد قليلًا بعد أن أفرغ شحنة غضبه في وجه الثعلب ، ثم أذن له بأن يتكلم ، فقد كان رغم كل شيء لا يزال يحبه ويحترمه ، بل ويعلم مدى إخلاصه..

طلب الثعلب من الأسد ألا يستجيب لكبير الضباع فيما يقوله .. وألا يتخذ قرارات بناء على مشورته ، محذرًا الأسد من خطورة تواجد الضباع في العرين ، ومؤكدًا له أن لديه تقارير تفيد بتكاثرها وزيادة أعدادها في مناصب عديدة في الغابة ، بل وفي العرين نفسه ..

وأردف قائلًا : إن الضباع لا تتواجد بكثرة في مكان ، إلا عندما تشعر بأن هناك فريسة وشيكة الوقوع في براثنها ، ووقتها لن يستطيع أن يمنعها أحد من نهش تلك الضحية والإجهاز عليها. ولسوف تفعل وتبحث عن غيرها ..ووقتها ستسود وتتحكم ، ولن تستطيع إيقافها ، أو حتى الحد من خطورتها ، مهما بلغت قوتك كأسد..

قاطعه الأسد في حدة ، وعيناه ينفجر منهما الشرر والغيظ من استهانة الثعلب بقدراته وقوته .. فقال ، في عصبية ظاهرة : اعلم جيدًا أن الضباع مهما بلغت قوتها أو عددها لا تجرؤ على ذلك ، أو حتى على مجرد التفكير فيه ..هذا الأمر لايمكن أن يحدث أبدًا في وجودي .. هل نسيت أنني ملك الغابة !!

اسمع ما أقوله لك جيدًا ، أنا أعرف الضباع أكثر منك ، وأدرى بسبل التعامل معها.. وأفضل لي أن أجعل كبيرهم بالقرب مني وأمام عيني ، أرصد خطواته وأعد عليه أنفاسه ، فلا يستطيع أن يفعل شيئًا إلا بعد الرجوع لي .. هل فهمت أم ما زلت على عنادك كالمعتاد ؟؟

أطرق الثعلب برأسه في أسى شديد ، وقال: إنك لم تفهمني على الإطلاق.. أنا لست عنيدًا معك.. أنا فقط أخاف من حاستي اللعينة.. أنا قلق على غابتي ، وأشعر باقتراب مرحلة شديدة السواد كلون كبيرهم.. وأنا لا أفرض عليك رأيًا ، ولا أجرؤ على ذلك ولن أفعل.. ولكني أنقل لك مخاوفي ، بناء على استنتاجات وإحصاءات دقيقة ، لم أقم بها بمفردي ، بل عاونني فيها أشبال تثق أنت فيهم أكثر من ثقتك في شخصي .. وإذا كنت غير مقتنع برأيي ، فاسأل غيري ممن تثق بهم ..

أما عن حدتك معي وانفعالك علي .. فتلك أول مرة تفعلها معي ، وأشعر أنها لن تكون الأخيرة .. ولكنني احترامًا لمكانتك كملك للغابة ومحبتك ، التي تسكن قلبي وستظل.. سأسكت تقديرًا لذلك ، ولن أعلق، وسألتمس لك عذرًا ؛ فالأحداث الأخيرة وتلاحقها يبدو أنها أثرت علينا جميعا ، وجعلتنا ننفعل دائمًا دون أن نضع انفعالاتنا في الإطار الصحيح الذي تستحقه ..على الأقل وفقًا لحجم الحدث ، الذي انفعلنا من أجله ..

وصمت الثعلب ، فقد شعر أنه يتعامل مع الأسد بندية لا كرئيس ومرؤوس .. فخجل من نفسه فهو يحب الأسد ويجله ويحترمه ، ولم يقصد أبدًا أن يكون ندًّا له ، ولكنه شعر أن الغابة أهم وأبقى .. وكان لديه هاجس، يلح عليه بشدة بأن الخطر بات وشيكًا ومحدقًا ؛ خاصة أن رد فعل الأسد أصبح بطيئا ، وكأنه سلحفاة..!

وآثر الثعلب الانسحاب بعد أن شعر أنه قال للأسد كل ما يمليه عليه ضميره ، ولم يعد في جعبته ما يفيض به ، فاستأذن في الانصراف ، دون أن يسمع رد الأسد بالموافقة على مغادرته..

والتفت ، وهو يغادر غرفة العرش ، فلمح الأسد شاردًا ، يصوب عينيه نحو المجهول في وجوم..

* * *

2

الاجتماع الأخير

خرج الثعلب قاصدًا مكتبه .. كان مهمومًا محبطًا .. التقى في طريقه بالفيل ، فصافحه بحرارة كالمعتاد ، رغم أن الأخير كان لا يظهر مشاعره أبدًا لأي حيوان ..وحكى له الثعلب ،باقتضاب ،ما دار في العرين بغرفة العرش من حوار مع الأسد ..

كان الثعلب منتظرًا أن يعلق الفيل بأي عبارة سلبًا أو إيجابًا ، ولكن خاب ظنه ، فقد نظر إليه الفيل طويلًا في صمت حزين ، ثم تركه وانصرف ..!!

دخل الثعلب غرفة مكتبه .. تصفح بعض التقارير التي أمامه دون اكتراث أو حتى تركيز .. كان ذهنه مشغولًا .. أعاد رأسه إلى الوراء ، بعد أن عقد كفيه خلفها ، وأغمض عينيه محاولًا تصفية ما في ذهنه حتى يرتاح .. لم يستطع ، فقد قطع محاولة استرخائه دقات باب مكتبه .. كان جروًا صغيرًا من العاملين معه في إدارة معلومات الجزيرة المركزية .. فتح الثعلب عينًا واحدةً ، ألقى بها نظرة لامبالاة على الجرو ، ثم أغلقها ، فظل الجرو صامتًا وقد عقد يديه أمامه ، منكسا رأسه إلى الأمام في أدب مصطنع ..نبهه الثعلب إلى أنه يسمعه ، وكأنه يبعث إليه برسالة ضمنية ، مفادها أنه لا يستحق منه اهتمامًا أكثر من ذلك .. أخبره الجرو بأن موعد الاجتماع ، الذي دعا إليه الأسد قد

حان ، وقد أتى أحد الأشبال من إدارة المراسم لاصطحاب الثعلب إلى قاعة اجتماعات العرين .

قام الثعلب في تكاسل ملحوظ ، وسحب ملفًا من على سطح مكتبه ، يحوي تقريرًا عن تكاثر الضباع وخطورتها ، ولاحظ أن الجرو قد اشرأبت رقبته محاولًا التقاط عنوان التقرير بعينيه ، فطوى الملف حتى لا يمكنه من بلوغ مقصده ،مبتسمًا له في احتقار يستحقه .. فقد كان مفروضًا عليه للعمل بالإدارة من قِبَل كبير الضباع ،وكان الثعلب لا يتقبله على الإطلاق ، بل كان يبغض كل من هبط على وظيفة بالأسلوب ذاته عن طريق الإسقاط !! وكان الثعلب يعامله بجفاء ، وكان الجرو يتقبل تلك الدونية في المعاملة من الثعلب بكثير من النفاق ، ويهز له دائمًا ذيله فرحًا ، وكان هذا الأمر يوقع الثعلب في حيرة فلا يعرف متى يكون الجرو منافقًا ، ومتى يكون صادقًا ، ففي كلتا الحالتين يهز ذيله بنفس الحماس ..!

غادر الثعلب الغرفة دون أن يصطحب معه أحدًا من مساعديه ، ومشى بجوار شبل المراسم الملكية في هدوء ، طوال الطريق إلى القاعة .. كان مضمون التقرير الذي يحمله يقفز إلى رأسه ، إنه لا يريد أن يتركها ورغم أنه كان تقريرًا مطولًا عن الضباع ونشأتها وحياتها ، إلا أن ما كان يستوقفه دائمًا أن ثقة الأسد في الضباع تزيد ، كما أن إعطاءهم مساحة للقرب منه تجعلهم على وشك الالتصاق به ..

كيف تأتى له ذلك ؟ ألا يعلم أنها من الحيوانات المفترسة ، التي تأكل الحيوانات حتى وهي نافقة ؟

كيف تثق فيمن قد يأكلك حيًا وميتًا !

ألم يسمع زمجرتها الشهيرة وعواءها الكئيب ، الذي يشبه ضحكة هستيرية لإنسان أبله ؟!!

لم يجد إجابة لتساؤلاته مثلما يحدث له في معظم الأحيان .. ربما من كثرتها، هكذا حدث نفسه ، وهو يبتسم لشبل المراسم ، الذي كان يشير له إلى موقع مقعده بقاعة الاجتماعات ..

لم يشعر الثعلب بأن القاعة قد اكتملت .. فقد كان مصوبًا بصره إلى أعلى باتجاه صورة زيتية كبيرة تتصدر القاعة أعلى كرسي العرش مباشرة .. كانت صورة الأسد رمز الغابة وشعارها .. تبدو سوداء تمامًا ، وكأنه ظل يتوسط قرص القمر المضيء ، معتليًا ربوة عالية ، رافعًا رأسه في شموخ .. ظلت عيناه متعلقة بالصورة، وكأنه في حالة تعبد ، لم يخرجه منها إلا همسة من الحصان الجالس بجواره ، يخبره بأن الملك قد دخل القاعة .

اعتدل الجميع في مقاعدهم كزوايا قائمة ، وتعلقت أبصارهم بالأسد، الذي كان قد استقر على كرسي العرش ، وقد بدا على وجهه العبوس الشديد..

بدأ الأسد حديثه دون عبارات الترحيب المعتادة في الاجتماعات الرسمية، وبصوت بدا خفيضًا مكتومًا - وكأن أحدًا قد أجبره على الاجتماع بهم ، لا هو الذي دعاهم إليه بمحض إرادته - تحدث الأسد عن المظاهرات التي قامت بها القطعان المختلفة طوال الأشهر الماضية ، ثم أدار دفة الحديث إلى ما لاحظه من بوادر فساد ببعض أرجاء الغابة ، ثم اختتم كلامه بضرورة الاستماع إلى كبير الضباع ، الذي أعد تقريرًا مهمًا عن الوضع الحالي وسبل الخروج من الأزمة ..

كاد الثعلب ينفجر ضاحكًا من المفارقة ، فهو أيضًا يحمل تقريرًا عن فساد الضباع وكبيرهم ، وتلك هي الأزمة الحقيقية .. فإذا بالأسد يطلب منهم الإنصات إلى كبيرهم لسماع تصوره عن حل الأزمة .. يا لها من أزمة بالفعل!

* * *

كان حديث كبير الضباع مملًا وطويلًا للغاية ، وكان به تكرار كثير للتحذير من خطورة الموقف الراهن والمرحلة الحالية .. إلى آخر هذه العبارات ، التي تشعر معها وكأنك تشاهد صورتك في مرآة محدبة تارة ، ومقعرة تارة أخرى !!!

شعر الثعلب أن كبير الضباع يتعمد تهويل الأحداث ، التي جرت مؤخرًا لتخويف الأسد ، ودوَّن ملاحظته في ورقة صغيرة دفع بها إلى الحصان ، الذي ما إن قرأها حتى ابتسم ، ثم طواها في هدوء وربت بيده على ساق الثعلب في رفق ؛ لكي يهدئ من روعه ..

استولى الملل على الثعلب تمامًا من جراء حديث كبير الضباع ، فقرر أن يقضي على مله بتفرس وجوه الحاضرين ، وهي إحدى هواياته التي لا يكل ولا يمل من ممارستها..!!

بدأ بالأسد فوجده غير مكترث على غير العادة .. كانت نظراته شاردة ، توحي بعدم الاهتمام بما يقال.. نظر إلى الفيل فوجده لا يحرك ساكنًا كالعادة ، وجهه محفور كتمثال ، لا تعرف أبدًا ما يموج بداخله .. كان النمر الآسيوي يدون ملاحظاته كما اعتاد أن يفعل دائمًا .. نفس التركيز.. وعلى نفس الوتيرة وكأنه آلة لا تكل ولا تمل ولا تعطل أبدًا..! انتقل ببصره إلى أقصى يمين

الأسد ، كان فرس النهر يحتل مساحة مقعدين أو أريكة صغيرة نظرًا لحجمه، وعلى وجهه ابتسامته الشهيرة البلهاء ، التي ينافس بها لوحة الموناليزا في شهرتها ، وكان يهز رأسه من حين لآخر ، دون إيقاع صحيح يتفق مع ما يرد من أحداث في تقرير كبير الضباع ، وكأنه يوحي للحاضرين بأنه يفهم ما يردده كبير الضباع ، الذي رشحه لقيادة الجزيرة المركزية ..!

وقعت عيناه على الفهد .. كان متجهمًا يدون بعض العبارات بسرعة ورشاقة كعادته ، ثم يعاود الاستماع في اهتمام ، ثم يزداد تجهم قسمات وجهه بما يوحي بعدم الرضا عما يُقال ..أو هكذا خُيل للثعلب .. التفت إلى جاره الحصان ، فوجده في أشد حالات التركيز ، دون رد فعل يوحي بالموافقة أو الرفض ، فقد كان الحصان دائمًا يستمع ثم يأخذ وقتًا لهضم ما سمعه ، وبعدها يقول رأيه وعندئذ لا يغيره أبدًا.. التفت إلى يساره فوجد ضبعًا يجلس بالقرب منه .. اندهش ورجع برأسه إلى الوراء قليلًا ؛ حتى يرى بقية الصف الأيسر فاتسعت دهشته أكثر ، ثم ما لبثت الدهشة أن تحولت إلى صدمة ، بدأت ملامحها تتسرب إلى قسمات وجهه رويدًا رويدًا ، وكأنه تم وخزه بحقنة مخدرة ، بدأ مفعولها ينتشر في جسده .. كان الصف بأكمله تقريبًا من الضباع بمختلف أنواعها ..المرقط والبني ، والمائل إلى السواد والمخطط.. كاد يقفز من مكانه ، ويقاطع كبير الضباع لينبه الأسد إلى خطورة الموقف ..

هذه هي الأزمة الحقيقية وهذا هو الموقف الراهن ، بل إنها كارثة تزمجر بألوان وأشكال مختلفة ..

ويبدو أن الثعلب قد تحرك كثيرًا بجسده يمينًا ويسارًا ، أو أصدر صوتًا ما ليعترض على وجود الضباع ؛ فتنبه الحصان إلى حركته ، فاستفسر منه بعينيه عما يؤرقه ويزعجه إلى هذا الحد ..

همس له الثعلب بصوت كان مسموعًا إلى حد أنه لم يستطع خفضه من فرط انفعاله ، قائلًا : ما هؤلاء الضباع ولماذا هم هنا ؟؟ رد الحصان باقتضاب شديد : سأخبرك بالتفاصيل فيما بعد ، والآن اجلس بهدوء ولا تتحرك هكذا، فتلفت إلينا الأنظار..

إلا أن الثعلب لم يقو على الانتظار كعادته ، فظل يلح في سؤاله على الحصان، ويقدم له ورقة وقلمًا ليكتب له أي عبارة تشفي غليله ، وظل على إصراره وإلحاحه ، حتى علا صوته قليلًا فلفت نظر كبير الضباع إلى وجود حركة غير طبيعية في الصف المواجه له ؛ حيث يجلس الثعلب فتوقف عن الكلام ، وجال ببصره بين الثعلب والأسد ؛ حتى يلفت نظر الأخير إلى تصرفات الأول ..

نظر الأسد إلى الثعلب في تساؤل ، وكأنه يقول له: هل هناك مشكلة ما ؟ رفع الثعلب يده عاليًا معتذرًا في صمت ، ثم أشار بنفس اليد بعد أن خفضها قليلًا باسطًا إياها إلى كبير الضباع ؛ ليكمل حديثه الممل..!!

عاد الثعلب ينظر إلى الحصان مرة أخرى ، مركزًا معه بكل حواسه ، وكأنه يستعطفه بأن يجيبه عن تساؤلاته .. وأمام إلحاح الثعلب وحتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه من جراء تصرفاته الصبيانية ، تناول الحصان ورقة وقلمًا ، وكتب عبارة من سطر واحد ، ثم طوى الورقة ، وسلمها للثعلب مشيرًا له بيده أن يقرأها ويصمت..

فتح الثعلب الورقة في تعجل .. كانت يده ترتعش توترًا وقلقًا ، ووقعت عيناه على ما دوَّنه الحصان ، فقرأ العبارة الآتية «هؤلاء كبار معاوني كبير الضباع ، وجميعهم معينون بأمر ملكي من الأسد» .

ظل الثعلب ينقل بصره بين الحصان ، ووجوه الضباع الكئيبة الجالسة بجواره ، وكأنه لا يصدق ما يراه .. بعد برهة لاحظت الضباع أن الثعلب يوجه بصره إليها بين حين وآخر ، فكشرت له عن أنيابها حتى سال لعابها من بينها .. وهو ما شعر معه الثعلب باشمئزاز ، فاعتدل في جلسته ، بعد أن وجه جانبًا كبيرًا من ظهر مقعده إلى وجوههم ، وكأنه يحتج على وجودهم ، وتفرس في وجه الأسد محاولًا لفت انتباهه ؛ إذ ربما يعطيه الكلمة فيطلب منه طردهم من القاعة ..لا ، بل من الغابة كلها لو استطاع ..

* * *

تنبه الثعلب إلى أن كبير الضباع قد وصل إلى نهاية تقريره ، وبات على وشك أن يختتم حديثه الممل ، فوجه تركيزه إلى ما يقوله ففوجئ به يطلب سلطات أوسع لنفسه ..وصلاحيات أكبر لفرس النهر بالجزيرة المركزية ، وأخيرًا كانت الطامة الكبري في طلبه بأن تتم الاستعانة بالضباع في جميع مؤسسات الغابة الحيوية ؛ لإعادة تطوير نظم العمل بها وتحديثها.. ثم في حركة مسرحية ، طلب أخذ الأصوات على مقترحاته مقررًا بنبرة كاذبة لا تخطؤها أذن أنه سيتقبل الرأي الآخر في جميع الأحوال ..

تعلقت الأبصار بالأسد .. كان الثعلب يأمل من داخله أن تُرفض تلك المقترحات ، فيوجه للضباع وكبيرهم لطمة قوية ، أو أن يحيل مقترحاته إلى أي إدارة لدراستها ، مثلما يفعل دائمًا عندما لا يريد أن يتخذ قرارًا في حينه ، فتكون اللطمة أخف ، ولكنها على الأقل مؤثرة إلى حين ..

ولكنه فوجئ بالأسد يوافق على التصويت ، بل ويبتلع الطعم بأن كبير الضباع سيتقبل النتيجة مشجعًا الحضور على تحية كبير الضباع لديمقراطيته ..!

شعر الثعلب بأن الأمر لا يعدو أن يكون تمثيلية ، متفقًا عليها مسبقًا ، فالنتيجة ستكون محسومة عند التصويت ، وإلا ما فائدة الزج بهذا العدد من الضباع ، التي تجلس على يساره ، فهي التي سوف ترفع مخالبها بالموافقة عند التصويت ، ولو كان الأسد يستمع إلى آراء مستشاريه مثلما كان يفعل دائمًا ، لعلم أن تلك المخالب ستغرس في جسده كأول ضحاياها .

نظر كبير الضباع شزرًا للثعلب في انتظار معرفة رأيه على التصويت ، فظل الثعلب ساكنًا كالحجر ، متعمدًا أن يضع يديه أسفل المنضدة ، وكأنه يحنج على التصويت ، وظل يحملق في وجه كبير الضباع في استخفاف ، حتى استفزه من كثرة ما صوب بصره إليه .

جرى التصويت في هدوء مشوب بالحذر ، فقد رفض الحصان الموافقة، وكذلك الفيل ومثله الفهد ، بينما وافق النمر مع التحفظ.. على حين وافق فرس النهر في تسرع ..!! ورفع قطيع الضباع مخالبهم إلى أعلى في وقت واحد، وكأنهم في عرض عسكري ..!

أما الخرتيت الذي كان يمثل قطاع الشئون الإدارية بالغابة ، وكذلك الثور نائب كبير الضباع ، وأخيرًا الدب الأسود الذي يتولى صياغة أوامر الأسد بالعرين .. فقد رأوا أن يزيدوا المسرحية الهزلية فصلًا آخر ، فتفتق ذهنهم عن أن يتظاهروا بأن لديهم هاجسًا من الموافقة المطلقة ، وأنهم يريدون التمهل فهذه قرارات مهمة ومصيرية قائلين : لا يصح أن نوافق عليها هكذا ..!

وقرروا أن يمسكوا بالعصا من المنتصف ، فأعلنوا موافقتهم من حيث المبدأ .. !! وهذه الموافقة المائعة ، كما هو معروف ، لا تعني شيئًا ، فالموافقة موافقة .. والرفض رفض .. أما عندما نحب أن نتظاهر بالموافقة أو نتجنب

إعلان الرفض بصورة صريحة ، فنقول موافقة من حيث المبدأ ، ومن يقول ، عادة ذلك لا يكون لديه مبدأ ..

ظل الثلاثة : الخرتيت والدب الأسود والثور يهاطلون ويناورون .. من خلال الاستفسار عن نطاق صلاحيات الضباع وفرس النهر ؛ حيث أسفرت استفساراتهم عن اقتراحهم مزيدًا من الصلاحيات للاثنين ..! مال الثعلب على أذن الحصان قائلًا : إنها من البداية مسرحية ، وكل منا يؤدي دوره ، ومن يخرج عن النص يتسبب في إرباك الآخرين ومع تكرار خروجه يستبدلونه بممثل آخر .. وهكذا. فأجابه الحصان ، في أسى : إلا إذا كان خروجه عن النص محببًا إليهم ، فوقتها يضيفون ذلك الخروج إلى حواره ، فيصبح من صميم دوره ، ونظن من بلاهتنا أنه تجويد ممن يؤدي المشهد ، فنلتهب أيدينا بالتصفيق لمن يضحكوننا ، بينما الواقع أنهم هم الذين يضحكون علينا..!!

تجول الثعلب ببصره فوقع على الأشبال ، فوجدهم في حالة ترقب لقرار الأسد ، وفي أعينهم نظرة أسى على حال ملك الغابة مثلهم الأعلى وقدوتهم، الذي بات كبير الضباع بصلاحياته الجديدة ندًّا له ..

تذكر الثعلب أن هناك من لم يقل رأيه حتى الآن .. أولهم الطاووس .. بحث عنه فلم يجده ، وعلم من الحصان أنه شاهده يغادر قبل التصويت، فقد كان يفضل ألا يخسر أحدًا ، ولأنه دائما مشغول بأموره الخاصة فقد ترك الاجتماع قبل أن ينتهي كعادته دائمًا..أما كبير القردة والخنزير البري ، فقد ظلا صامتين ، بينما أنظارهما متعلقة بالأسد ، لعل وعسى تأتي منه بادرة تعينهما على اتخاذ القرار .. وأطرق الثعلب في أسى ، وقال لنفسه : « لماذا نأتي بمن لا يقوى على اتخاذ القرار ، ونوليه أمرًا من الأمور ، ثم نقصيه عن

منصبه بعد ذلك ، رغم أن المقدمات غالبًا ما تؤدي إلى النتائج ، ومن غير المنطقي أن تأتي بخنزير أو قرد لتطلب منه اتخاذ قرار في إدارة غابة .. يا ترى من يكون المخطئ هنا ..؟ الذي اتخذ القرار بدعوتهما إلى الاجتماع ، أم الاثنان معًا باعتبارهما قد وافقا على المشاركة في قيادة غابة ؟»

كان يعلم أن كبير الضباع هو الذي دعاهما بهدف ضمان صوتيهما لصالحه، والآن ها هما لا يقويان حتى على إبداء الرأي بالرفض أو القبول .. ألا يضرب هذا الأمر لنا مثلًا ؛ فنعتبر حتى لا نقع في الخطأ نفسه مرة ثانية !! فما بالك ونحن نكرر الأخطاء ذاتها في الإدارة عشرات المرات !

كم قرد وخنزير ، ومن على شاكلتهم أتينا بهم في مناصب قيادية مهمة .. وما زلنا نصر على الاحتفاظ بهم في مناصبهم؟؟..

التفت الثعلب مرة أخرى إلى الحصان ، وسأله عن موقف الجمل ، فأجابه: إن الجمل هو الوحيد الذي امتنع تمامًا عن التصويت ، فقد كان يائسًا ومحبطًا منذ فترة ، ولطالما طلب من الأسد إعفاءه من منصبه ، إلا أنه لم تتم الاستجابة لرغبته .. لم يعلق الثعلب فلم يكن يعجبه الموقف برمته ، ولو كان مكان الجمل لقال رأيه بصراحة فورًا ، مادام أنه زاهد هكذا في المنصب ..!

تنبه الثعلب إلى أن الدب الأسود غادر مقعده متوجهًا صوب الأسد، وفي يده ورقة صغيرة ، سلمها للأسد .. وبينما كان الأخير يلقي ببصره عليها، كان الدب الأسود يهمس في أذنه ببضع كلمات ..

أعطى هذا المشهد أملًا جديدًا للثعلب ؛ إذ ربما يكون خروجًا عن النص ، غير متفق عليه هذه المرة قد يُنهي هذا العرض المسرحي الكئيب إلى الأبد ..

مضى الثعلب يتأمل الدب الأسود .. فقد كان متمرسًا في عمله ، لديه خبرات متراكمة من سنوات طويلة ، أمضاها في منصبه ، مشرفًا على جميع الأمور الإدارية وتسيير دولاب العمل كما يقال دائمًا .. كان يصيغ كل القرارات الملكية ، ويراجعها بدقة متناهية فضلًا عن متابعته وإشرافه على عرش الطاووس بالمزرعة الملحقة بالغابة ، وكان الأسد يتعمد أن يشركه في جميع الأمور المهمة ، ويطمئن كثيرًا إلى وجوده ، أكثر من اطمئنانه إلى رأيه، وهي مسألة معقدة لا يعرف أحد كيفية حلها إلا الأسد ، الذي أتى بهذا الدب الضخم ويستخدمه حسبما يريد ..

وفي كل مرة ، كانت تكثر فيها الأقاويل حول الدب الأسود وفساده وجبروته وسطوته ، وأيضًا صلافته في التعامل مع الحيوانات خاصة قيادات الغابة وكبار مسئوليها ، كان الجميع يتوقع أن يطيح به الأسد من جميع مناصبه.. وفي كل مرة كان يخيب ظن الجميع ، ويتمسك به الأسد أكثر ، بل ويزيده هذا الموقف رسوخًا في مناصبه ، ويحصل أحيانا على صلاحيات أكبر .. حتى تندر الثعلب يومًا على هذا الأمر مع الأسد ، فقال له : إنه سوف يمتدح له الدب الأسود دائمًا وأبدًا ، لعله يقيله من منصبه ..!

ولم يعجب ذلك الأمر الأسد على الإطلاق ، فلم يكرره الثعلب مرة ثانية. . ومن يومها أدرك الثعلب أن الأسد الذي يحكم غابة ، لابد له دائمًا من مخلب قط يشهره في وجه من لا يريد مواجهته ، لا خوفًا بل احتقارًا وتقليلًا من قدره .. بينما يظل الأسد دائمًا هو خط الرجعة الأخير ، إذا ما أراد أن يعفو عن الفريسة التي أطلق عليها الدب الأسود من البداية ..

استغرق النقاش الهامس بين الأسد والدب الأسود بضع دقائق ، مرت بطيئة ، إلى أن عاد إلى مكانه متبادلًا حديثًا أشد همسًا مع كبير الضباع ، بدت معه على وجه الأخير معالم الارتياح..

إذًا ، لقد سبق السيف العذل.. والكارثة آتية لامحالة.. ولم يمهل القدر الثعلب أكثر من ذلك ليسترسل في وصف ما يراه ، فقد نطق الأسد بما كان لا يجب أن يقوله يومًا ما.. وبعبارات مقتضبة ، وفي عجالة شديدة أشبه بمن يريد أن ينهي أمرًا ما على أي نحو ، بغض النظر عن العواقب ، وافق الأسد على منح كبير الضباع صلاحيات أسد في اختصاصاته..!!

كاد الثعلب يسقط مغشيًا عليه لقد كان كبير الضباع يطلب أقل من ذلك، ولم يحلم بما نطق به الأسد أبدًا ، فها هو يأتي إليه على طبق من ذهب.. ولم يقو على مغادرة مكانه ، رغم أن الاجتماع قد انفض وخرج الأسد إلى عرينه شاردًا، ولم يجد الثعلب وصفًا لما حدث إلا أنه انتحار سياسي من ملك الغابة، ربما لا يستطيع أحد إسعافه منه ..

* * *

انتهى الاجتماع ، وبدأ الحضور يتأهب لمغادرة القاعة ، وسط مشاعر متباينة تمامًا ..ففرس النهر يقدم التهنئة لكبير الضباع في تزلف وخضوع ، والضباع تحيط بكبيرها بما يمكن وصفه بالزفاف الكاذب ، والفيل يرتب أوراقًا في برود ، وكأنه كان يحضر اجتماعًا روتينيًا لا مصيريًا .. بينما النمر يتحدث في هاتفه حديثًا هامسًا ، يبدو جادًا على نحو ما مما ظهر على وجهه من أمارات ، بينما يحدد الدب الأسود بصوته الجهوري موعدًا لكبير الضباع بمكتبه لصياغة القرارات ، والأخير يشكر له مجهوداته ، أو إن شئت الحقيقة

تخريباته .. بينما الخرتيت يتعجل الدب الأسود في إصدار القرارات ، رغم أنها لا تعنيه في شيء ، ولكنه ربما شعر أن عليه واجبًا بأن يؤدي دور المنافق حتى النهاية .. نظر الثعلب إلى الحصان ، فوجده واجمًا لا يقوى على الوقوف، فقد غابت عنه إشراقته وطلته الرائعة ، التي طالما اشتهر بها ، وبدا هزيلًا ، وكأنه يحتضر من شدة الألم..

بدأ الثعلب يشعر بدوار شديد وإعياء أشد.. وتذكر أنه مضى عليه أكثر من عشرين ساعة متصلة منذ أن دخل العرين في الصباح الباكر ، وهو يعمل دون أن ينال قسطًا من الراحة .. خرج وحيدًا من القاعة ، مترنحًا في مشيته وكأنه مخمور ، حتى وصل بالكاد إلى سيارته ، وقبل أن يدخلها ألقى نظرة عميقة على مبنى العرين القابع خلفه ، وكأنه يودعه ، ثم ألقى بجسده في المقعد الخلفي ، وأغلق زجاج نافذته بإحكام حتى لا يسمع صوت سرب من الغربان ، التي تجمعت في مشهد غريب ، فقد كانت تطير أعلى العرين على شكل دائرة ، وتطلق نعيقًا متواصلًا يصم الآذان ..

أغلق الثعلب عينيه تمامًا وظل الصوت يرن في أذنيه حتى استلقى على فراشه ، وما أن وضع رأسه على الوسادة ، حتى راح في سبات عميق ، وكأن لسان حاله يقول لا أريد أن أستيقظ مرة أخرى .

* * *

3

يومٌ غاب فيه الأسد

استيقظ الثعلب من نومه متعبًا متثاقلًا ، وكأنه لم ينم على الإطلاق ..نظر من النافذة ، بينما لا يزال مستلقيا في فراشه وجد السماء ملبدةً بالغيوم ، رغم أن الطقس في مثل هذا الوقت من السنة يفترض فيه أن يكون صحوًا .. بدا متشائمًا نوعًا ما فهي بداية غير طيبة لعمل شاق ؛ خاصة بعد اجتماع الأمس .. يا ترى ماذا يخبئ لنا القدر ..هكذا همس لنفسه ، بينما كان يركب سيارته في اتجاه العرين كالمعتاد ..

عندما وصل الثعلب إلى عمله بمقر قيادة العرين ، توجه بحكم وظيفته إلى غرفة العرش للقاء الأسد ، كالمعتاد ، باعتباره مديرًا لإدارة جمع المعلومات عن الحيوانات ، التي تخرج عن قانون الغابة..لاحظ عند دخوله وجود حركة غير طبيعية ، وإن كانت على استحياء ، أو إن شئت الدقة كأنها مشوبة بحذر شديد ، لم يعر الأمر التفاتًا ، ومضى في طريقه إلى أن فوجئ بالفيل يهرول باتجاهه ، وما إن رآه حتى تمهل قليلًا وقال له في جزع : توجه فورا إلى مقر القيادة المركزية بقلب الغابة ..لقد صدر قرار صباح اليوم بتعيين الخرتيت ؛ بدلًا من الأسد كقائد للغابة وملكًا عليها..

كان القرار مفاجأة بكل المقاييس ، فلم يكن متوقعًا على الأقل بالنسبة له أن يتولى الخرتيت أو أي حيوان آخر هذا المنصب الذي يحتاج إلى أسد .. بل

لم يكن في الحسبان ، من الأساس ، أن يتم عزل الأسد.. ولأنه ثعلب فقد قرر ألا يبوح برأيه فيما حدث ، وإن أبدى دهشته مع المندهشين كعادته في كل أمر، فقد كان يخشى في الفترة الأخيرة أن ينسب إليه قول أو إبداء رأي لا يتفق ورأي بطانة الأسد ؛ لذا آثر الصمت في البداية ، وقرر أن يتوجه إلى مقر القيادة لاستطلاع الأمر ، وسماع التبريرات والآراء من المنافقين من بقية الحيوانات.. لمعرفة من سيقود الجزر الأربعة الرئيسية ، التي تحيط بالغابة وأهمها الجزيرة المركزية ، وهل سيظل بها الأشبال كما كانوا حتى اليوم السابق، أم أن تغييرا منتظرا سيطولهم أيضًا..كان مقر القيادة يعج بالحركة والنشاط منذ إعلان الخبر... وتوالى وصول الحيوانات تباعا للتهنئة والاستطلاع ، واستجداء المناصب وجلب المصالح كما هي العادة .. فهو عهد جديد بكل المقاييس، ولا يمكن بأي حال من الأحوال التكهن بما تحمله الأيام القادمة ؛ فالغابة طوال عمرها مستقرة لها قانون يحكمها.. يقودها الأسد بحزم وهيبة، وكل حيوان يعرف دوره ، ويلزم حدوده ، وكل من حاول الخروج على القانون كان يلقى مصيرًا مؤلمًا ونهاية متوقعة على يد الأسد وأعوانه ، وكان الجميع يرتضي هذا الأمر باعتباره يطبق على الجميع سواء بسواء.

كان المنظر في مقر القيادة مهيبًا بحق .... لا لأن المكان في تصميمه المعماري يعطي هذا الانطباع ، ولكن للطقوس التي قامت بها القرود العاملون به .. فالمكان – هذا الصباح – نظيف جدًّا ، والأعمدة الخارجية تم تلميعها ، والسجاد الأحمر بسط في الردهة الرئيسية المؤدية إلى قاعة الاحتفال.. كما كانت هناك مجموعة أخرى من القرود والحمير ، ترتدي ملابس حمراء مزركشة بالأصفر ، تقوم بتلميع أدواتها الموسيقية استعدادًا لعزف السلام الملكي ، عند قدوم الحاكم الجديد .. بينما عشرات البجعات

والغزلان الممشوقة القوام تشرف على وضع منضدة الشراب، التي رصَّت في إحدى أركان القاعة ؛ لتدعى إليها جموع الحيوانات عند بدء الاحتفال .. عشرات من الجمال تحمل صورًا للأسد في اتجاه المخازن ، نزعتها الحمير من على جدران العرين مع أنها رمز..! بينما أتت بعض الكلاب بصور رمادية اللون ، لا تستطيع أن تتبين ملامح صاحبها بسهولة .. فيما يبدو أنها للملك الجديد.. تمنى الثعلب أن يعطوه صورة من صور الأسد الزيتية ، التي نزعوها من مكانها ، ولكنه وأد أمنياته ؛ فهذا ليس وقت الحنين إلى الماضي ، بينما الحاضر لم يبدأ بعد ..ولكنه دائمًا ما يكون متعجلًا..!

* * *

كانت الطرق المؤدية لمقر القيادة ، من الخارج ، قد اقتصرت على طريق واحدة فقط ، وأغلقت بقية الطرق تحسبًا لأي أعمال شغب أو عنف ، من فصائل الجاموس الوحشي ومَنْ يحركها.. انتشرت آلاف من البغال في جميع أرجاء الغابة ، تحرس المباني الحيوية والمهمة ، وتغلق الطرق المؤدية إليها ، بينما تولت الحمير الوحشية إصدار الأوامر لها وتوزيعها بالمقر لتأمينه من الداخل، لحين وصول وحيد القرن ملك الغابة الجديد ..!

ما إن وصل الثعلب إلى مقر الاحتفال ، حتى شعر برهبة المكان ، رغم أنه معتاد عليه بحكم عمله وطالما دخله ، ولكنه في هذه المرة شعر بقشعريرة غريبة تسري في جسده ، سرعان ما نسيها بمجرد التحامه مع بقية القطيع، فدوام الحال من المحال .. هكذا قال لنفسه ، وهو يتأمل المشهد في هدوء.. كانت الحيوانات بمجرد دخولها ، تصطف على الجانبين بالبهو الملكي الكبير في مشهد رسمي .. وقور .. مهيب.. كان الفيل يقف في المقدمة، يتحدث بصوت خفيض مع النمر.. ولكنه لم يستطع إخفاء لمحة من الأسى

كانت ظاهرة في عينيه .. فالفيل يرى في نفسه ، منذ زمن بعيد ، أنه الأحق بقيادة الغابة ولم لا ؟ فهو الذي يطلق عليه دائمًا أنه حكيم وطيب، وله هيبة، وفي نفس الوقت يتمتع بقوة جسمانية رهيبة ، ولا يعيبه أنه نباتي فالحيوان المفترس ليس بالضرورة ذا شخصية قوية .. الضبع مثلًا له قوة جسمانية هائلة، وحيوان مفترس .. ومع ذلك يوصم بالجبن دومًا .. ودائمًا ما كان الفيل في الصف الثاني ، ولسنوات طويلة .. وعندما علم بالتغيير وأن الأسد سيعزل، طاف بخاطره إحساس قوي بأن الاختيار سيقع عليه أخيرًا.... كان يشعر أن الوقت قد حان بالفعل لتولي أمور الغابة ، فقد كان يهدف إلى استقرارها واستمرار الجميع في أماكنهم .. كان يؤمن بأن سياسة الصدمات والتحركات غير المحسوبة لا تناسب الغابة على الإطلاق . وكان في الآونة الأخيرة من عصر الأسد ، يشعر بقرب نهايته ، وكان ذلك الشعور رغم مرارته يلقى قبولًا خفيًا بداخله ولإحساسه بأن الدور الآن عليه .. كان يتأمل عرش الغابة في اشتياق ولوعة ، ولم يلحظ أبدًا نظرة الشجن ، التي كانت تبدو دائمًا في عينيه .. ربما كان الآخرون يفسرونها بأنه لن يصل لحكم الغابة أبدًا، وسيظل في الظل دائمًا ، ولكنه لم يدرك تلك الحقيقة ، بل كان طموحه أكبر من قدراته .. وبالتالي لم تكن مقدماته تؤدي إلى نتائج صحيحة ، وظل منتشيًا بقرب تحول الحلم إلى حقيقة ، واستمر في أحلامه واهمًا.. حتى أفاق من هذا الشعور بالنشوة على صوت الحمار الكئيب ، عبر الهاتف أمس بمقر القيادة ، يبلغه باختيار الخرتيت وضرورة حضوره حفل تنصيب الخرتيت ملكًا للغابة، وها هو الآن يقف مرة أخرى في الصف الثاني ..وكأنه التصق به كظله ، فلا هو يغيب عنه ، ولا يستطيع أن يتجاوزه أبدًا إلى المقدمة، ومما زاده مرارةً أنه كان يقف خلف أسد دائمًا، واليوم للأسف الشديد .. ستؤدي المراسم لخرتيت ..!!

وعلى عكس الفيل ، كان النمر منضبط المشاعر متجهم الوجه كالمعتاد، يتحدث بصوت رخيم في موضوعات عامة ، بعضها يتعلق بالأمن القومي للغابة ومسئولية قيادة الجزر الأربعة خاصة الجزيرة المركزية ، والتي تعد أهمها على الإطلاق ، وبعضها الآخر يتعلق ببعض المناصب الحساسة وضرورة تركها حاليًا لشاغليها لضمان الاستقرار ، وحديث عن ضرورة تغيير اسم العرين.. عرش ملك الغابة القديم واختيار اسم آخر يناسب الخرتيت ، وأنه بحث في المعجم والقاموس فلم يجد ..وأيضًا موضوع تغيير لقب ملك الغابة إلى القائد العام.. إلى آخر هذه الشكليات ، التي تهتم بموضوعات بعيدة دائمًا عن مغزى التغيير الحقيقي ... النمر دائمًا وأبدًا مهموم بعمله في الغابة، يعطي له كل وقته ، ورغم أنه يتشارك مع الفيل الصف الثاني دائمًا ، إلا أنه كان يختلف عنه في أنه لا يرغب في الحكم أبدًا ؛ فقد كان يفضل الصف الثاني عن أي منصب آخر في المقدمة .. كان يشعر أنه يتحكم من موقعه في كل شيء، ويضع السياسة التي يسير عليها صاحب الموقع الأول ، وكان في ذلك ما يُرضي غروره .. كان من تلك النوعية التي تعشق السلطة دون الأضواء ، ويجد سعادته في التحكم بالآخرين بمصائرهم وبأرواحهم ، دون أن يظهر على المسرح ، وكان يفخر بأنه المحرك الأول والدينامو لكل عصر أو عهد ، حتى ولو كان قائده أسدًا.. ففي قرارة نفسه كان يشعر أنه يقود غابة بأكملها، على رأسها الأسد نفسه فهو بذلك أقوى من الجميع . ورغم عدم دقة ما كان يروجه النمر عن نفسه ، ففي أحيان كثيرة كان الأسد لا يستمع لرأيه ، وفي أحيان أخرى كان يخالفه ، إلا أن الخطورة تلقي بظلالها اليوم عندما يقود الغابة خرتيت في وجود نمور متمرسة على الإدارة والسلطة ، تتنافس عليها مع ضباع شرسة لا ترحم .. يا ترى من سيقود من ..؟؟ بل إن شئنا الدقة كم يومًا سيصمد فيها حكم الخرتيت ، في ظل وجود هذا المزيج ؟!

تأمل الثعلب النمر قليلا ، ثم قال لنفسه إنه رغم علمه بأن النمر قوي ، إلا أنه لم يُعجب به أبدًا على مدار حياته في الغابة ؛ فهو لا يحب هذه الشخصية التي تكون دائمًا على وتيرة واحدة سلطوية ، متشددة روتينية في كل شيء، ودائمًا ما يذكره النمر بالموظف الحكومي أو المدير العام ؛ الذي لا يفعل شيئًا في حياته إلا الذهاب إلى المكتب والعودة منه في مواعيد محددة ، وينفذ التعليمات دونما أي ابتكار ..دائمًا روتين في روتين .... فلا مغامرة ولا مخاطرة ولا إثارة ، وإنما وتيرة واحدة تبعث على الملل بلا إبداع أوخلق.. وابتسم الثعلب ، فقد شعر بالملل بالفعل من كثرة تأمله لمشهد النمر ، والاستماع إلى حديثه ولم يحبه ، فلم تكن العلاقة بينهما يومًا ما على ما يرام ؛ لاختلاف طبيعتهما اختلافًا جذريًا ..

حرك الثعلب بصره بعيدًا عن النمر ، متوجهًا إلى جهة اليسار قليلًا ، فوقعت عيناه على مجموعة الضباع .. كان المشهد بحق مثيرًا جدًّا ، فقد كانوا حوالى سبعة .. جميعهم كانوا شبه مستبعدين أيام حكم الأسد ، باستثناء السنوات الثلاثة الأخيرة ، ولا وجود يذكر لهم في قيادة الغابة أو تولي مقاليد الأمور فيها إلا قليلًا.. فقط كبيرهم ونائبه في مناصب ذات نفوذ وسلطان ، ومع ذلك كانوا خاضعين لآخرين قبل اتخاذ القرار ، وكان الأسد يضعهم دائمًا في حجمهم الطبيعي ، ولا يثق فيهم لعلاقاتهم المريبة بالديناصورات ، وأصحاب المصالح من الحيوانات الأخرى حتى ضعف الأسد..

واليوم ، لمح الثعلب في أعينهم نظرة تشف في الأسد ، وطموح جامح بتولي مناصب أقوى عن ذي قبل .. ولم لا ؟ فما دام تغيير ، فليكن تغييرًا في كل شيء ، حتى ولو إلى الأسوأ ... وهل هناك أسوأ من ترك مقاليد الأمور

للضباع ؟ وتحت قيادة خرتيت ؟ هكذا ردد الثعلب بينه وبين نفسه .. وكان يعلم أن كبيرهم يتطلع دائما لقيادة الغابة ، وطالما حلم بهذا المنصب، وكان يعرف أيضًا أن صغار الضباع من حوله تزكي عنده هذا الحلم وهذا الطموح، وإن كان الثعلب يراه جنونًا ، وتشجعه على المضي فيه ؛ فهم بطانته وحاشيته الفاسدة المفسدة ، والمستفيدة دائمًا من وجودها بجواره فهو على الأقل يحميها بنفوذه القوي بحكم منصبه في الغابة .. واكتفى الثعلب بإيماءة من رأسه لتحية الضباع ، دون أن يتوجه إليهم ؛ فالوقت لم يحن بعد كي ينضم إلى مجموعة دون أخرى ، ثم إن مجموعة الضباع لا تناسبه على الإطلاق ، ومن ثم تكون العودة إلى الحياة البرية أرحم كثيرًا من العمل معهم في جميع الأحوال . . لفت نظر الثعلب وجود الثور في المكان ..كان مندفعًا كعادته، متقدمًا كل الصفوف ، متجهًا إلى الفيل .. ظل الثعلب يرمقه باندهاش ، وتساءل في حيرة : ما الذي أتى بهذا الثور إلى هنا ؟ ومن الذي دعاه ؟ ولماذا يتوجه نحو الصفوف الأولى ؟ كان الثعلب يعرف الثور منذ سنوات ، ويعرف كثيرين ممن عملوا معه.. واتفق الجميع على أن الثور لا يصلح على الإطلاق في أية مناصب قيادية لاندفاعه وتهوره وسرعة غضبه وسهولة استثارته .. ولم يجد جوابا ؛ فقد كانت الإجابة في هذه الظروف أشبه بالمستحيلات الأربعة : الغول والعنقاء والخل الوفي والخرتيت ملك الغابة الجديد ..!

* * *

تجول الثعلب ببصره في صفي النشريفة ، فلمح في مقدمتها الحصان .. كان شامخا بحق يقف بثقة وعظمة وتذكر الثعلب أن فترة عملهما معًا كانت من أعظم فترات عمله ،فقد تعلم الكثير من الصفات النبيلة ، من خلال

عمله معه ، وقال في نفسه ربما يتولى الحصان منصبًا مهمًا في الأيام المقبلة ، وكان صادقًا في أمنيته فتقدم بخطا واثقة وصافح الحصان مرحبًا ، وقرر أن يقف بجانبه أثناء المراسم ..

همس الحصان في أذنه مرحبًا به ، ثم سأله : هل لديك معلومات عن كيفية وصول وحيد القرن لمنصب الملك هكذا دون مقدمات ..؟ أجاب الثعلب في استنكار قائلا : مقدمات ؟! ألا يكفيك اجتماع الأمس وما حدث به من تجاوزات ؟ ! ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ إن ما حدث بالأمس كان أشبه بمن يعرف النتيجة قبل إعلانها رسميًا .. ونحن في السنوات الثلاثة الأخيرة ، نكاد نتلمس جانبًا من النتيجة كل يوم ، دون أن ندري ، ومن الواضح أن الضباع وكبيرها قد خططوا جيدًا على مدار السنوات الثلاث الأخيرة ؛ حتى بلغوا هدفهم ، وها هي جموع الحيوانات قد اصطفت أمامك اليوم ، ترفل في سعادة ، وكأنها تحضر حفل تنصيب ملك على غابة أخرى..!!

بدا الحصان غير مقتنع على الإطلاق ، فقد مط شفتيه طويلًا ، ومال برأسه إلى اليسار قليلًا ثم قال : لم أقتنع ، بل لم أستطع حتى أن أجد شيئًا منطقيًا أقنع به نفسي .. الأمر يبدو لي ، وكأن الأسد قد شارك في هذه المؤامرة .. تخاذل في الدفاع عن عرينه ، وفرط بسهولة في عرشه ، فهوت مملكة الغابة ، ودنت قيادتها للضباع التي أتت بخرتيت كواجهة لها..

قاطعه الثعلب ، وقد عقد حاجبيه : ولماذا تبدو واثقًا هكذا مما تقول ، وكأن لديك معلومات موثقة ؟ . .

هز الحصان رأسه نافيًا ، واسترسل : لأن الضباع لا تبادر بالهجوم مطلقًا ، وإنما تنتظر دائمًا حتى تقيس اتجاه التيار أولًا ، والوحيد الذي يستطيع أن

يمنحها هذه الفرصة لتنتهزها هو الأسد نفسه ، بانزوائه الهادئ وخضوعه غير المبرر لها في سنوات حكمه الأخيرة .. لقد وصل بي الشك إلى مداه ، حتى لأنني أحسب أن من كان يقودنا ليس أسدًا على الإطلاق .. لقد خُدعنا فيما يبدو أو أخطأنا الاختيار ؟ أم هل ترى أننا شاركنا بسلبيتنا فيما وصلنا إليه؟! ربما أكون مخطئا في تحليلي هذا ، ولكن ....

قاطعه الثعلب مرة أخرى ، قائلًا : نعم أنت مخطئ ، فالإنسان هو الذي أجبر الأسد على ..... ولم يكمل الثعلب جملته هو الآخر ، فقد كان أحد القردة يقف أمامهما مصوبًا نظرات كالسهام في وجه الثعلب ..

نهر الحصان القرد ، طالبًا منه الانصراف ؛ فقد ظن أنه كان يتنصت عليهما، إلا أن القرد أجابه في أدب مصطنع موضحًا أن المواقع في الصفوف الأمامية وأماكن الجلوس قد تم اختيارها بعناية وبترتيب مع النمر ، والذي كان نائبا للأسد وظل حتى هذه اللحظة في موقعه.. ونظر الثعلب للنمر عقب سماعه هذه الكلمات الثقيلة عليه من القرد ، فشاهد في عيني النمر نظرة تحذير بأن يمتثل لأمر القرد ، فرضخ وتظاهر بأنه يقوم بتحية الواقفين بجواره ، ثم تأبط ذراع القرد ومضى إلى مؤخرة الصفوف ، وهو يتحسر على ما أصابه من مهانة بعد أن كان دائمًا في المقدمة.. وسرح في الماضي الجميل .. وبدت له وجوه الموجودين للحظات وكأنها غير واضحة.. مشوشة .. مهزوزة ، وكأنها خياله يشاركه في التعبير عن الواقع الجديد .. بينما ظل الحصان في مقدمة الصفوف ، مطرقًا في أسى .

كان الثعلب مقربًا جدًّا من الأسد لذكائه الشديد وبراعته في عمله ، وأيضًا لخفة ظله . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان الأسد نفسه على استعداد للتضحية بالثعلب إذا ما أخطأ أو أفسد .. وكان الثعلب يدرك ذلك ويقبله فهو قانون الغابة والبقاء للأصلح والأقوى ، وكان يعمل على إتقان عمله دائمًا..لا لإرضاء الأسد ، وإنما لإرضاء غروره فهو أولًا وأخيرًا ثعلب ذكي ونشيط ومراوغ ، ولن يقبل بأية حال أن يكون أقل من ذلك ، حتى لو عاد حيوانًا عاديًا دون أية مناصب رسمية .. ارتاح الثعلب لما هداه إليه تفكيره من رأي ، وكان قد وصل إلى موقعه في نهاية الصفوف .. تلفَّت فوجد بجواره الحمار يحييه بحرارة ، فسلم عليه في برود شديد ، ورغم أن الثعلب عمل مع كثير من الحمير ، إلا أنه لم يستطع أن يتأقلم معهم على الإطلاق ، وإن كان لم يخسر علاقته بهم ، ولكنها طبيعته الحيوانية فهو مكار داهية خبيث مفترس في أغلب الأحيان ، وهي صفات يفتقدها الحمار فكيف يتفق معه .. وجال بخاطره أنه لولا الرسميات ، وأنهما موظفان في الغابة وفي مناصب قيادية ، لكان قد افترسه ! .

خرج الثعلب من تلك الأفكار الحيوانية الغريبة على يد تهزه ، فالتفت إليها ، فوجد الكلب يقف بجواره .. صافحه الثعلب ببرود ، مرددًا العبارات المعتادة عن الوفاء وإخلاص الكلاب ، إلا أنه بينه وبين نفسه لم يرحه وجود الكلب في هذا المكان ، فقد كان الكلب يسعى دائمًا لكي يكون من المقربين للأسد ، وفشل مرارًا وتكرارًا ، وهاهو يبحث عن دور آخر مع عهد الخرتيت ، وربما يكون منافسًا له في منصبه بالجزيرة المركزية ، والتي يتولى الثعلب فيها منصبًا مهمًّا ومرموقًا ... وتغيرت قسمات وجهه عندما طرأت في ذهنه تلك الفكرة ..ولاحظ الكلب ذلك التغيير ، وسأله عنه في

لهفة ، وهو يلهث .. فرد الثعلب بعبارات غامضة كعادته بأنه يرهب الموقف، وأن الأحوال في الغابة غير مستقرة ، وأنه يأمل أن تنتهي المراسم في سرعة ؛ ضمانًا للاستقرار ، وأن مصلحة الغابة فوق الجميع ، ففهم الكلب مغزى هذه العبارات ، واكتفى بالرد عليها بعبارة « معك حق دون شك» .

دار بخلد الثعلب أن الجميع يتحدث عن وفاء الكلب لصاحبه ، إلا أنه كان يرى عكس ذلك ؛ فالكلب لا يكون وفيًا إلا إذا كان له صاحب يعطف عليه ، ويغدق عليه الطعام والشراب ويغمره بالرعاية ، ودليله على ذلك أن هناك كلابًا ضالة تعقر من يقف في طريقها ، وأخرى متوحشة تعيش على أطراف المدن وبدايات الصحارى.. ولو أن الثعلب وجد رعاية وعطفًا من الإنسان ، لناله ما نال الكلب من سمعة طيبة ، لا يستحقها في كثير من الأحيان ..

ودمعت عينا الثعلب ؛ فهو دائمًا يرى أنه يأخذ أقل مما يستحق..

وقف الثعلب شاردًا رغم صخب المكان ، وتمنى لو أن عجلة الزمان توقفت أمس ، ولم يشهد هذا اليوم ..وأفاق من شروده ، وهو يلمح ألوانًا زاهيةً تمر بجواره ، فإذا بهما فهدان يقفان أمامه لتحيته .. كان يحبهما بصدق، ويرى أنهما من أكفأ الحيوانات ، ومن حسن حظه أنه عمل معهما لفترة .. وإن كانت قصيرة إلا أنه سعد بها جدًا ، فهو يحب الإيقاع السريع والمتنوع في العمل ، وهما أقدر من ينفذ ذلك وقد برعا فيه جدًا ..كانا دائمًا يعملان بدقة، ويتمتعان بعلاقات طيبة مع الجميع ، وكان الثعلب يعلق على ذلك بأن من يعمل فقط ويتفرغ لعمله ويتقنه ، ولا يلتفت إلى صغائر الآخرين وأحاديثهم الجانبية ، سيلقى دومًا احترام الجميع وسينجح في عمله رغما عنهم ، وكان

الفهدان من أصدق الأمثلة على صحة وصدق مقولته ..وبعد تبادل التحية، لاحظ الفهدان نظرة الأسى في عيني الثعلب ، ومال عليه أحدهما قائلا : لا تحزن ، تلك سنة الحياة ومن ارتضى العمل في قيادة الغابة ودهاليز الحكم والسلطان ، يجب أن يتحمل تقلبات الزمان.. والقوي هو الذي يصمد حتى النهاية .. انفرجت أسارير الثعلب قليلًا بعد سماعه هذه العبارة من الفهد ، وشدَّ على يده وهو يشكره ، وجامله قائلًا : إن الفهود دائمًا تستحق أكثر مما يقال عنها.. ولا يعرف لماذا طاف بخاطره أن الإنسان عندما أغفل الفهد ، واختار الخرتيت ، كان مغفلًا كالحمار ، ويبدو أنه نطق الكلمة الأخيرة بصوت هامس قليلًا فسمعها الحمار الواقف بجواره فردَّ قائلًا : أفندم يا ثعلب.... فابتسم الثعلب مرددًا : هكذا أنت ستظل دائما حمارًا ، لا تعرف إلا الطاعة العمياء ، دون أدنى تفكير أو تدبير .

توالى حضور الحيوانات تباعًا حتى اكتملت الصفوف... وأصبحت كل حيوانات الغابة ممثلة في حضور المراسم الخاصة بتنصيب ملك الغابة الجديد .. حتى الحشرات لم تغب عن الحضور ، وقد لفت ذلك انتباه الكلب، وسأل الثعلب عن سبب حضور الحشرات ، فأجابه في خبث : أليس هم أكثر الفئات تطبيقًا للقانون ؟ فتساءل الحمار من على يمين الثعلب : ولكن الحشرات لا تشارك في الحكم أو تتولى مناصب قيادية!!. فرد الثعلب ونظرته تزداد خبثًا ، مع اتساع ابتسامته الصفراء : إنهم الفئة الأكبر التي يطبق عليها القانون ، فكانوا بذلك النموذج الحقيقي لسيادته في غابتنا !!

دقت طبول عنيفة ثم بدأت الموسيقى تعزف ألحانا كلاسيكية ، تليق بالموقف ، واندمج الحمير بملابسهم الحمراء المزركشة في قرع الطبول بشدة ،

بينما كانت القردة تتهايل طربًا ، وهي تنفخ في آلاتها النحاسية ، وكانت الأنظار كلها تتجه صوب المدخل والذي زين بالورود .. وعندما علت الموسيقى في دقات متتالية صاخبة شاهد الجميع الخرتيت ، يتقدم على البساط الأحمر في خطوات ثقيلة ، ورفع الجميع أيديهم وقابلوه بعاصفة من التصفيق الحار ، وابتسم الثعلب مرددًا في خاطره .. مات الملك .. يحيا الملك ..

* * *

4

الخرتيت قائد عام

عندما تلقى الخرتيت نبأ تعيينه ملكًا للغابة ، لم يصدق على الإطلاق ، وراح يجري اتصالات بكثير من معارفه ليستوثق من صحة الخبر .. وعندما تأكد منه تهاوى على أقرب أريكة .. وسرح في هذا الأمر طويلًا .. فهو بينه وبين نفسه يعلم أنه لا يستحقه ، بل ولم يكن يفكر على الإطلاق في الوصول إلى أية مناصب ، حتى لو كانت من الدرجة الرابعة.. فما بالك بملك على غابة !!

كان وحيد القرن يعلم إمكاناته وقدراته جيدًا ، بل كان الجميع يعلمون عنه أنه شديد الغباء عصبي المزاج أرعن غير حصيف .. إلخ والأهم أنه لا يمتلك من مواصفات الأسد أدناها ..!

كان عمله بالشئون الإدارية بالعرين أقصى طموحاته ، ولم يكن يفعل شيئًا سوى توقيع أوراق وحضور اجتماعات.. فلماذا وقع الاختيار عليه إذن؟ ومن الذي اختاره ؟

ظل يردد السؤال على نفسه دون أية إجابة حاضرة في ذهنه .. وعاد بذاكرته إلى الأمس ، عندما حضر من يخبره أن الفيل ، في الخارج ، يرغب في لقائه ، فدعاه على الفور وسأله في لهفة السؤال الذي لم يجد له إجابة .. وكعادة

الفيل لم تظهر على وجهه أية انفعالات..تلقى السؤال ببرود شديد ، وكأنه سؤال عن معرفة الوقت.. ثم أجاب بصوت هادئ وعبارات دبلوماسية ، لا تشفي ولا تسمن من جوع من نوعية المرحلة القادمة تحتاجك ، وهي فترة انتقالية ، وقد تكون بينية ، ونحن في عنق الزجاجة ، بل هي مرحلة دقيقة .. إلى آخر هذه المراحل والفترات التي ما تنتهي أبدًا ..

كانت الردود أشبه بتساؤل آخر لدى الخرتيت ، ولكن وقعه كان أثقل عليه من تساؤلاته السابقة..

وقال لنفسه : هل الجميع يفكرون فيما أفكر فيه ؟! كانت ثقته في نفسه تكاد تكون شبه منعدمة ، وكان لديه هاجس قوي بأن الآخرين يعلمون ما يدور بداخله ، وكان ذلك يزيد من ضعف الثقة في نفسه ، بل ويكاد يقضي عليها تمامًا .. وظل السؤال القاتل يقفز إلى رأسه : هل كل هؤلاء يعلمون أنه لا يصلح ، ولكنهم كالمعتاد يقفون تحية للمنصب لا لشخصه؟

دار هذا المشهد في ذاكرة الخرتيت ، وهو يجول ببصره بين صفي مستقبليه من الحيوانات ، ويستمع لتصفيقهم ، وقرر أن يجيب مؤقتًا عن السؤال الذي يؤرقه بإجابة تريحه ، وهي : لا بد وأن من اختاره ، قد رأى فيه ما لم يره في نفسه ، ولابد أن هذه الحيوانات التي اصطفت اليوم لاستقباله سعيدة بهذا الاختيار ، وإلا ما كلفت نفسها مشقة الحضور ، ولا صفقت له بهذه الحرارة حتى قبل أن يتعاملوا معه ؛ خاصة أنه لا توجد له سابق تجربة في الحياة العملية ، أو في إدارة شئون الغابة بالقدر ، الذي يؤهله ليكون ملكا عليها .. وارتاح تمامًا إلى هذا الجواب ..!!! وتناسى أن الواقع الجديد يفرض على الجميع أن يصفقوا ويهللوا من قبل أن يسمعوا .. وإن سمعوا غفلوا وظلوا

على تصفيقهم وزادوا من تهليلهم.. فقد اعتادوا على ذلك وارتاحوا إليه .. فالتفكير يرهق وإعمال العقل والتدبير يضني .. وأن لا أحد يتكلف مشقة الحضور.. فهي في مثل هذه المناسبات متعة لمحبي الظهور ، وهواة التصفيق والتهليل ، وأهل النفاق ، وما أكثرهم هذه الأيام . .

تأمل الثعلب الخرتيت في دخوله ، ولاحظ أن خطوته مترددة نوعًا ما وغير منتظمة ، كما أن جلده السميك أضفى على مظهره خشونة واضحة .. كان بلا هيبة على الإطلاق ، ويبتسم في بلاهة ويتجهم في استعلاء دون مبرر .. لم يكن لديه حضور ، وكانت تعبيرات وجهه لا تعكس أي نوع من أنواع الخبرة أو الدهاء ، بل بدت ملامحه وكأن فيها شيئًا من الجمود ، مثل تمثال مصنوع من جرانيت رديء ..

قال الثعلب في نفسه : ربما يهاب الخرتيت الموقف ، فيحاول إخفاء ما بداخله بهذه التعبيرات الغريبة بوجهه ، وعندما يألف المنصب فسوف تستقيم الأمور .. إلا أنه سرعان ما استبعد هذا الخاطر ، فالأمور بدأت تعوج ، وتسير بصورة عشوائية منذ اختيار الخرتيت ، وبالتالي فخطواته غير المنتظمة هي أبلغ تعبير عن الحال التي وصلنا إليها ، وهي التي سوف ترسم لنا ملامح الطريق الجديد الذي سنسير فيه .. وابتسم الثعلب ابتسامة واسعة، وهو يقول لنفسه : إن الشدائد والمصائب تعلم الفلسفة..

وتصادف أن كان الخرتيت يمر أمامه بالضبط وقت ابتسامه.. فابتسم له الخرتيت ابتسامته البلهاء ، التي اعتادها ، فظل الثعلب يتأمله ، وهو يتألم من أعماقه على ما آل إليه حال غابة ، كان يحكمها يومًا ما أسد ، وغاب عنها في غفلة من الزمان .

* * *

عندما جلس الثعلب وسط الحضور الضخم والحشد الهائل من الحيوانات للاستماع إلى خطاب الملك الجديد ، والذي استغرق وقتًا طويلًا جدًّا ، وحفل بعبارات إنشائية ضخمة ، غالبيتها في غير محلها ، ووعود وردية كان الخرتيت نفسه يدرك أنه أول من سيغفلها عند التطبيق ..

أثناء ذلك كله ، لم يستطع الثعلب أن يمنع نفسه من المقارنة بين الخرتيت والأسد ، وشعر بعد ثلاث مقارنات بأسى شديد.. وإحباط مروع.. فقرر أن يتوقف عن المقارنة ، وشجعه على ذلك إيماءة من رأس الفهد للخلف ، فهمها الثعلب بأنها إشارة لأن يتوقف عن التفكير في الماضي ، وأن عجلة الحياة لابد وأن تستمر ، وقرر أن يستمع ويحاول أن يخرج بشيء ، ولو يسير ، من هذا اللقاء ، وأخذ يتلمس الأعذار للخرتيت .... فهو قليل الخبرة بأمور القيادة وإدارة الغابة ، ودائمًا ما كان دوره هامشيًّا ، وعاش أغلب حياته في عزلة حتى عن أقرانه وعشيرته أثناء عمله بالمراعي ، وحتى عندما التحق بالعرين ، مشرفًا على شئون الغابة الإدارية ، كان منعزلًا عن الجميع ؛ فمن الطبيعي إذًا أن يهاب الموقف ..

مضى الثعلب يتأمل العرين وما حوته قاعة الاحتفالات من تحف ومقتنيات الأسود ، الذين حكموا الغابة على مدار الزمن ، والتي لم تطلها يد العبث حتى الآن .. !! كان يشعر مع كل قطعة أنه يتأمل جانبًا من تاريخ الغابة .. كانت المقتنيات تعود به إلى عصر الأسود ، وانتابه شعور داخلي بأنه يكاد يخرج من الزمن ، الذي يعيش فيه إلى زمن جميل مضى .. وظل الثعلب يطلق لخياله العنان في تصور ملوك الغابة ، وطريقة استخدامهم لتلك المقتنيات ، التي ذخرت بها القاعة الرئيسية .. كان التأمل في دقة الصناعة يستغرقه لدرجة الاندهاش بالاهتمام بالتفاصيل وجمال القطع ومظهرها

البديع.. وظلت مقتنيات الأسد تحلق به في آفاق بعيدة ، وتملأ روحه بالحنين لوجود أسد ، رغم أن غياب الأخير لم تمض عليه سوى ساعات قليلة .. وأحس الثعلب بعبق التاريخ ، وأنه قد ذهب بمخيلته إلى منطقة فريدة شعر وكأن أحدا قبله لم يطرقها .. ظل في تلك الحالة لفترة ، ولم يعد منها إلا على أصوات الضوضاء ، التي كانت تحدثها الحمير بهتافها للخرتيت ، كلما توقف عن الكلام...!!

مضى الثعلب يستمع إلى الخطاب الممل الذي يلقيه الملك الجديد ، حتى كاد يغفو من الرتابة والملل ، وبدأت رأسه تتساقط فيرفعها فجأة لينبه نفسه، حتى لا ينام ثم يعاود الكرّة وهكذا .. إلى أن استوقفته عبارة في الخطاب ، انتفض على أثرها من مقعده ، وبدأ يركز بكل حواسه ..

كان الخرتيت يقرأ من ورق مكتوب لا يرفع بصره عنه ، وكان إلقاؤه رتيبًا ونبرات صوته الأجش لا تتغير طوال الخطاب .. وكأن الأوراق قد تسيدته ، فلم يجرؤ على رفع رأسه إلى أعلى ..! إلى أن وصل إلى الفقرة التي أيقظت الثعلب من غفوته ..

قال الخرتيت بصوت تعمد أن يكون جهوريًا :

« إنني توليت منصب ملك الغابة ، بعد أن طال الفساد في عهد الأسد كل أنحائها ، فكان اختياري قائدا عامًا معكم ..لا ملكًا عليكم ..لنبدأ عهدًا جديدًا نظيفًا لا فساد فيه ..لا فساد فيه.. لا فساد فيه» .

وظل يرددها ، وكأنه شريط تسجيل أصابه العطب..

صحيح أنها عبارات عادية ، لا جمال فيها أو إبداع أو حتى قوة .. إلا أن ذلك كله لا يهم الآن .. فقد دهش الثعلب واتسعت عيناه ، فتلك أول مرة

في حياته يسمع فيها عن فساد الأسد .. بل أكثر من ذلك ، فهو لا يتصور أن يكون هناك أسد يوصف بالفساد ؛ فالصفات التي يحملها الأسد لا تتفق ومواصفات الفاسدين .. ثم ما معنى التلاعب بعواطف جماهير الحيوانات بعبارة «قائد معكم ، لا ملك عليكم ...» ، وهو أول من يدرك أن أيا منهم لا رأي له ، ولن يشارك في أي قرار ، ولن يحدث ذلك في أي وقت .. طالما يقود الغابة خرتيت .

وهل تدنى الحال بالغابة حتى صارت مثل دول العالم النامي ، تدوي في أرجائها العبارات الرنانة والهتافات الثورية ، بينما شعوبها مطحونة فقرًا وجوعًا وإحباطًا ..

صحيح أن كلًّا منا قد يخطئ في حياته..وقد تُرى أخطاؤه كبيرة ؛ خاصة إذا كان ملكًا ومسئولا عن غابة من الحيوانات ، كما كان الأسد .. إلا أنه لا يمكن تصور فساد أسد..ولماذا يفسد ، وهو يملك كل شيء .. فهو ملك الغابة باختيار الحيوانات ، وما استقرت عليه كتب التاريخ ؛ فلم يفرض نفسه ملكًا عليهم ، بل اختاروه بإرادة حرة ، وكان ملكًا مخلصًا في عمله .. ثم إن هذا الفساد المدعى لابد وأن يكون نتيجة لتراكم أفعال ، أدت في النهاية إلى ظهوره على السطح .. فأين كان الجميع عندما كانت نواة الفساد تبذر وتزرع وتنمو؟ ثم ماذا طرحت ؟ وما هي ثمارها .. ؟

كاد الثعلب يصرخ بصوت عال قائلًا « إنك يا خرتيت ثمرة هذا الفساد» .. إلا أنه تماسك وآثر الصمت ، فهذه العنترية لا تتفق وصفات الثعالب .. على الأقل في الوقت الحاضر .

كادت المرارة تعتصر قلب الثعلب ، وهو يسمع هذه العبارة من الخرتيت .. وراعه أن تصفيقا حادا من الضباع والكلاب والقرود والحمير

قد طغى على همهمة بقية الحيوانات ، التي استنكرت تلك العبارة من الخرتيت..

ونظر الثعلب إلى الحصان ، فلمح في عينيه دمعة تترقرق ، ورأى ملامح أسى على وجه الفهد ، ونظرة استنكار من الفيل ، وتحفظًا معتادًا من جانب النمر ، ولكن مع ضيق .. ولمح ابتسامة ماجنة من الطاووس تنبئ عن موافقته .. كما لاحظ ترقبًا من كبير الضباع ، بينما ضجت القاعة بصياح القرود وهتافهم في غوغاء ، وعلت أصوات الحمير نهيقًا مدويًا على نغمة واحدة متكررة ، تهتف بحياة الخرتيت ، وعوت الذئاب عواءها الكئيب المقبض ؛ إيذانا ببدء عصر جديد لا فساد فيه ..

وشعر الثعلب بأنه يتلاشى في وسط الزحام ، عندما تدافعت الحيوانات إلى المنصة لمبايعة الخرتيت ملكًا للغابة وقائدًا عامًا لها.. بعد أن غاب عنها الأسد.. فكادت تدهسه ، وكأن لسان حالها يقول «لا مكان للثعالب في هذا العصر الجديد» .

خرج الثعلب مهرولًا قبل انتظار إعلان المناصب الجديدة والتعيينات في الغابة وجزرها الأربعة المركزية والصغرى والوسطى والكبرى ..كان شارد الذهن.. زاهدًا في أي منصب مع هؤلاء الحيوانات.. منكسرًا ..يشعر بمرارة .. مشى بخطوات عشوائية لا يعرف إلى أين تقوده قدماه .. إلى أن تنبه إلى أن هذا هو طريقه المعتاد إلى العرين ، وكأن القدر لا يريد له أن يغادر في الوقت الراهن ، فما زال في الأحداث بقية ..!! وتذكر حديث النمر هذا الصباح عن ضرورة تغيير اسم العرين إلى اسم آخر يليق بالخرتيت ، وابتسم الثعلب رغمًا عنه ، عندما قفز إلى ذهنه أن يكون الاسم الجديد هو « الدهموس» ! وهو اسم

بلا معنى على الإطلاق ، ولكنه شعر فيه بالغباء والهمجية ورعونة التصرف، وضياع حق المظلوم ، وهو ما يتفق دون أدنى شك والمرحلة المقبلة في قيادة الغابة ..

* * *

مثل أي قائد فاشل وديكتاتور غبي .. مارس الخرتيت مهام عمله في قيادة الغابة ، وبغض النظر عن أسباب الفشل المعتادة في الإدارة ، مثل : سياسة الباب المغلق والمركزية في اتخاذ القرار ، وعدم الاستماع إلى الآخرين .. إلى آخره ، والتي تجاوزها الخرتيت بمراحل متقدمة ..! فقد أضاف إلى فشله أمرًا جديدًا ، ألا وهو العزلة عن معاونيه ومستشاريه وكبار موظفيه ..!

وإذا ما كانت الفائدة من قراءة التاريخ ، هي معرفة أخطاء الآخرين والدروس المستفادة من تجاربهم وسيرتهم الذاتية ومذكراتهم لتقييم فترة ما في حياتنا ، فإن التاريخ لن يذكر للخرتيت أنه فقد القدرة على اتخاذ القرار السليم في الوقت المناسب فقط ، بل سيؤكد لنا - كذلك - أن الخرتيت لم تكن لديه المقدرة - أساسًا - على اتخاذ أي قرار على الإطلاق ..!

دارت هذه الأفكار في رأس الثعلب ، بعد أن ترك مكانه في قاعة الاحتفال، وهرول خارجًا متجهًا إلى مكتبه ، الذي يقع على مقربة من قاعة العرش الكبرى .. لفت انتباهه وجود أعداد هائلة من نبات الصبار امتلأت بها ممرات العرين وطرقاته ؛ حتى باتت تسد الطريق المؤدي لمكتب وحيد القرن.

كانت على شكل باقات متنوعة الأشكال والأحجام ، وقد لصقت بها كروت صغيرة بيضاء للتهنئة بقيادة الغابة من ملوك غابات مجاورة .. كما

حملت تهنئة من كبار قيادات الغابة ، وجزرها الأربعة الرئيسية ، حتى أطرافها النائية البعيدة وواحاتها.. وأيضًا من حيوانات أخرى مجهولة ، ترغب وتخطط للحصول على مناصب قيادية في الفترة القادمة ..

تأمل الثعلب الصبار في دهشة ممزوجة بابتسامة ساخرة ، وقال لنفسه: لماذا أرسلوا لنا صبارًا ، هل شعروا بما يدور بداخلنا ؟ هل أدركوا حجم المعاناة والألم ، الذي سوف يلحق بنا من جراء قيادة الخرتيت لغابتنا ؟ أم أنهم قصدوا مواساتنا لا تهنئة وحيد القرن بالمنصب ..؟!

التقى في طريقه بالحصان ، فصارحه بخواطره عن الصبار.. ابتسم له الحصان ، رغم أحزانه ، وقال : كفاك سخرية من واقعك .. لقد اختار الخرتيت بنفسه نبات الصبار ، لتتم تهنئته به بدلًا من الورود ؛ لأنه يستسيغ طعمه ..!! ذهل الثعلب قائلًا : هل ينوي أن يأكله ؟.. أجابه الحصان في برود: نعم ، فهذا الخرتيت يأكل كل ما هو أخضر ، وربما ما هو يابس ، في وقت لاحق ..!!

ابتسم الثعلب وهو يتأمله .. هاهو الحصان يسخر مثله ..فالواقع بات مريرًا لدرجة مضحكة ، والعكس صحيح أيضًا..!!

* * *

دخل الخرتيت مكتبه ، وجلس على كرسي العرش العظيم ، فلم يشعر براحة على الإطلاق .. ظل يتململ في جلسته ، ثم يقوم ويعاود المحاولة مرة ثانية فيفشل .. اقترب منه الكنغر مدير المراسم في أدب شديد ، قائلًا : هل يؤلمك شيء يا ملك؟

نظر إليه الخرتيت في ضجر وضيق ، ساعدت على إظهاره بوضوح ملامحه الخشنة وقرنه ، الذي يعلو أنفه ، ويكاد يصيبه بالحول ، وقال : لا تنادني بالملك .. فأنا قائد عام الغابة ، ومن الآن فصاعدًا أنا القائد فقط .. هز الكنغر رأسه بالإيجاب ، ثم عاد يسأله عما يؤلمه .. دون أي ألقاب ، فلم يكن يثق في نفسه بأنه سيستطيع أن يناديه بالقائد العام ، فلم يتعودها في خدمة عرين ملك الغابة من قبل ، بل كانت أول مرة يسمعها في خطاب العرش اليوم.. انتظر الكنغر أن يجيبه الخرتيت ، إلا أن الأخير ظل ينظر إلى كرسي العرش، ثم يتأمل وجه الكنغر ، ثم قال بعد تفكير طويل : لا شيء .. وطلب من الكنغر الانصراف ؛ بحجة أنه يفضل أن يكون وحيدًا ..

كانت مؤخرته ما زالت تؤلمه بشدة ، منذ أن حاول أن يجلس على عرش الأسد فكرسي العرش لا يناسبه لكونه مخصصًا للأسود فقط ، ولم يدر بخلد صانعه يومًا ما أن خرتيتا سوف يجثم عليه بحجمه الهائل ليعتليه.. حتى الجماد في عرين الأسد يأبى أن يعتليه خرتيت..!

مشى الخرتيت في خطوات متثاقلة ، وهو يدق الأرض بقدميه الغليظتين، فأحدث دويًّا كبيرًا ، ظن معه الحمار الواقف ببابه أنه يريده ، فدخل دون استئذان بالطبع ، فناله من الخرتيت سباب رديء لاقتحام خلوته ، وكأنه تقمص شخصية عالم في معمله ، كان يجري تجربة عملية دقيقة ولا يريد أن يقاطعه أحد ..

اتجه الخرتيت إلى مكتبه ، وأطاح بالمقعد بعيدًا بضربة من قرنه القوي ، ثم أتى بأريكة صغيرة كان يحلو للفيل أن يجلس عليها دائمًا لكبر حجمه ، فاستخدمها مقعدًا له بالمكتب .. ظل يحملق في الحجرة في بلاهة لم يكن يدري ما الذي يتعين عليه أن يفعله الآن .. ظل يفكر قليلًا فلم يصل إلى شيء.

كان طوال حياته الوظيفية يتلقى تعليمات من رؤسائه ، وكانت دائمًا دقيقة ومفصلة وواضحة لا لبس فيها ولاغموض ، فلا تحتاج منه إلى تفكير أو تدبير .. وكان عمله مكتبيًا بحتًا عبارة عن أعمال إدارية بسيطة بإدارة مراعي الغابة، ولم يلتحق بالعرين إلا عندما ظهر كبير الضباع في المشهد في السنوات الثلاثة الأخيرة ، وحتى عندما أتى للعرين كان الكثيرون لا يعرفونه ، فهو لا يفعل شيئًا إلا توقيع أوراق يرسلها إليه كبير الضباع وهي أوراق مهمة تُحَمِّلُ مُوقعها الكثير من المسئولية ، ومع ذلك لم يكن يكلف نفسه عناء قراءتها .. مع أنه كان يشرف على قطاع الشئون الإدارية..!!!

تذكر الثعلب أنه طالما تساءل كثيرًا عن مبررات الإبقاء على الخرتيت ، إلا أن الأسد كان لا يبدي اهتمامًا بهذا الموضوع ، ويجيبه في عدم اكتراث بأن كبير الضباع يلح ، كل مرة ، في تجديد عقده بالعرين لعام آخر ؛ لأنه يحتاجه في تسيير أموره الإدارية الروتينية ..

ولكن الحقيقة لم تكن كما وصلت للأسد ، فقد كان كبير الضباع يحتاج تلك النوعية النادرة ، فكثير من الحيوانات على استعداد لوضع توقيعاتها على قرارات يجانبها الصواب ، ولكن الغالبية العظمى منهم الآن يطلبون المقابل بل ويغالون فيه . وفي الماضي كانت الحمير تحتكر تلك الوظائف ، ومع تطور مجتمع الغابة وزيادة الفصائل من كل نوع ، وانقراض الحمير نوعًا ما أصبحت حيوانات كثيرة تقوم بهذا العمل بل وتخصصت فيه .. بينما تميُّز الخرتيت تمثل في قبوله بالفتات ، نظير ما يقوم به من خدمات ، وما يُزين به أوراق الغابة الرسمية بتوقيعاته .. والفتات ليست مبالغة ، فأحيانًا لا يأخذ شيئا ، فقد كان كبير الضباع يعتبر أن مد فترة خدمة الخرتيت بالعرين عامًا

آخر هو المقابل .. إنه حقًّا حيوان نادر ، يجب على كبير الضباع أن يحافظ عليه، ويوفر له البيئة الملائمة ؛ ليتكاثر ويتزايد حتى لا ينقرض..!!

وقع بصر الخرتيت على بعض الأوراق البيضاء ، والتي تتوسطها من أعلى عبارة «مرسوم ملكي» مكتوبة بماء الذهب.. تأملها قليلًا ، ثم بدأ يرسم في منتصف الصفحة الخالي خاتمًا بيضاويًّا آخر خلاف المشتهرة به تلك الأوراق.. كان الخاتم الأصلي هو خاتم الأسد الملكي .. عبارة عن دائرة مذهبة تتوسطها صورة الأسد ، وتحمل عبارة مملكة الغابة على نصف الدائرة العلوى.. بينما تتصدر كلمة «الملك» نصفها السفلي .. ظل الخرتيت يرسم خاتمًا بيضاويًّا جديدًا ، مستخدما قطعة عملة معدنية ؛ حتى يضبط استدارته، والتي تعرجت خطوطه قليلًا ، أثناء محاولته إكمال الدائرة..

وما إن فرغ منها حتى أمسك بالقلم مرة أخرى بيده اليمنى الغليظة ، وكتب أسفل الخاتم : « قرار رقم ٦ من القائد العام للغابة .. توضع صورتي سوداء تمامًا بداخل الخاتم الجديد ، وتستبدل عبارة «القائد العام» بكلمة «الملك» في جميع الأختام الملكية بالغابة» .. ثم قام بالتوقيع على الورقة .. ووضع القلم جانبًا ، وتساقطت قطرة عرق من جبهته ، يبدو أنها من جراء انفعاله ! ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة رضا كبيرة ، واهمًا أنه بهذه العبارة قد أنهى عصر الأسد إلى الأبد ..!!

* * *

ضغط الخرتيت على زر أحمر كبير على سطح مكتبه ..مستدعيًا سكرتيره الخاص ، وسلمه القرار الجديد لتنفيذه ..كان سكرتيره طائرًا أبيض اللون ، متوسط الحجم ، لم يفارق وحيد القرن يومًا منذ بداية عمله بإدارة المراعي حتى

قيادة الغابة ، ولكنه مجهول الاسم لكثير من الحيوانات .. حتى الثعلب لم يكن يعرف اسم هذا الطائر ، بل حتى لم يكن مهتمًا أن يعرفه فهو لا يشاهد الخرتيت كثيرًا .. بل ربما كانت عدد المرات التي شاهده فيها لا يزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة .. وكان الثعلب يردد دائمًا في العرين لمن يسأله عن اسم الطائر سكرتير وحيد القرن: لماذا أهتم باسم سكرتيره إذا كان الخرتيت نفسه لا يهتم أحد به الآن.. بل لم يكن في بؤرة الاهتمام في أي وقت مضى فما بالك بهذا الطائر النكرة ؛ إذًا فليسر عليه ما يسري على رئيسه من تجاهل ولا مبالاة..

وقف الطائر مشدودًا أمام وحيد القرن ، فلم يكن مصدقًا لما وصل إليه سيده من ترق ومناصب ، بعد مرور أقل من ثلاث سنوات من عمله بالعرين، وهو الآن محط أنظار الجميع ، ولابد أن حيوانات كثيرة مفترسة سوف تعمل له اليوم ألف حساب ، باعتباره سكرتيره الخاص .. ولابد أنها أيضًا سوف تنطق اسمه مسبوقًا بعبارات التبجيل والاحترام .. كما أنهم سينافقونه طمعًا في رضائه عنهم ، باعتبار أن ذلك جزء لا يتجزأ من رضاء الخرتيت .. وابتسم في زهو ، عندما تذكر لقاءه بأحد القردة ظهر اليوم ، ومناداة الأخير له قائلًا : « يا صقر العرين» ، وهو ما أعجبه وجعله يشعر بقوة وشموخ ، لم يكن يعرف حتى معناهما لغويا من قبل ..!!

أخرجه من أوهامه وأحلام يقظته صوت الخرتيت الأجش ، بينما كان يقلم أظافره متسائلًا: هل يوجد أحد في الخارج في انتظاري ؟

أجاب الطائر : حتى الآن لم يحضر أحد إلى مكتبي ، ولكن الجميع موجودون في العرين ، والعمل يسير على ما يرام.. فقاطعه الخرتيت ، وهو يسأل السؤال الذي يؤرقه منذ الصباح : ماذا أفعل الآن إذن؟

أطلت ابتسامة استنكار من وجه الطائر وقال : أنت القائد العام .. تفعل ما تريد وقتما تشاء..

أعاد الخرتيت السؤال بصيغة أخرى ، وهو يحاول أن يكون ماكرًا دون جدوى ، فمن أين يأتي المكر ، والغباء ضارب بجذوره في رأس الخرتيت : أنا أعلم ذلك بالطبع ، ولكنني أتساءل عن الأولويات وفقًا للبروتوكول .. أريدك أن تحدد لي ماذا أفعل أولًا ثم ثانيًا ثم ثالثًا ... وهكذا..

بدأت ملامح الحيرة تغطي وجه الطائر ، وقال : وهل يعقل أن يوجهك أحد ، وحتى إذا ما افترضنا أن ذلك ممكن فهل يكون من طائر ؟ ! نحن في غابة يا سيدي وأنت قائدها وحاكمها .. أما موضوع الأولويات التي ذكرتها، فالحقيقة يا سيدي أنا لا أفهم سؤالك بصورة دقيقة ، فأرجو منك أن تقول لي ماذا تريد ، وأنا أحاول أن أساعدك أو آتي لك بمستشاريك ، يقولون لك كيف تفعله...

أراح الخرتيت جسده على الأريكة حتى أصدرت أخشابها أصواتا تشبه الأنين ، وكأنها تستغيث من الجاثم على أنفاسها ، ثم نظر إلى الطائر في صمت، وكأنه نسي حروف الكلام وظل برهة هكذا ، حتى قال وهو يبتسم في سخرية ، محاولًا أن يبدو مغرورًا عالمًا ببواطن الأمور : يا لك من غبي بالفعل ، سأعطيك مثلا لتدرك ما أريد ولأوضح لك مقصدي.. أنا أعني هل توجد أوراق للتوقيع مثلًا ؟

تحرك لسان حال الطائر ، ونطق من داخله: يا الله من منّا الغبي بحق ..؟! ألا يعرف في حياته إلا التوقيع على أوراق ! يا ليته حتى كان يقرؤها ، فلو فعلها مرة لما وقع عليها ثانية ..!!

لم يستطع الطائر أن يبوح بما يدور بخاطره ؛ حتى لا يفقد حياته بسبب أمر تافه لا يستحق فالوظيفة الجديدة تهان من أجلها الكرامة ، وتداس بالأقدام أيضًا إن لزم الأمر ؛ فهي فرصة لن تتكرر في أن يصل الخرتيت إلى عرش الغابة في ليلة وضحاها ، دون أدنى مقاومة ..فيجلس في عرين الأسد ، الذي كانت فرائص الطائر كلها ترتعد لمجرد ذكر اسمه..

أجاب الطائر في أدب مصطنع : لا يا سيدي ، لا توجد أوراق للتوقيعات، أو حتى للاطلاع..

ظل الخرتيت مطرقًا... ينظر إلى الطائر شزرًا ، حتى ظن الأخير أنه سيأكله..

قطع الصمت دخول بغل كان من معاوني الخرتيت أيام العمل بالمراعي وأتى به معه إلى العرين.. قال البغل ، والخوف يقفز من نبرات صوته : إن كبير الضباع في الطريق إلى مكتبك يا سيدي .. انتفض الخرتيت من جلسته أو قل مرقده على الأريكة الصغيرة ، وقد أصابه الخوف هو الآخر من نبرة البغل، فقال وهو يلهث رغم أنه كان جالسًا : وماذا نفعل الآن ؟!

تدخل الطائر في الحديث ، قبل أن يصاب بالجنون مما يراه أمامه ، وكأنهم مجرمون والقادم رجل شرطة وبنبرة مؤنبة مصوبًا بصره باتجاه البغل بالطبع ؛ حتى لا يفهم أحد أنه يقصد الخرتيت ، قائلًا :

– ماذا جرى يا سيدي ..؟ هذا البغل الأرعن لا يعي ولا يفهم موقعنا الآن إننا نقود الغابة وكبير الضباع مهما عظم شأنه فهو مرؤوس لنا .. الأمر اختلف تمامًا عن أيام المراعي أيها البغل .. حتى أيام عملك بالعرين لم تفلح في أن تؤهلك لمثل هذا اليوم.. نحن الآن على أعلى نقطة .. على القمة ، والجميع يحتاج إلى رفع

رأسه إلى أعلى ليرانا ويتخاطب معنا .. أما نحن ، فقد نكتفي بإلقاء نظرة يسيرة على القطيع .. وإذا كان كبير الضباع في طريقه إلينا ، فمن حقنا أن نرفض لقاءه .. أو نجبره على أن يستأذن أولًا .. أو نتركه ينتظر في الخارج حتى نبت في أمره .. الوضع الآن قد تغير ونحن اليوم أصحاب اليد العليا .. وبحركة مسرحية ، رفع رأسه في شموخ ، وأشار بأحد جناحيه تجاه الخرتيت باسطًا جناحه الآخر إلى أعلى حتى نهايته ، ثم استطرد قائلًا : أنت الآن القائد العام صاحب القرار الأول والأخير .. أنت ملك الغابة الجديد ..

قالها وانحنى ، وكأنه يحيي جمهور مسرح يقابله بعاصفة من التصفيق..

في المقابل ، كان البغل ساكنًا فلم يفهم حرفًا مما قاله الطائر ، ولكنه كان مبتسمًا لحركاته وصوته الجهوري ، بينما ظل الخرتيت ينظر إليه في إعجاب ممزوج بالدهشة ، فاغرًا فاه في بلاهة ، مثبتًا عينيه على الطائر ، وكأنه يسمع حديثًا عن حيوان آخر تمامًا لا عنه هو وكاد يصفق في النهاية من فرط اندماجه ..!!

فجأة أفاق الجميع من غفلتهم .. فقد دفعت ضلفتا باب الحجرة دفعةً شديدةً ، أطاحت بالبغل الذي كان يرتكن عليها بجسده ، فسقط متكومًا في مكانه ، وقد تهاوى بشكل غريب ، وكأنه بناء فارغ تعرض لضربة قوية من معول هدم ، فأخرج غبارًا كثيفًا ، ثم سرعان ما استقر ككومة من تراب ..!! بينما حلق الطائر هاربًا من النافذة ، وهو يرفرف بقوة خوفًا وفزعًا .. مخلفًا وراءه بعضًا من ريشه ..

بدا من دخلوا مكتب الخرتيت كالعاصفة ، التي هبت فجأة دون سابق إنذار .. كان كبير الضباع وبرفقته اثنان من معاونيه من فصيلته ، لا يفارقانه

أينما ذهب ثم ظهر الدب الأسود يتبعه الثور ، وأخيرًا دخل الفيل في هدوء، متأخرًا يحمل أوراقًا كثيرة كالمعتاد ، وبجواره النمر بملامحه الجادة ووجهه المتجهم دائمًا ..

أحدثت دفعة الباب بهذه الطريقة صوتًا ملفتًا ، تنبه له الثعلب ، الذي كان يتأهب لمغادرة مكتبه القريب من المكان ، فشاهد من مكمنه هذا الجمع المريب والغريب ، وهو يدخل الغرفة وكأنه يغزوها ، فابتسم في أسى وقال لنفسه: لقد انتهت الاحتفالات والمراسم ، وحان الآن وقت الحساب ..وتوزيع الغنائم .. يا ترى كم سيبلغ نصيب كبير الضباع في تركة الغابة ، التي غاب عنها الأسد ؟! ولم يستطع الثعلب أن يقاوم فضوله ، فقرر أن يحضر هذا الاجتماع ، رغم أنه لم يكن مدعوًا إليه ..فلملم بعض الأوراق من على مكتبه ، ورتبها متظاهرًا بمراجعتها أثناء سيره ؛ حتى يتفادى عيون الحضور.. ودخل الغرفة في خفة ، بينما البغل يغادرها مغلقا أبوابها وهو يتحسس مؤخرته متألما من جراء سقوطه حتى كاد يغلق الباب على ذيل الثعلب ، لولا أنه أفلت في اللحظة الأخيرة . .

وبعد حضوره ، لعن فضوله فقد كان هذا الاجتماع من أسوأ ما حضره من اجتماعات طوال حياته .

* * *

5

في وداع الأسد

غفل الخرتيت للحظات عن أنه قائد الغابة ، وهَبَّ واقفًا لتحية كبير الضباع ، إلا أن الأخير مضى في طريقه نحو مائدة الاجتماعات ، التي تتوسط مكتب الخرتيت ، مشيرًا له بيده في استعلاء بأن يجلس مكانه ، دون حتى أن ينظر إليه ، ويبدو أن الخرتيت كان لا يزال مستمرًّا في غفلته ، أو أنه استمرأها فقد استجاب لإشارة كبير الضباع ، ولزم مقعده وهو يرتجف ..

دار حوار هامس بين كبير الضباع ومعاونيه من فصيلته ، لم يشترك فيه إلا النمر .. بينما ظل الباقون جالسين بعيدًا نوعًا ما ، ولم يلحظ أي منهم وجود الثعلب على مائدة الاجتماع ، فظل هو الآخر ساكنًا ، وإن كانت ملامحه قد بدت مختلفة ، وكأنه أتى من عالم آخر بخلاف عالم الحيوان..!

استدار كبير الضباع نصف دورة ، وطلب من الخرتيت أن يلحق بهم على مائدة الاجتماع ؛ ليشترك معهم .. فأتى إليه في هدوء ووداعة ، وكأنه حيوان أليف ، لا وحيد قرن مخيف المنظر .. وما أن جلس على صدر المائدة وتصدر الاجتماع ، حتى أخرج قلمًا بصعوبة من سترته الضيقة جدًّا لتوقيع الأوراق كالمعتاد .. قاطعه كبير الضباع بابتسامة ساخرة قائلا : لا..لا.. دعك من القلم الآن ، فهناك أمر مهم ، نريد منك قرارًا عاجلًا بشأنه .. وبحركة لا إرادية ،

التفت الخرتيت خلفه ، فقد ظن أن كبير الضباع يتحدث إلى حيوان آخر ، فهو لم يتخذ أي قرار طوال حياته الوظيفية .. أفلتت ضحكة مكتومة من الثعلب ، تبعتها ابتسامة متحفظة جدًّا من الفيل ، ربما تكون هي الأولى في تاريخه .. تمنى الثعلب لو أنه تمكن من التقاطها ، لا شك أنها ستكون صورةً نادرةً يومًا ما .

صار الخرتيت يجول ببصره بين الثعلب والفيل ، لا يدري أيًّا منهما الذي وجه إليه السؤال ، ومن منهما سيجيب عنه ؟؟

ظهرت علامات الضيق على وجه كبير الضباع ، وقال بعصبية : اسمعني أيها القائد العام ؛ فالأمر لا يحتمل الهزل .. الجاموس الوحشي أخرج اليوم عدة فصائل من الحظائر للتظاهر وإحداث فوضى ، ونحن نخشى أن تفلت الأمور ، إذا ما تركت دون حسم من البداية .. فما قرارك ؟

أجاب الخرتيت ، وكأنه يردد رسالة صوتية مسجلة : إذًا فلنعتقلهم جميعًا مثلما نفعل دائمًا..!!

ردَّ كبير الضباع ، وهو يقترب بجسمه قليلًا من الخرتيت : إن الأمر ليس بهذه السهولة ، وقد تثور ثائرة المنظمات المدنية كما تعلم ، ويندم الديناصور على اختيارك وأنت في بداية عهدك ، ولا يليق أن تبدأ بإخفاقات خاصة في هذا الأمر الحساس ..كما أن هناك فصائل أخرى قد تخرج احتجاجًا على اعتقال الجاموس الوحشي ، أو تتعاطف معهم ، ونحن في غنى عن القلاقل، فما زلنا في أول يوم..تمهل وفكر جيدا ما قرارك؟

أجاب الخرتيت ، وكأن لديه رسالة أخرى مسجلة : إذًا فلنتركهم وشأنهم ونذيع المشهد على أنه صورة من صور التعبير عن الرأي ، واتساع مناخ الحرية في الغابة ، ثم لا نستجيب لمطالبهم مثلما نفعل دائمًا..!!

رجع كبير الضباع بجسده حتى ألصقه بظهر مقعده تمامًا ، ثم أخرج سيجارًا كبيرًا من جيبه العلوي تفحصه بهدوء ، قبل أن يشعله وهو يتأمل وجه الخرتيت المتجمد ، ربما من رهبة الموقف ، وكأن كبير الضباع هو ملك الغابة لا الخرتيت ..! ثم نفث دخان سيجاره في وجه وحيد القرن القائد العام ، حتى دمعت عيناه .. عندئذ ، قال كبير الضباع : قد يُفهم تصرفك هذا على أنه ضعف منك ، وعدم قدرة على المواجهة . وكما تعلم ، فإن الجميع يتربص بنا الآن ، وسوف يبدأ تقييمك منذ أول خطوة ، والانطباعات الأولى هي التي تدوم ، ووقتها لن نستطيع تبرير موقفك الضعيف ، وسينال ذلك كثيرًا من شعبيتك..

بدأ الخرتيت يشعر بالضيق ، فقد كان يكره التفكير تمامًا ، وتمنى لو أن أحد الحاضرين أجاب عن السؤال ، الذي يطرحه الضبع عن ماهية القرار ، الذي يجب أن يتخذ في هذه الحالة ، حتى ينتهي أمر هذا الاجتماع الثقيل على نفسه .. فلم يكن يتصور أن قيادة الغابة سوف تكون مهمة صعبة ، فهو لم يشعر حتى الآن بمتعة السلطة ونشوتها ؛ حتى ينشغل بهمومها هكذا ومن أول لحظة ..

سكت الخرتيت برهة ثم تلعثم قليلًا وبات يتمتم بعبارات غير واضحة، وقال الثعلب في نفسه يبدو أنه لا توجد رسائل مسجلة أخرى في ذاكرة الخرتيت .. لقد أفرغ كل ما في جعبته هذا أفضل على أي حال.. إلا أن الخرتيت فاجأ الحضور قائلًا: حتى نتهي من هذا الأمر ، قولوا لي ماذا كان يفعل الأسد في مثل هذه الحالات فنفعل مثله ؟! نزل السؤال على رؤوسهم، كالماء البارد في عز الشتاء .

فتجهم وجه كبير الضباع ، ولمعت عينا الثعلب ، وانتبه الفيل ، ونظر إلى الخرتيت متفحصًا من أسفل نظارته الطبية السميكة ، بينما راحت الضباع المعاونة تزمجر وتكشر عن أنيابها ، وكأن مجرد ذكر اسم الأسد يثير أعصابها، ويذكرها بما مضى من أيام الشقاء.. بينما لاحت ابتسامة سخرية من بين شفتي النمر المتحفظ دائما ..!

شعر الخرتيت بأنه ربما يكون قد تورط بهذا السؤال ، فحاول أن يلطف الجو ، وتظاهر بأنه كان يمزح ، وظل يهذي في سماجة ساخرًا من عهد الأسد.. فلم يجد صدى لما يقوله ، فقد طفح الكيل بهم جميعًا من غبائه وثقل ظله .

اقترب منه كبير الضباع حتى كاد يلامس وجهه ، ثم أطبق بأظافره على كتفيه ، وقال له في حدة ، تعمد إظهارها : دعك من الأسد تمامًا .. انس أمره ، واتركه لشأنه ، فقد ولت أيامه إلى غير رجعة ، ولن تعود أبدًا وما هي إلا أيام معدودات ويموت ، ويُصبح ذكرى ، وتموت معه أفكاره ومواقفه وأسلوبه ومبادراته .. نحن الآن في عهد جديد ، وعليك أن تثبت للعالم أجمع أنك قائد حقيقي لهذا العصر ، وأنك قادر على مواجهة التحديات والمتغيرات ..

اسمعني جيدًا لتعلم ما الذي يجب عليك أن تفعله.. سعد الخرتيت بالعبارة الأخيرة ، فهو قد أدمن تلقي التعليمات وتنفيذها حرفيًا ، وهاهي تأتي إليه جاهزةً كما تمنى .. بينما شعر الثعلب بانقباض من جراء أسلوب كبير الضباع ، الذي لم يكن يضيّع وقتًا ، ويبدو أنه سيحكم من أمام الستار لا من خلفه ، ومن اليوم الأول أيضًا .. بينما ظل الفيل والنمر على تحفظهما في انتظار اقتراح الضبع ، وتصوره لحل الأزمة ..

استطرد كبير الضباع ، وهو يضغط على مخارج ألفاظه : سنعتقل رؤوس المظاهرات وقادتها وبعضًا لا بأس به من الأتباع ، ثم نفرج عن الباقين

.. سيكون عددهم محدودًا نوعًا ما .. وبعد الحصول على الاعترافات من الأتباع على قادتهم ، سنقدم الجميع للمحاكمة ، ونختار لهم ضباعًا تابعين لنا ممن لا يعرفون للرحمة سبيلًا .. ثم توقف برهة ، وأضاف : «في الحق طبعًا» ..

هز الخرتيت رأسه مؤيدًا كلامه في جزع.. أكمل كبير الضباع حديثه قائلًا: بالطبع ستصدر ضدهم أحكام بالإعدام وبالسجن مدى الحياة ، ولا مانع من بعض الأحكام المخففة على صغار الجاموس الوحشي ، ولا مانع أيضًا من تبرئة واحد أو اثنين منهم حتى يبدو الحكم متوازنًا ، ويجد قبولًا لدى جموع حيوانات الغابة .. وما بين انشغال الحيوانات بأخبار التحقيقات ، وقيامنا بتضخيم فداحة ما كانوا سيقومون به من مخطط إجرامي كبير وخطير ، وبين جلسات المحاكمة التي سنجعلها تأخذ وقتًا طويلًا نسبيًا ، سنقول إننا وفرنا لهم ضمانات الدفاع بالكامل في محاكمة ، استغرقت شهورًا طويلة .. ما بين هذا وذاك سيكون الأمر قد قُضي تمامًا ، واستقرت لك إدارة الغابة أيضًا.. وأطاعك الجميع ، واحترمتك الغابات الأخرى لعدلك وديمقراطيتك مع حيواناتك ، وستخرج إليهم لتتحدث عن الحرية وحقوق الحيوانات ، وتشير إلى أنك ستضرب دائمًا أيضًا بيد من حديد ، عند أول بادرة للفوضى حتى يهابوك على الدوام ..

وبعد ذلك كله يا عزيزي ، فسوف نحتاج إلى قلمك لكي توقع لنا الكثير من الأوراق كما تشاء .. قالها كبير الضباع ، وهو يربت على كتفي الخرتيت مبتسمًا .. بينما كانت أظافره قد تركت بهما جروحًا غائرةً من جراء ضغطه عليهما بقوة ذراعيه .. ومع ذلك ، فلم يشعر الخرتيت صاحب الجلد السميك

بأي آلام ، فقد كان شاردًا في أمر آخر تمامًا ، ألا وهو زيادة مخصصاته وبدلات تغذيته ، وهل الوقت مناسب الآن ليفاتح فيها كبير الضباع أم يؤجلها ..

لم يستطع الخرتيت التأجيل فقد كان لا يعرف عدد أيامه القادمة في قيادة الغابة ، ويشعر منذ اللحظة الأولى بأنها ستكون قصيرة ... ففاتح كبير الضباع في الأمر ، فابتسم له الأخير في برود قائلًا باقتضاب : فيما بعد نبحث هذا الأمر .. سكت الخرتيت على مضض ، وأحنى رأسه في خنوع قائلًا: وما المطلوب مني الآن لتنفيذ ما قلته لي بشأن الجاموس الوحشي ..؟!

أجابه كبير الضباع ، وهو يتهيأ للمغادرة : لا شيء .. سوف يتولى فرس النهر الموضوع بأكمله ، فلا تقلق ، كما أننا كلفنا الذئب والطاووس وغيرهم بكتابة بعض المقالات المؤيدة لموقفك ، وأمددناهم ببعض المعلومات لتعينهم على إبراز حكمتك ، وسوف يتولى التيس الجانب الإعلامي كله ، ومتابعة الحدث في جميع وسائل الإعلام حتى صدور الأحكام النهائية وتأييدها ..!!! أما قرارات الاعتقال والإفراج والمحاكمة ، فسوف يصيغها الدب الأسود تباعًا ، ويعرضها عليك لتوقيعها بعد أن يراجعها معاوني..أريدك أن تطمئن، وأن تهدأ ، ولا تشغل نفسك بتوافه الأمور... اتركها لنا ، فنحن هنا لكي نحملها بدلًا منك ..!!

قال كبير الضباع ذلك ، ثم انصرف في عجالة وخلفه أتباعه ، بينما ظل الثعلب والفيل والنمر في أماكنهم ينظرون إلى بعضهم البعض نظرات ذات مغزى عظيم من هول المفاجأة ؛ خاصة عبارة «توافه الأمور» ، التي اختتم بها كبير الضباع حديثه ، بينما هي أخطرها على الإطلاق .. وظلوا على حالهم هذا حتى غلفهم الصمت تمامًا ، فالمشهد لم يكن بحاجة إلى تعليق .. ولم يخرجهم

من صمتهم المطبق إلى دهشتهم العظيمة إلا صوت الخرتيت ، وهو يتحدث إلى طاقم مكتبه في جدية وعصبية ، طالبًا منهم إلغاء جميع مقابلاته اليوم ، فلقد تأخر عن موعد الغداء !!!!

* * *

جلس الثعلب في شرفة مسكنه العالية والمطلة على المراعي ، يتأمل المنظر البديع أمامه .. أتى إليه خادمه بجرائد الصباح ، فتناولها في لهفة ، فوجدها كلها تحمل صورًا كبيرة ملونة للخرتيت في صدر صفحاتها الأولى .. صورة له وهو يدخل العرين ، وأخرى أثناء تفقده طابور المراسم ، وثالثة وهو جالس على العرش ، ونشر بالطبع نص الخطاب بالكامل ، وأفردت له عدة صفحات فقد كان طويلًا مملًا .. ولم يفت رؤساء تحرير صحف الغابة إبراز مقاطع من خطابه عن فساد الأسد بالبنط العريض ، وبحروف ملونة باللون الأحمر ، لتقع عليها عينك قهرًا وإجبارًا..

مضى الثعلب يتصفح بقية صفحات الجريدة ، فطالع في الصفحة الثالثة مقالًا كبيرًا للطاووس بعنوان « القائد الملهم الحكيم الذي أتى لينقذ غابتنا العزيزة من ظلمات ليل الظلم البهيم» !

لم يستطع الثعلب بالطبع أن يقرأ مقالًا ، كاد عنوانه يصيبه بالغثيان ، فما بالك إذا ما أكمله ؟! فقد يصاب بجفاف من جراء إفراغ ما في جوفه عندما يبلغ نهايته ..! ناهيك عن أن الطاووس ليس كاتبًا من الأساس ، وإنما ممن ظهرت عليهم أعراض الكتابة باعتباره من مشاهير الغابة ، فلا بد أن يُشنف آذاننا ويرهق أعيننا بتجاربه التافهة في الحياة ، ومنذ أن ظهرت عليه تلك الأعراض ، وهي تأبى أن تفارقه ..

على صعيد آخر ، كانت المقالة الافتتاحية لجميع رؤساء التحرير في صحف الصباح الصادرة بالغابة تتحدث عن حكمة القائد .. وحنكة القائد.. وخبرة القائد... حتى تظن أنه تم توزيع صفات القائد عليهم بالتساوي ، ولكل منهم مقطع معين عليه أن يعزفه .. وكان محررو المقالات جميعًا قد وضعوا صورهم على صدر مقالاتهم .. فواحدة لكلب البحر ينظر إلى أعلى ، وكأنه مفكر عظيم .. وأخرى للذئب ممسكًا بقلمه مشهرا إياه في وجوه القراء بصورة ظاهرة ، باعتباره كاتبًا فذًا ..وثالثة للتيس ، وقد وضع راحة يده أسفل ذقنه ؛ ليعطيك الانطباع بالحكمة ..!

مضى الثعلب يقلب الصفحات بعدم اكتراث دون أن يتوقف عند خبر أو موضوع معين ؛ ليقرأه وظل يتأمل الصور المصاحبة للأخبار ، فشاهد صورة كبيرة لجموع الحيوانات ، وهي مصطفة على جوانب الطريق المؤدي لمقر القيادة ، قبل وصول موكب الخرتيت لتحية القائد العام ، وصورًا مختلفة لبعض لافتات التأييد ذات العبارات الركيكة ، المعتمدة على السجع ليسهل حفظها ومن ثم ترديدها .. وتوقف الثعلب مبتسمًا عند صورة ، احتلت ثلث صفحة داخلية لوجه حمار ، وقد بدت عروق رقبته نافرة من شدة انفعاله ، وهو يهتف بحياة الخرتيت ، وأسفلها تعليق يقول « الصورة تتكلم وتعبر من تلقاء نفسها» !!

بدأ الثعلب يلقي صحف الغابة الواحدة تلو الأخرى في سلة المهملات التي على يمينه ، وقبل أن يلقي بالصحيفة الأخيرة لفتت نظره صورة صغيرة لمبنى العرين القديم في صفحة داخلية ، بمكان غير ظاهر ، فقرأ الخبر المنشور أسفلها ، والذي كان يشير إلى أن الأسد سيغادر اليوم إلى منطقة الربوة العليا؛

حيث يستقر هناك ، بعد أن يقوم بجمع متعلقاته من مبنى العرين القديم ، والتي نُقلت إليه بالأمس ، قبل بدء مراسم الاحتفال بالملك الجديد .

أغلق الجريدة ، وظل ممسكًا بها ، وشرد قليلًا ، وكأنه يفكر في أمر ما .. ثم ما لبث أن قطع تردده ، وغادر الشرفة منطلقًا إلى حيث يقع العرين القديم .. فقد كان في أشد الحاجة للقاء الأسد.

* * *

عندما توقف الثعلب أمام مقر العرين القديم شعر بالرهبة والهيبة ، فالأسد هو الأسد ، حتى لو غاب أو اختفى ..

وسعد الثعلب بهذا الشعور ، فهو على الأقل ما زال يحتفظ بفطرته السليمة في تمييز الأمور ، ولم يفقدها بعد في ظل عصر الدهموس ..

تردد قليلًا ثم دخل العرين ، وشاهد من بعيد الأسد على ضوء خافت ، وحوله بعض معاونيه من الأشبال وأحد الأفيال الكبيرة ، وبعض القرود من أعوان الخرتيت ، وضبعًا وغرابًا .. وابتسم ، فالغراب ضرورة لازمة دائمًا في المناسبات الحزينة حتى تكتمل خلفية المشهد.. وتحير قليلًا في وجود الضبع، وسرعان ما فهم سبب وجوده ، بعد أن سمعه يلقي بأوامره للقردة ، فعلم أنه قائدهم ..

كان الأسد مشغولًا بجمع أوراقه وأمتعته.. كان يبدو حزينًا بعض الشيء، ولكن في كبرياء وشموخ ، لم يستطع عزله من مملكة الغابة أن يمحوه بعد .. ولاحظ الثعلب أن ظل الأسد على ضوء العرين الخافت كان يظهر شامخًا أيضًا .. فابتسم وقال لنفسه : هل نحن الآن نعيش على ظلال ، نظن

أنها شامخة فيطلع علينا النهار فلا نجدها .. أم يتعين علينا أن نصبر على واقع أليم ، على أمل أن يعود إلينا أسد آخر يومًا ما ؟!

و تذكر مقولة شهيرة ، طالما كان يرددها كبير الضباع على مسامعهم في السنوات الأخيرة ، وطالما سخر منها الأسد أيضًا .. « الحلم الآن أصبح رفاهية .. فإذا حلمت احلم بحذر .. فقد تتحول أحلامك إلى حقيقة.. ووقتها لن تستطيع الفرار منها أبدًا» وتذكر أيضًا أنه أبدى اعتراضه على المغزى والهدف من ترديد تلك المقولة ، وأنها تئد الحلم في مهده ، وتدفعك إلى الاستسلام للواقع ، وجال بخاطره رد كبير الضباع عليه ، وهو يعلق على اعتراضه بمكر شديد قائلًا : لا تُفرط في أحلامك ، بل أحيانًا يكون من الأفضل أن تتقبل واقعك ، وحاول أن تُغير فيه قليلًا ، لا أن تُبدله إلى ما لا تعلم، فتصبح كمن يقفز في الظلام.. فالواقع بعض الوقت قد يكون أفضل من أحلام وردية ، من كثرة الإفراط في تزيينها طوال الوقت ، فتتحول إلى أوهام ، ثم تتبخر كالسراب كلما اقتربت منها ، متوهمًا أنك قد حققتها .. ووقتها لن تعود من حيث بدأت ، بل قد تتقهقر إلى الوراء كثيرًا أو لا تستطيع النهوض .. وربما تفقد قدرتك على الحلم مرة أخرى ؛ فتعيش عاجزًا أو في كابوس ما حييت ..

مط الثعلب شفتيه ، وهو يتذكر العبارات التي كان يرددها كبير الضباع ، ولام نفسه أنه لم يرد عليه وقتها بأن ما يقوله صحيح إلا قليلًا ، فطالما لم يخرج الأسد الذي بداخلك ستظل متقبلًا لواقعك..!

اقترب الثعلب بهدوء وسلم على الحاضرين ، والتفت إليه الأسد مُرحبًا في عبارات مقتضبة ، متمنيًا له التوفيق في المرحلة المقبلة..

ظل الثعلب صامتًا ، وإن كان أحيانًا يتدخل في مرات قليلة ؛ للمعاونة في إخلاء العرين مع الموجودين ، وكان الصمت الذي يحيط بالمكان يضفي عليه قدسية من نوع غريب.... فهي رهبة ممزوجة بمشاعر حزن وشجن.. مشاهد النهاية ، ولحظات الوداع من أصعب ما تكون دائمًا..

* * *

وبعد أن تم الانتهاء من جمع كل شيء ، اصطحب الثعلب الأسد في هدوء ، وهمس له بأنه يريد أن يتحدث معه على انفراد.. حاول الأسد أن يعتذر متعللًا بأنه متعب الآن ، ويفضل تأجيل الحديث إلى موعد لاحق ، إلا أنه أمام إصرار الثعلب وما لمحه بفراسته في عينيه من رغبة في الحديث تكاد تنبئ عن ثورة مكتومة في صدره وضيق شديد ، يكاد ينفجر من أعماقه، وافق على أن يتحدث معه .. وخرجا معًا إلى أحد أطراف الغابة البعيدة باتجاه الربوة العالية ؛ حيث قرر الأسد أن يعيش بمعزل عن صخب الغابة وعهدها الجديد . وبينما هما في طريقهما إلى منفى الأسد الاختياري ، لمح الثعلب مجموعة القرود تحمل لوحة نحاسية لامعة ، مدون عليها عبارة تُقرأ « القيادة العامة» ، وشاهد الضبع يأمرهم بنزع لوحة العرين الذهبية العريقة ، ووضع تلك بدلًا منها..وبدا المشهد أقرب إلى نهاية الأفلام الواقعية !!

طالت فترة الصمت بين الأسد والثعلب ، فلم يكن الثعلب يعرف كيف يبدأ الحديث في تلك الظروف ؛ فمشاعره وأحزانه تغلبانه ، فلزم الصمت مرغمًا .. أما الأسد ، فقد كان يريد تفادي أي حديث يجرح كبرياءه ، فآثر السكوت هو الآخر ..

أخيرًا قطع الصمت صوت الثعلب متحشرجًا ومتلعثمًا :

الثعلب : هل تعرف أنهم اختاروا الخرتيت بدلًا منك ...

الأسد : لم يختره أحد ، وإنما عينوه وفرضوه عليكم ، بعد أن أجبروني على التنازل عن عرشي.. ولم أشأ المقاومة حتى تخرج الأسود التي بداخلكم .

الثعلب: ولكنه أصبح اليوم ملك الغابة ...

الأسد : لا أوافقك الرأي ، بل ولا أستطيع تقبل الفكرة من الأساس .. أعتقد أنه يمكنك أن تقول بأنه يحاول قيادة الغابة في تلك المرحلة أو إدارتها، ولكنه في جميع الأحوال ليس ملكًا ..حتى الخرتيت نفسه قال إنه قائد عام لا ملك ... فالملك دائمًا له مواصفات خاصة ، لا تتوافر لدى هذا النوع من الحيوانات ..

الثعلب: لقد تمت اليوم مراسم تنصيبه بالفعل ، وكنت أنا حاضرًا فيها ، وأعتقد أنه .. ...

قاطعه الأسد بغضب : لا تكن سطحيًا ..دعك من المظاهر والشكليات، هل تقبل في داخلك أن يكون الخرتيت ملك الغابة؟

رد الثعلب في تعجب : أنا لست سطحيًا ولا أقبل بغير الأسد ملكًا للغابة .. ولكني أراك عنيدًا ، تنطح رأسك في الصخر بلا فائدة ..هل تحاول إقناع نفسك بأنك ملك الغابة حتى الآن ؟! إنني لا أفهمك على الإطلاق...

الأسد : هل هذا كل ما عندك ؟ هل جئت إلى هنا لكي تثير أعصابي بهذه التساؤلات السخيفة ؟

الثعلب : أبدا ... إنني لا أفهم شيئًا مما يجري حولي ، وهو ما يجعلني ضيقًا بكل شيء ، حتى الحصان اتهمك بالتخاذل والتفريط في عرش الغابة .. والخرتيت أصبح ملكًا عليها ، ويتهمك علنًا بالفساد والجميع يصفق ويهلل لما يقوله ..وأنت تتصرف ببرود شديد ، وكأن الأمر لا يعنيك ، مع أنك أنت

الذي أتيت بالخرتيت للعمل بالعرين ، وكنا جميعًا ضد هذا الاختيار ، واليوم كانت الحيوانات تصفق له في حماس منقطع النظير ... وأنت لا تبالى أيضًا .. أنا لا أفهم وما زلت مصرًّا على الفهم ...

الأسد : هل تذكر آخر إحصاء للفصائل في الغابة ، وعدد كل نوع منها ؟

الثعلب : نعم ، لقد أطلعتني أنت على هذا التقرير منذ فترة قريبة...

الأسد : هل تذكر ملاحظاتي على التقرير...؟

الثعلب : نعم لقد راعك تزايد عدد الحمير والقرود والكلاب الضالة والضباع بصورة هائلة ..وتناقص أعداد الأسود والفهود والثعالب والخيول الأصيلة بشكل ملحوظ.

الأسد : إذن افتح أذنيك واسمعني جيدًا ..

عندما تسمع الخرتيت أو غيره يتحدث عن الفساد ، فاعلم أنه يخاطب الأغلبية الواردة بالتقرير.. وعندما تسمع تهليلًا وتصفيقًا لكلامه ، فاعلم أن ذات الأغلبية – هم المصفقون والمهللون .... إنها دائرة مغلقة عليهم يكملونها معًا لا غنى لطرف منهم عن الآخر ، وإلا فقد كل منهم مبرر وجوده .

إن الغابة يا بني لا يقودها إلا أسد.. ولا ملك فيها إلا الأسد .. بل إنني لا أكون مبالغًا ، إذا قلت لك إن العالم من حولنا يحتاج دائمًا إلى أسد لا ليحكمه فقط ... وإنما ليكون موجودًا في كل موقع..في كل دولة.. في كل إدارة.. أو وزارة..أو شركة.. في أي مكان كبر أم صغر.. بعد أو قرب... حتى نحن نحتاج إلى أن نُخرج الأسد الذي بداخلنا وقت اللزوم .

انظر حولك تأمل تاريخ الإنسانية.... فعظماء العالم الذين غيروا تاريخ بلادهم كانوا أسودًا .. كانوا يحملون صفات الشجاعة والإقدام والنبل

والجسارة ، والقدرة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب... كانوا حريصين على مصالح عشيرتهم ..

انظر إلى قادة الحرب العالمية الثانية .. كيف كانت المملكة المتحدة يقودها أسد ..انظر إلى دولة مثل اليابان ، وكيف نهضت بأسودها في كل ميادين الحياة رغم الحرب... انظر إلى ألمانيا كيف كانت وماذا أصبحت... انظر إلى ديجول في بداياته بفرنسا .. انظر إلى غاندي ونهرو في الهند .. انظر كيف أصبحت الولايات المتحدة أكبر قوة في العالم... انظر إلى أسود الصين الجدد ... انظر إلى النمور الآسيوية ، وما حققته في زمن قياسي .. الأسد رمز القوة والشجاعة والثقة ..رمز القائد والقدوة ..رمز التقدم والرفاهية.. رمز الحق والعدل والخير والجمال .. في كل مكان وزمان .. حتى العالم الثالث أو النامي به أسود في مواقع مختلفة..

انظر إلى مصر على سبيل المثال كان بها أسود نهضوا بها منذ مائة عام وأسود أخرى قاموا بثورات شعبية ، قاومت الاحتلال حتى طردته وحررت بلادها ... ولكن زادت فيها الضباع فأكلوا الأسود وأضاعوا أعمالها ..

كان بها أسود ، عبروا بها من الهزيمة إلى النصر ، ثم تكاثرت الضباع مرة أخرى وكبرت الديناصورات وتخاذلنا في مواجهتها ، وكان ما كان ، وعُدنا إلى نقطة البداية مرة أخرى في انتظار أسد جديد يُنهي زمن الضباع وهكذا ستظل الأسود موجودة فينا ، وبداخلنا تنتظر اللحظة المناسبة دائمًا لتخرج ، ثم تزأر ، ووقتها لن يقف في طريقها أحد..

إن الأسد رمز وأنا أصل الرمز ، ولذا كنت ملك الغابة وسأظل...

إن في داخل كل منا أسدًا كامنًا ، ينتظر دوره للخروج ، ولكننا نقيده ونكبته ونضعفه بالنفاق، والكسل، وغياب الضمير، وانعدام الوازع الديني،

وضعف الانتماء..والخوف والقهر ؛ حتى يلين الأسد بداخلنا.. ثم تخبو حماسته..وتقل شراسته رويدًا رويدًا ؛ فيصبح حملًا وديعًا... ثم يصير فأرًا يهرب بعيدًا لمجرد مشاهدته خيالًا لقط.. !

إن الأسد سيظل موجودًا لا يلغيه قرار ، أو تمحوه مراسم تنصيب خرتيت أو أي حيوان آخر.. الأسد هو الرمز الباقي دائمًا وأبدًا .. وعندما تختار حاكمك ، فأنت لا تختار إلا أسدًا .

الأسد هو الأمل الذي يجب أن نزرعه في الأجيال القادمة ...فلا تيأس أو تستسلم ، بل أيقظ الأسد الذي بداخلك ، وثق دائمًا أن « الأسود لا تموت أبدًا » ..

صمت الثعلب ، وهو يتابع بعينيه الأسد ، بعد أن أنهى حديثه ، واستدار متجهًا إلى عرينه الجديد بالربوة العليا في شموخ..

وعاد الثعلب أدراجه في اتجاه وسط الغابة ، وبعد برهة قصيرة التفت ، وألقى نظرة للوراء ، فشاهد قرص الشمس يميل للغروب بلونه البرتقالي .. وكان عرين الأسد يبدو في منتصفه كنقطة سوداء بعيدة ، وإن كانت ظاهرة وواضحة ، وكأنها تأبى أن تغيب..تأمل المشهد ..ورنت في أذنيه عبارة الأسد الأخيرة :

« الأسود لا تموت أبدًا »

* * *

6

فرس النهر يقود المسيرة

« لقد اخترتكم بعناية وبعد تشاور وبحث مع أولي الأمر ، وأرجو أن تكونوا عند حسن ظني بكم..

أريد منكم عملًا متواصلًا ليل نهار ..أريد أن تنسوا عهد الفساد الذي ولى وانتهى إلى غير رجعة.. وتذكروا أنكم الآن في مواقع القيادة ... وستكتبون تاريخ الغابة من جديد ، والجميع ينتظر منكم الكثير فلا تخذلوهم .. وإذا كان لدى أي منكم أسئلة أو استفسارات ، قبل بدء العمل ، فأنا كلي آذان صاغية الآن ..فلن أسمح بأي خطأ بعد ذلك ، حتى ولو كان بسيطًا ».

هكذا بدأ الخرتيت حديثه إلى معاونيه الجدد في إدارة الغابة وجزرها الأربعة الرئيسية .. كان يتحدث ، وأمامه عشرات الميكروفونات ، وكأنه يعقد مؤتمرًا صحفيًا ، لا اجتماعًا مغلقًا ، بينما جلس كبير الضباع على يمينه مباشرة فلا تعرف أيهما يتوسط المنصة من شدة التصاقهما ، وكأنهما يتزاحمان للظهور في الصورة أو تصدر المشهد.. بينما جلس فرس النهر على مقربة من كبير الضباع إلى اليسار قليلًا ، وخلفهم وقف ثلاثة ضباع كبيرة ضخمة ، تتلفت يمينًا ويسارًا ، وكأنها من طاقم حراسة خاصة ، لا قيادات في غابة ..!!

كان المكان الذي عقد فيه الاجتماع غير المتوقع ، هو عرين الأسد القديم، مقر قيادة الغابة منذ سنوات بعيدة ، وقيل تبريرًا لذلك إنه لدواعٍ أمنية ..! مع أن الجميع يدرك جيدًا أن الخرتيت لو سار بمفرده في الغابة أيامًا ولياليَ ، فلن يتعرف عليه أحد على الإطلاق ..!!

كان الخرتيت يجلس على كرسي ملك الغابة متململًا ، ربما لأنه كان واسعًا عليه تلك المرة ، بعد أن فقد الكثير من وزنه خلال الأيام الماضية.. أو لعله لم يتعود بعد طريقة وأسلوب جلوس الملوك في شموخ وعظمة ..

وكان اللقاء حافلًا بالمفاجآت..

أولها أن الثعلب وجد نفسه ما زال محتفظًا بوظيفته في الجزيرة المركزية..

وثانيها أنه تم استبعاد جميع الأشبال من أية مناصب في الغابة..

وثالثها ظهور حيوانات جديدة لأول مرة في قيادة الغابة ، وإن كان لظهور كل منها دلالة مختلفة عن الآخر ورابعها ... وخامسها و... ..

وأرجأ الثعلب التفكير في الاختيارات الجديدة ومفاجآتها ، وجلس ينتظر سماع تساؤلات القادة الجدد ، بعد الوقع الثقيل لكلمات الخرتيت ، والتي حملت تهديدًا ووعيدًا صريحًا لمن يخطئ ، رغم أن الخرتيت نفسه أكبر خطأ في حق الغابة كلها.

كان الثعلب يريد أن يتعرف على فكرهم ويسمع حديثهم ، فهو يؤمن بحكمة سقراط الشهيرة .. « تكلم حتى أراك بوضوح» .

خطر بباله أن يقترح عليهم اسم الدهموس بدلًا من العرين ؛ خاصة أن ملك الغابة الجديد قد غير اسمه من الخرتيت إلى وحيد القرن ؛ ليتناسب مع

وقار المنصب ، وكان قد استبدل لقب ملك الغابة بالقائد العام ؛ مما أسفر عن تشويه أشجار الغابة بلافتات باهتة حملت عبارته السقيمة .. « قائد معكم لا ملك عليكم» .. كما خطر له أن يسأل الخرتيت عن كيفية وصوله إلى هذه الاختيارات ، ومع من تشاور في شأنها ؟! وما ملامح العهد الجديد الذي بلا فساد ، بينما أغلب الحاضرين من الفاسدين ، ومكانهم الحقيقي وراء القضبان ؟!

ثم لماذا اختاروه هو في هذه المرحلة الجديدة ؟؟؟ هل لكفاءته في عمله .. هز رأسه غير مقتنع ، فهناك مثله كثيرون.... ثم إن معيار الكفاءة لا يهم في هذه المرحلة.... هل توسموا فيه أنه مثلهم ؟؟ هز رأسه ثانية ، فهو على وجه القطع ليس كذلك ، بل ولم تظهر منه بادرة واحدة تؤكد هذا المعنى .. هل هم غافلون عنه ؛ خاصة أنه لاحظ وجود ثعلب آخر من ضمن المختارين في الجزيرة المركزية ، وهو بحكم صداقته له يعلم أنه مثله بل أكفأ ..فهل غفلوا عنهما معًا باعتبارهما من فصيلة واحدة ؟

شعر الثعلب بحيرة شديدة.. فترك التفكير في هذا الأمر جانبًا ، وبدأ يستمع إلى حديث من الفيل بمناسبة العهد الجديد ..لم يقل الفيل كلامًا جديدًا ، وكان يبدو للثعلب أن الفيل لديه دائمًا مقاطع جاهزة ، يقولها في كل مناسبة ، مع تغيير طفيف في العبارات والمناصب والأشخاص ؛ لتتفق والمقام الذي تقال فيه..

قرر الثعلب ألا يتابع هذا الحديث المكرر ، وأن يلقي نظرة على التعيينات الجديدة ، التي وزعها عليه الجمل حال دخوله الاجتماع العام .. إلا أنه استرعى انتباهه أن النمر غير موجود ، وفهم على الفور أنه تم استبعاده ،

وسعد بينه وبين نفسه لهذا الأمر ... ولكنه عاد وفكر في أن النمر رغم كل عيوبه .. كان أرحم كثيرًا من الضباع والحمير والقرود.... يا للمأساة.. لقد اختار هذا الخرتيت توليفة غريبة .. هل نضبت الغابة إلى هذا الحد؟! هل جار علينا الزمن لهذه الدرجة؟؟

قالها الثعلب ، وهو يتأمل أسماء الحيوانات التي وقع اختيار الخرتيت عليها ؛ للعمل في قيادة الغابة في عهدها الجديد.. وأعاد القراءة بصوت خفيض لعل بصره يكون قد خانه وهو يقرأ .. لقد اختار الخرتيت «الثور» مستشارًا فنيًا له لشئون الغابة.. والفيل مديرًا عامًا لشئون الغابة القومية، وأربعة من القرود في الإدارات الفنية المتخصصة.. واختار كبير الضباع نائبًا أول له ومفوضًا للقيام بأعمال ملك الغابة ، في حالات الضرورة والاستعجال !! واختار أوسطهم نائبًا ثانيًا !!! ثم عين فرس النهر مديرًا للجزيرة المركزية !!! وخروفًا مديرًا للوسطى وحمارًا وحشيًا للكبرى ، أما الصغرى فأسندها إلى أحد كلاب البحر... يبدو أن له صلة قرابة بأحد كبار الحيوانات المفترسة !!

ياهول ما فعلت يا خرتيت..!!! لقد كادت علامات التعجب تحتل صفحات بأكملها في هذا الكتاب من جراء فعلتك !! الجزر الأربعة التي تعد عصب الغابة وأمنها القومي وأمانها ، تسند أمرها من بعد الأسود إلى هذه الشرذمة من الحيوانات ، التي لا تفهم شيئًا في إدارة الأمور .. أيعقل أن يحل محل الأسد حيوان آخر .. وإذا حدث أيكون فرس نهر أو كلب بحر، والكارثة الخروف الذي كان من قبل لا يُرى إلا على موائد الطعام .... حقا إنك لخرتيت!!! ما تاريخ هؤلاء في الغابة ؟ ما خبراتهم؟ ما الأساطير أو

الحكايات التي رُويت عنهم؟ المحصلة بالتأكيد ستكون صفرًا كبيرًا ، أشبه بمؤخرة الخرتيت نفسه ..!

ومن فرط حزنه على حال الغابة ، الذي آلت إليه ، لم يقو على سماع مناقشات الضباع والقرود مع خرتيتهم ، وبدت له أصواتهم ، وكأنها أصوات مشوشة غير واضحة متداخلة ، وكأنها مرآة لملامح تلك المرحلة..

فالكل يتحدث في أي شيء وكل شيء في وقت واحد .. ولا أحد يعي ما يسمع.. بل ولا أحد يفهم فيما يقول !!!

* * *

استلقى الثعلب على أريكة مكتبه الصغيرة بمقر الجزيرة ، وأعاد تأمل المختارين للجزيرة المركزية .. كان على رأس المختارين مديرها الجديد «فرس النهر» ... بعد أن كان الأسد يديرها بنفسه في السنوات الماضية ..

كان الثعلب يعرفه جيدًا فقد عمل معه من قبل ، وكان وقتها فرس النهر صغيرًا لا يهتم كثيرًا بعمله ولا يتقنه ، فإمكاناته محدودة ، وهو من المعروفين في الغابة بأن له ظهرًا قويًا كما يقال يسنده دائمًا ، ولا يفارقه كظل الإنسان في ساعة الظهيرة.. وكان كثير الجلوس مع أحد الضباع ، المعروف بالضبع الأسود ، وكان يعمل معهم وقتها في ذات المكان ..وكان الضبع المذكور يستغله أسوأ استغلال.. ماديًا ومعنويًا ففرس النهر بسيط.. غبي.. نهم للطعام.. محب للشهوات.. كسول.. بينما الضبع الأسود شرس، غليظ القلب ،ذكي، انتهازي، بالإضافة إلى أنه على استعداد لاستغلال نفوذ منصبه، إذا ما واتته فرصة جيدة يتربح منها ربحًا عظيمًا ..

وكان الضبع الأسود قريبًا إلى قلب كبير الضباع ، والذي اختاره للعمل في الجزيرة المركزية وقت حكم الأسد للغابة ، وأقنعه به ، وقبله الأسد على مضض .. فقد كان كبير الضباع مفروضًا ، للأسف ، على الأسد في تلك الفترة الأخيرة من سنوات حكمه ، من قبل الديناصورات..

ورغم أن الأسد نجح في إبعاده عدة مرات ، إلا أنه كان كالحرباء يغير جلده ، ويعود في صورة جديدة ، ويتولى المنصب تلو الآخر، إلى أن كوَّن كبير الضباع علاقات كثيرة ومتشعبة أصبحت تدعمه ، وتضفي عليه نوعًا من المصداقية والشرعية ، لا تتفق وحقيقة أمره ككبير للضباع ؛ فانخدع فيه الأسد لبعض الوقت ، ولكنه أصبح كل الوقت بالنسبة للغابة الآن ، بعد أن غاب عنها الأسد..

عاد الثعلب يفكر في فرس النهر ، الذي استمر في منصبه سنوات طويلة ، لم يعمل خلالها إلا أيامًا قليلة ، والباقي تفرغ فيه لخدمة كبير الضباع وحاشيته إلى أن صار واحدًا منهم ومقربًا من كبيرهم ، رغم اختلافه عنهم شكلًا وموضوعًا ..

وتعجب الثعلب كيف لنباتي مثل فرس النهر أن يصادق وحوشًا مفترسة كالضباع ، وكيف نجح في التقرب منهم ؟ وهل ذلك راجع لذكائه ، أم لأنهم قد قربوه منهم لاستغلاله ؟

ولم يصل لإجابة شافية فاستمر يسترجع ذكرياته .. كانت نتيجة ما قدمه فرس النهر من خدمات لكبير الضباع ، أن اختاره لقيادة الجزيرة المركزية في عهد الخرتيت ..

وابتسم الثعلب في مرارة ، عندما تذكر مشهد كبير الضباع صباح ذلك اليوم ، الذي قدم فيه فرس النهر للخرتيت قائلًا بنبرة مسرحية: ها هو ذا اختياري.. فرس النهر ، الذي عمل في الجزيرة المركزية سنوات وسنوات؛ حتى أتقن عمله وهو من المخلصين .. مخلص لمن ؟ وأتقن ماذا ؟ لا أحد يبحث أو يدقق..

وكان فرس النهر بثقل وزنه وبدانته يتصبب عرقًا أمام الخرتيت وتلعثم ، وهو يتمتم بعبارات الشكر الجزيل للذين منحوه منصبًا لم يكن يحلم.. مجرد الحلم في أن يناله.. حتى ولو تولى البرغوث عرش مملكة الغابة ! فلا هو واجهة مشرفة.. ولا هو متمكن من عمله .. ولا هو صاحب خبرة يفيد بها من يرأسهم .. ولا هو إداري ناجح ، قادر على اختيار معاونين أكفاء لقيادة الجزيرة...

ولم يجد الثعلب إجابة مقنعة ، سوى أنه عصر الدهموس ، الذي ينبغ فيه فرس النهر والخروف والثور ، ويصبحون أعلامًا وقيادات تتعلم منها أجيال جديدة من القرود والنعاج والفئران والكلاب الضالة.. وإذا كان اختيار فرس النهر هذا لقيادة مكان مهم وحيوي ، كالجزيرة المركزية ، يعد صدمة بكل المقاييس .. فإن اختيار العاملين فيه كان يمثل كارثة .. فأغلبهم يحمل بداخله حقدًا وكراهية للباقين ، ومعظمهم بلا خبرة حقيقية أو ماض مشرف، وكل منهم يحمل بداخله نواقص في شخصيته تجعله غير أهل لتولي هذا المنصب الرفيع..

أصبح الموقف أشبه بكوميديا سوداء ، تعتصر مشاهدها أحاسيس ومشاعر الثعلب ، وبدا وجهه حزينًا متجهمًا ، وسمع طرقًا على باب حجرته ، فنظر صوبه في شرود غريب ، دون أن ينطق وكأنه فقد القدرة على الكلام..

انتبه الثعلب على صوت أحد العاملين بالجزيرة ، يبلغه بأن فرس النهر يطلبه لحضور اجتماع بداية العمل في العهد الجديد .. فنهض وتوجه صوب مقر مكتب مدير الجزيرة المركزية.

كان الثعلب يسير في خيلاء وزهو.. لا يعلم سببًا لهما .... هل لنجاحه في عمله.. هل لرضائه عن نفسه في الآونة الأخيرة.. هل لأنهم أبقوه في منصبه .. لم يستطع التحديد واكتفى بينه وبين نفسه بالقول بأنه راض وقانع ، ولا يهم الآن البحث عن السبب .

ما إن فتح الثعلب الباب الخاص بمكتب مدير الجزيرة ، حتى تراجع تلقائيًا خطوتين للخلف ، وبُهت ودُهش فالجالس على المكتب هو فرس النهر ، ورغم أن الثعلب كان يعلم ويتوقع حدوث هذا البلاء ، إلا أنه شعر بدوار بسيط ، فالمنصب لا يليق أبدًا بالجالس هناك .. وليس من رأى كمن سمع ...

«يا الله ... اللهم إني لا أسألك رد القضاء ، ولكن أسألك اللطف فيه».. تمتم بها الثعلب بصوت خفيض ، ثم انتبه على صوت فرس النهر ، يدعوه للدخول وكان يرمقه بنظرة بلهاء لا معنى لها..

رحب الثعلب بفرس النهر مهنئًا إياه بالمنصب الجديد بعبارات مقتضبة ، حاول أن يبدي فيها سعادته باختيار فرس النهر لهذا المنصب ، إلا أن تعبيرات وجهه فضحته فقد كان الأسى يكسو ملامحه والحزن يبدو عليه واضحًا ..

كان الثعلب يشعر دائمًا أن لديه حاسة سادسة ، يستطيع بواسطتها التنبؤ بالخطر قبل وقوعه ويظهر ذلك عليه ، فيبدو شاردًا أكثر من اللازم ولكن فرس النهر كان ذكيًا أكثر مما توقع الثعلب ، فشعر ، فيما يبدو ، بما دار بذهن

الثعلب ، ولكنه أسرها في نفسه.. فظل شهورًا طويلةً يعامله بغلظة وجفاء ، لم يستطع الثعلب أن يمحو آثارهما إلا بكفاءته وإتقانه لعمله..

ومع ذلك بقي حاجز نفسي بينهما ، لم يتمكنا من إزالته أو حتى إزاحته جانبًا، فلازمهما طوال سنوات الحكم في الغابة ، أحيانًا يكبر ويزيد سمكه وأحيانًا أخرى يضمحل وينكمش ، ولكنه على أي حال ظل موجودًا دائمًا ..

تذكر الثعلب في أيام قيادة فرس النهر الأولى ما قاله لهم الأسد في إحدى خطبه .. إنه إذا أراد أن يحكم أحدكم جيدًا على حيوان آخر ، فيجب أن يراه خارج منصبه .. كيف يتعامل مع الآخرين .. كيف يعيش..كيف يفكر .. ما اهتماماته وطموحه وأهدافه .. كيف يستمتع بحياته.. ما بيئته الأصلية التي أتى منها.. ما مدى تكيفه مع المجتمع الذي يعيش فيه .... ما ردود أفعاله إذا ما تعرض لضغط .. كيف ينفعل .. كيف يتخذ القرار ..كلها أمور كثيرة لا يكشفها العمل وحده أبدًا ، وهي الوحيدة التي تكشف عما إذا ما كان بداخلك أسد حقيقي أم لا ..!

بدأ الثعلب يتعامل مع فرس النهر من هذا المنطلق ، على أمل أن يجد به مزايا ، تعوض النقص في نواحي العمل والإدارة ، إلا أنه صُدم الصدمة الثانية .... فرغم طيبة قلب فرس النهر التي تلوح ، في بعض الأحيان ، إلا أن غباءه الشديد حوَّله إلى حيوان عنيد بلا حجة ، ولأنه يميل إلى النمط الاستهلاكي الشره ، فقد أصابه سعار علت ألسنة نيرانه، بعد أن زكتها السلطة .. والتي أصبحت مع مرور السنين بلا حدود تقريبًا .. فتحول فرس النهر إلى دكتاتور صغير.. يكبر ولكن ببطء .. يتقدم خطوة ويتراجع عشرات.. وتحولت الجزيرة في عهده إلى أطلال ، جثم عليها بأنفاسه الثقيلة سنواتٍ عجافًا ، لا يعرف إلا

إصدار الأوامر بما يريده منه رؤساؤه من الضباع ، محاولًا إرضاء الخرتيت بأي ثمن ، حتى على حساب كرامته وكرامة من يعملون تحت قيادته الكئيبة، وتعامل معهم كدكتاتور قاسٍ لا يرحم ولا يفهم ولا يسمع .... ولكنه ، حتى في ثوبه الجديد ، كان مسخًا قبيحًا ..

وضحك الثعلب ، ولكنه ضحك كالبكاء ، فحتى الدكتاتور يجب أن يكون فيه شيء من الوحشية والشراسة ، ولو حتى في ملامحه. .

لقد فشلت يا فرس النهر .. حتى في أن تكون دكتاتورًا !

* * *

مرت الشهور الأولى ثقيلة ؛ فالثعلب بغير عمل حقيقي ، والآخرون يعيشون في الغابة فسادًا ، والنظم تتغير وتتحول تبعًا لمزاج قائد الغابة الجديد الخرتيت اللعين وفرس النهر الغبي، فالأول عصبي المزاج متهور مندفع.. والنتيجة معروفة قرارات خاطئة ، لا رجعة فيها بطبيعة الحال ، والثاني لا يعترض وكأنه توقف عند حدود الموافقة فقط ..!!

أما قرارات وحيد القرن ، فالقرود والضباع تصححها في ذهنه ، غير عابئة بما يسجله التاريخ عنها .. فالمساحة اختزلت في حجم رأس وحيد القرن فقط .. أما خارجها فلا قيمة له على الإطلاق ..

وفرس النهر لا يفعل شيئًا إلا قبل استشارة وحيد القرن .... والأول عندما تسمعه يعرض أمرًا على الثاني ، تتملكك الدهشة ، ويقفز إلى ذهنك السؤال التالي : أين مسرح العبث واللامعقول من هذين الحيوانين ، وكيف غفل عنهما حتى الآن ؟! فالأمر تافه ولا يستحق حتى الذكر ..لا المشورة

..ولكنك تسمع فرس النهر يعرضه ، وكأنما هو قرار إعلان الحرب ، ويستفيض في الشرح مغلفًا حديثه بعبارات النفاق بأن هذا الأمر كان يحتاج إلى توجيهات الخرتيت وحكمته !! ثم يستمع - بطبيعة الحال - إلى التوجيهات الفارغة التي يلقنها له الخرتيت بعد أن صدق ما قاله فرس النهر عن حكمته وذكائه.. ثم يبدأ الخرتيت في الحديث في توافه الأمور مضخمًا صوته تارة.. ومقطبًا حواجبه تارة أخرى .. ومبتسمًا ابتسامة صفراء تارة ثالثة.. وكأن الأمر كان يحتاج إلى داهية فتقمص هو دوره ..!!

وينتهي الحوار ، في أغلب الأحيان ، مغلفًا بدعوات من فرس النهر للخرتيت بطول البقاء والصحة والعافية ، وألا يحرم الغابة من أفكاره وخبرته ....فإذا كان الأمر أكثر وأشد تفاهة ، طلب فرس النهر موعدًا من وقت الخرتيت الثمين لكي يعرضه عليه !!

ولم يتبق لكي يكتمل هذا المشهد في ذاكرة الثعلب سوى إسدال الستار ، ومتفرجين يستلقون على ظهورهم.. لا من الضحك ، ولكن لأن مقاعدهم كانت بلا مساند خلفية .. فسقطوا من هول الصدمة ..

ألم أقل لك إنه مسرح العبث واللامعقول ...؟!

* * *

7

ملامح من عصر الدهموس

حاول الثعلب التغيير في نظم الإدارة بالجزيرة كثيرًا.. ولكنه لم يستطع ، بل شعر أنه هو نفسه الذي بدأ يتغير نحو الأسوأ ...فصار يتبع طرقًا ملتوية في عرض مهام عمله ، وأصبح ينافق في أحيان أخرى .. ولكن بلا احتراف فبدا سمجًا.. وبدأ يشعر أنه كاد يلتصق بالمنصب .. لا زاهدًا فيه كما كان، وأحس أنه كمن يخدم كرسيه.. ويدنو إلى أسفل ، وصارت قامته تقصر وتقصر .. كان ذلك الإحساس بالقهر يسيطر عليه ويصيبه بالاكتئاب ؛ فهو لا يحب الشللية في العمل.. ولا يحب طريقة أهل الثقة .. ويكره الواسطة والمحسوبية والنفاق ولا يجيد أيًا منها.. وكل ذلك أثر عليه سلبًا فأضعفه..

وصار الثعلب أحيانا أخرى يحبس نصيحة مخلصة في صدره ويكتمها، ولا يبوح بها ؛ حتى لا يُقال عنه إنه نافق فلانًا أو جامله ، فبدا شديد الحساسية.. ومع مرور الوقت أصبح مشوشًا بحق .. وكثيرًا ما كان يؤنبه ضميره على هذا العمل.. وشعر بعد سنة من قيادة فرس النهر للجزيرة أنه لا بد وأن يقف مع نفسه وقفة حاسمة حازمة ، فها هو قد أصبح في مفترق طرق ، فإما أن يبيع نفسه وتاريخه وشخصيته ، ويتحول إلى دمية في يد فرس النهر يلهو بها وعندما يمل يلقيها ويأتي بغيرها .. أو أن يصبح كيانًا وشخصيةً لها هيبتها

ومكانتها ويحافظ على تاريخه ، فيهابه فرس النهر ، ويحتاج إليه في العمل كما كان دائمًا ....

اختار الثعلب الطريق الثاني بالطبع ، ولكن المشكلة لم تكن بالنسبة له في الاختيار ، وإنما في تنفيذ الاختيار..

وابتسم الثعلب .. فكثير منا يتصور أنه عندما يختار ، يكون قد وصل إلى حل المشكلة ، ويركن إلى هذا الاختيار ويعتقد أن مشكلته قد حُلت نهائيًا .. ولكننا للأسف ننسى أن الاختيار هو البداية دائمًا ، وأن النهاية هي بحُسن تنفيذ الاختيار ، والحفاظ على التزامنا به .

مرت شهور كثيرة بذل فيها الثعلب جهدًا خارقًا ؛ لكي يغير من نفسه ويتغلب على مساوئها.. صحيح أنه اصطدم بعوائق كثيرة أحبطته أحيانًا ، وأضعفت من همته وعزيمته أحيانًا أخرى ، إلا أنه صمم على المُضي قُدمًا فيما اختاره ، واستطاع أن يصل إلى نتيجة اعتبرها نجاحًا.. فها هو الآن بعد مرور عامين ونصف من قيادة فرس النهر للجزيرة المركزية ، يُصبح حرًّا إلى حد ما في طريقة اختياره لعمله وطريقة أدائه ، واستطاع أن يوجه فرس النهر إلى حد ما أيضا إلى الاقتناع برأيه في أغلب الأمور ، أو أهمها على أضعف الإيمان.. واستطاع أيضًا أن يحافظ على هذا النمط من الأداء ، وعلى هذه الطبيعة للعلاقة بينهما قدر استطاعته .... ولم يكن هناك ما يعكر صفوها ، إلا بعض الهفوات ، التي كان فرس النهر يخرج فيها عن النص بحكم غبائه وعناده وطبيعته ، التي لم يستطع الثعلب أن يغيرها يومًا ما ..

في يوم مشرق وأثناء جلسة ودية بينه وبين فرس النهر ، تصور الثعلب فيها أن مقاليد الأمور قد دانت له ، فتصرف بطبيعته الثعلبية ، وانتهز الفرصة

الذي تصور أنها سنحت له - بحكم المنطق على الأقل - وأبدى رأيه في الحيوانات التي تعمل بالقيادة المركزية ، وتحدث بنبرة القائد الواثق ، وروى وقائع وأمورًا فنية ولم يتطرق إلى مسلك شخصي ..

واستمع إليه فرس النهر في البداية ، واهتم بما قاله ، إلا أنه أفاق بعد برهة على نبرة الثقة والاعتزاز الصادرة من الثعلب ... فخاف منه وخشي أن يغلبه بحجته ومنطقه ، فاتبع معه الأسلوب الرخيص وحجة الفاشلين والغوغاء والسوقة ، فسفَّه حديثه ورفض منه منطقه وحجته بدعوى أنه - أي فرس النهر - هو القائد ، وأن من حقه أن يفعل ما يريد وقتما يشاء ، وأن الجميع يعملون تحت إمرته ، ومن لا يعجبه العمل فليرحل غير مأسوف عليه ..

آثر الثعلب الصمت فما بيده حيلة ، وهو لا يملك من أمر التغيير شيئًا ، بل إنه هو نفسه لا يملك حرية قراره ، فكيف له أن يحدد مصير الآخرين.. إنه عصر الدهموس الذي لا مكان فيه لرأي أو حكمة أو مشورة ، وإنما هناك دائمًا متسع للنفاق والتهريج والإسفاف والعبث واللهو.

كاد الثعلب يجن من التفكير ثم بدأ ينتابه شعور غريب.. مزيج من القهر والإحباط واليأس يشيخ معه الطفل.. وأمور جسام تحدث يوميًا في العمل تجعل الوليد يشيب .. وحتى لا يسبق الحوادث ويفترض الأمور السيئة قبل حدوثها ، استأذن من فرس النهر في حصوله على إجازة وانصرف.. وجلس هادئا إلى مكتبه ببيته ، وأمسك قلمًا وورقة ، وراح يحلل من يعملون معه - وهو لا يدرك بعد أن أغلبهم يعملون في الواقع ضده - مقررًا بينه وبين نفسه أنه لم يتجن عليهم ، عندما قال رأيه فيهم بصراحة ، يحسد عليها ، فهو غالبًا ما يحتفظ برأيه لنفسه ولا يبوح به أبدًا ..

وبدأ الثعلب يكتب أسماء الحيوانات التي تعمل في الجزيرة المركزية ، ويحاول أن يحلل شخصيتها على قدر استطاعته ، محاولًا تحديد ملامح العصر الجديد ، الذي فرض عليه .. فشعر بأسى وحزن لما آل إليه الحال ..!! فنائب فرس النهر الذي وقع الاختيار عليه كان نمرًا آسيويًا ضخمًا أبيض اللون بخطوط طولية سوداء غير النمر القديم الذي رحل .. كان الغدر لصيقًا به التصاق الأنف بالوجه... يظهر دائمًا بمظهر الأسد على خلاف حقيقته مخادع شرس مناور.. عنيف في تعامله مع الآخرين... ظن فرس النهر بغبائه أنه سيروضه وسيجعله من أتباعه .. ولكن النمر رفض ، فهو نرجسي يرى أن فرس النهر لا يستحق منصبه كمدير للجزيرة .

كان يرى نفسه أنه الأحق بالمنصب ، خاصة أنه كان مقربًا ، في وقت من الأوقات ، من كبير الضباع ، فاصطنع الكثير من الأزمات ، وافتعل عديدًا من المشاكل لفرس النهر ، وحاول إقصاءه عن منصبه والغريب أنه استعمل معه السلاح ذاته .. الفساد.. ولكنه فشل ، فقد استطاع فرس النهر إقناع الخرتيت بأن النمر فاسد من جذوره.. ومهمل في عمله وكسول ، وغير مبال ولا يصلح ..

نقل فرس النهر هذه الصورة أولًا إلى كبير الضباع فلما اطمأن إلى استحسانه إياها وحصل على الضوء الأخضر منه بإقصاء النمر.. نقلها إلى الخرتيت، والأخير بطبعه لا يسمع.. وإن سمع لا يفهم ما يقال له.. فهو من شدة عصبيته وعناده ، بالإضافة إلى زهو المنصب ، لم يعد يسمع إلا صوته ، وكان كارهًا للنمور بطبيعته بالإضافة إلى تعمد النمر الظهور دائمًا بمظهر أسد أمام الخرتيت، وكأنه يذكّره بنقيضه فكان في ذلك مقتله والخلاص منه ، بعد أن ذبح نفسه باستهتاره وغروره ، وقدمها للخرتيت على طبق من ذهب .

ومع ذلك ، فشل الخرتيت حتى في استغلال هذه الفرصة ، والقضاء على النمر الآسيوي تمامًا ، فالأخير لجأ إلى الديناصورات لحمايته والإبقاء عليه، مع وعد منه بحماية مصالحها ، إذا ما تولى أمر الجزيرة المركزية بعد فرس النهر .. وخاف الخرتيت من الديناصورات ، ورضخ لها فهي سبب وجوده ومصدر بقائه واستمراره في قيادة الغابة .. بل الأدهى أنه لم يخجل حتى من أن يمتدح النمر علنًا ، وقال فيه شعرًا ، وكأنه لم يعد يرى سوى محاسنه .. وظل الحال على ما هو عليه إلى أن مات الديناصور الراعي الرئيسي للنمر الآسيوي .. فانكشف ظهره .. ونكل به الخرتيت تنكيلًا شديدًا ، وجرّده من كل مناصبه ، وهوى به للقاع .. حقًا إنه لعصر الدهموس..

* * *

الحيوان الثاني في الجزيرة كان حمارًا طيب القلب ، بدأ حياته في الغابة منذ سنوات بعيدة بالعمل في إدارة فنية ، تتبع الأسد مباشرة على خلاف المنطق ..! ثم حدث أن قل العمل في هذه الإدارة ، ولم يعد هناك حاجة للإبقاء عليها ، ولأنه عمل غير مهم ، ولا يتطلب خبرة .. فقد استغنوا عنه ونقلوه إلى وظيفة إدارية عادية ، إلى أن وقع اختيار الخرتيت عليه ؛ كي يكون أذنه وعينه على فرس النهر ، ففرضه على الجزيرة المركزية ، وطلب من فرس النهر إسناد أعمال مهمة إليه ، نكاية في النمر الآسيوي في أواخر أيامه وتمهيدًا للإجهاز عليه .. وكان فرس النهر ، بالطبع ، لا يستطيع أن يرفض أو يقول رأيًا مخالفا لرغبات ونزوات الخرتيت ، ولم يستطع أيضًا أن يُقيم الحمار ، فربما الأخير يفهم أكثر منه وكلاهما يرى في نفسه أنه أذكى الحيوانات ..! ولكن لأن الحمار مُطيع بطبيعة الحال ، ولديه جَلد على العمل .. فإن العلاقة بينهما صارت ودية ..

أما الخرتيت ، فقد أراد زرع الحمار بالمكان كالجواسيس ؛ ليعرف أخبار الجزيرة المركزية منه .. ولأنه خرتيت فقد اختار حمارًا ..!! وبالتالي لك أن تتخيل طبيعة وأهمية الأخبار ، التي كان يتلقاها من الحمار .!!

وكان أن وعد الخرتيت الحمار بترقيته مديرًا للجزيرة إن أثبت كفاءة.. إلا أن ذلك الأمر لم يحفز الحمار ، فقد كان بلا طموح وظيفي ، ومن أين يتأتى له هذا الطموح ..أيخالف طبيعته ؟! بالطبع لا .. كان كل ما يشغل تفكيره أن يبحث عن وظيفة ، تُدر عليه أموالًا ، يستطيع بها أن يعيش في حظيرة أكبر .. ويحصل على أعواد برسيم أكثر ..أو يمتلك أرضًا يزرعها ؛ ليضمن غذاءه وغذاء أولاده من بعده ..ولقد فطن فرس النهر متأخرًا - كالعادة - لهذه الرغبة من الخرتيت بتمكين الحمار من قيادة الجزيرة وكان ذلك بإيحاء من كبير الضباع الحريص على بقاء فرس النهر في هذا المكان ؛ لأن الأخير يدين له بالولاء الكامل.. فحتى الحمار في عصر الدهموس غير مضمون..!!

بدأ فرس النهر يسعى سعيًا حثيثًا إلى إزاحة الحمار من طريقه ، إلى أن نجح في إغرائه بالالتحاق بوظيفة ، تدر عليه دخلًا أكبر بإحدى المراعي القريبة من الغابة ؛ حيث يجد العشب الأخضر ، الذي يحتاجه والبرسيم الوفير الذي يشبع بطنه ويسد جوعه .. ولأنه حمار ، فقد ذهب سعيدًا إلى هذه الوظيفة.. ونجح فرس النهر للمرة الثانية في إزاحة عقبة أخرى من طريقه ، بمساعدة ودعم من كبير الضباع ..

* * *

الحيوان الثالث في هيكل الوظائف بالجزيرة المركزية كان ثعبانًا أرقم خطيرًا ، له سم زعاف.. يظهر دائمًا في صورة حمل وديع ، مغلوب على أمره ؛

حتى يتمكن من فريسته ثم يلتهمها بلا رحمة أو هوادة .. وكان خروجه من الجزيرة يتطلب قطع الرأس لا جزء من الجسد .. وهو ما جعل إزاحته تتأخر بعض الوقت.. بدأ حياته في أطراف الغابة ، وتنقل بين عديد من الوظائف، وعمل في مناطق نائية عديدة ، فاكتسب خبرات متعددة.. وأثبت كفاءة ، ولكنه بينه وبين نفسه كان يشعر بأنه يستحق أكثر من الآخرين ..

لقد ود الثعبان لو أعاد توزيع الرزق بنفسه ، فقد كان يستكثر على الآخرين ما هم عليه ، وتملكه ذلك الشعور ، وسيطر عليه هذا الإحساس فصار حسودًا طامعًا شرسًا مانعًا للخير ، وقد لاحظ الثعلب عليه أنه يبذل جهدًا كبيرًا في التحول بين وجوه مختلفة وببراعة ، يحسد عليها ، تخدع كل الناس ، ولكن لبعض الوقت.. فمرة يظهر بصورة المدير القوي العنيف ، الذي لا يخشى في الحق لومة لائم ، وأخرى يظهر في صورة موظف جبان خانع ضعيف ، على أتم استعداد لبيع ضميره وشرفه ؛ من أجل أن يرضى عنه فرس النهر وكبير الضباع، ومرة ثالثة يظهر بصورة المؤمن التقي الورع .. وهكذا..

وكان الثعلب يحب أن يتأمل تلك الشخصيات الثلاثة التي يتقمصها الثعبان ، ويعمل أحيانًا بمكره على الضغط عليه ؛ لإخراجها في أوقات محددة؛ للتخلص من آخرين يشكلون بوجودهم عقبة في طريقه .. وكان الاثنان : الثعلب والثعبان مقربين لفرس النهر ، ويعتمد عليهما في إدارة أمور الجزيرة الفنية .. وإن كان الثعبان هو الأقرب لفرس النهر من الثعلب ؛ نظرًا لخنوعه الشديد..

تذكر الثعلب بداية لقائه بالثعبان منذ سنوات بعيدة ، كان الثعلب وقتها نجمًا لامعًا في الجزيرة المركزية ، وكان فرس النهر وقتها يعمل بالجزيرة ،

ولكن بلا مهام حقيقية ، ولكنه كان ذا نفوذ ساعده في أن يفرض سلطانه على الآخرين ، كما ساعده ذلك النفوذ أيضًا على البقاء في الجزيرة المركزية .. واستطاع الثعبان من خلال علاقته الوطيدة بأحد الكلاب الضالة أن يوطد صلته بفرس النهر ، وحصل بالفعل على فرصة للعمل بإدارة الجزيرة المركزية.. وعهد فرس النهر وقتها إلى الثعلب بأن يتولى تدريب الثعبان والاعتناء به ، إلا أن الثعبان شعر بكاريزما الثعلب الطاغية ، وأنه يتمتع بثقة واحترام رؤسائه ؛ فخاف على نفسه منه ، وانتهز أقرب فرصة للغدر به ..

وفوجئ الثعلب في أول لقاء عمل بينهما بوخزة خفيفة ، عرف وقتها أن الثعبان لدغه لدغة لا تميت ، ولكنها تؤلم وتنبه الثعلب وفهم مغزى اللدغة، ووصلته الرسالة فابتعد وآثر السلامة ، وهذا أحد عيوبه القاتلة..فلم يكن الثعلب يومًا ما مقاتلًا ولا محاربًا ، وإنما كان يعتمد دائمًا على فكره وذكائه ، ويحاول أن يحرك الآخرين كالعرائس ، فإذا الخيوط تقطعت وهوت العرائس إلى أسفل ، تركها وبحث عن غيرها غير عابئ بها .. غافلًا عن أن غيره قد يحركها ضده مرة أخرى ..

ما إن شعر الثعلب بغدر الثعبان ولدغته حتى تجنبه ، ولكنه صمم على أن يجد إطارًا للتعامل مع الثعبان ، في المرحلة القادمة على الأقل ، لتجنب سمومه ولتسيير العمل بالجزيرة.. ومع ذلك ، فقد فشل .. والحقيقة أن فشله يعود لسببين : الأول عدم تركيزه في هذا الأمر ، وإعطائه أولوية ، والثاني لأن الثعبان كان يشعر بنفوذه يكبر يومًا بعد يوم ويزيد ؛ خاصة مع قربه لفرس النهر وكبير الضباع ، وما أن تولى الخرتيت وجاء فرس النهر مديرًا للجزيرة المركزية ، حتى قويت شوكة الثعبان أكثر فأكثر ..

ولكن لأنه ثعبان فالغدر دائمًا ما يكون أولى صفاته ، فبدأ ينفث سمومه صوب فرس النهر ، الذي أتى به وعلمه ورعاه وأعطى له الفرصة .. فقد فات الثعبان يرى أن هذا المنصب لا يستحقه فرس النهر ، وأنه هو الذي يدير دولاب العمل من وراء الستار ، ومن خلف الكواليس وأنه يتعب ويزرع .. وفرس النهر يحصد..

وقد آن الأوان كي يصعد الثعبان على خشبة المسرح ، ويتلقى تصفيق المتفرجين وتحيتهم ، بدلًا من فرس النهر الذي لا يفعل شيئًا سوى جني الثمرات .. وجمع الحصاد دون تعب أو مجهود.. وغفل الثعبان عن أن الجزيرة في غابة.. والغابة بها ضباع ووحوش ، تنتهز الفرصة دائمًا للإيقاع بفريستها عند أول بادرة خطأ ..

إنه قانون الحياة في الغابة ، والبقاء فيها للأقوى دائمًا ، وسيظل....

فكان أن وشى به مثلث الضباع ، الذي يعمل تحت إمرته وفي إدارته ، ونقلوا حقده إلى قائده ومديره فرس النهر ، وهوَّلوا فيه ومنه وضخموه فكانت صورته قاتمةً .. وصحيح أن الثعبان يستحقها .. ولكن ممن ؟ ونقلت إلى من ؟ من ضباع إلى فرس نهر وضد ثعبان !!!

دراما قد يعجز بعض المؤلفين أحيانًا عن حبكها.. ولكنها الصورة القاتمة، التي انتهت إليها الجزيرة المركزية..في عصر الدهموس ..

وكان ما كان ، وبدأ فرس النهر يُقلص دور الثعبان رويدًا رويدًا ، فلم يستطع قطع رأسه مرة واحدة ؛ فالثعبان يعرف الكثير عنه ، وقد يكون فرس النهر قد تحسب لهذا اليوم ؛ لكي لا يفتضح أمره ويعلم الجميع أنه لا يفهم

شيئًا في إدارة أمور الجزيرة ، وأن الذي كان يديرها هو الثعبان فتحدث بَلبلة، لا حاجة له بها ؛ لأنها غالبًا ستطيح به من الغابة إلى أقرب ترعة ؛ فيقضي بها ما تبقى له من سنوات في الوظيفة.. وقد يلقى مصيرًا أكثر إيلامًا.. فاتبع مع الثعبان سياسة النفس الطويل ، وأقنعه بأنه يريد أن يريحه من العمل الشاق ، وأنه يرغب في تفريغه للأمور المهمة فقط .. وابتلع الثعبان الطعم بإرادته ؛ لأنه كان يريد أن يستمر في المكان حتى يخلف فرس النهر ، بعد زمن بات بالنسبة له قريبًا يلوح في الأفق ، ولكن تأتي الرياح دائمًا بما لا تشتهي السفن..

جاء تجنيب الثعبان بمثابة تصعيد للثعلب ، فأسندت له دون قصد المهام الجسام تدريجيًا ، بعد سحبها رويدًا رويدًا من الثعبان .. وبدأ فرس النهر يتعمد إسنادها للثعلب.. مرة نكاية في الثعبان ليشعره بأنه الذي يمنح ويمنع .. ومرة أخرى ثقة في كفاءة الثعلب.. وأدرك الثعبان أن نهايته اقتربت ، فحاول أن ينفث سمومه باتجاه الثعلب عسى أن يتخلص من غريم قوي، ويكون فرس النهر في النهاية مقدورًا عليه ، ويمكن تأجيله الآن .. إلا أن الثعلب كان قد حصل على مصل واق من فرس النهر ، باتت معه كل السموم لا تأثير لها عليه .. فلا هي أضعفت الثعلب ولا هي قضت عليه ، بل زادته قوة بعد أن تعمد بمكره أن يكشفها تباعًا أمام فرس النهر ؛ لكي يُظهر الثعبان على صورته الحقيقية ..

ونجح الثعلب في مهمته ، بل وتحالف مع الضباع ضد الثعبان ، وصار نجمه يصعد ويصعد ، بعد أن أصبح ميكافيلليًا لا يبحث إلا عن تحقيق غايته بأية وسيلة .. ووقع الثعلب في الخطأ نفسه ، فبدأ يمهد الطريق لنفسه لخلافة

فرس النهر ، ورأى فيه نفس ما رآه الثعبان من قبله ..وأنه لا يستحق منصبه .. إلا أن فرس النهر تنبه له أيضًا ، ولكنه لم يستطع أن يغدر بالثعلب تلك المرة ، فقد كان يحتاج إليه بالفعل ولكن إلى حين ..!!

كان يحتاج إليه مرتين : مرة لتسيير العمل ، وأخرى لتهديد الثعبان به ، ولم يكن هناك بديل حاضر وجاهز ، فأشار عليه كبير الضباع بأن يبدأ على الفور في إعداد البديل المناسب للثعلب ، فالوقت ليس في صالحه .. والثعلب أسهمه في صعود ، وقد يقتنع به الديناصور ويهدد وجودهما به .. وكانت تلك مشكلة جديدة واجهت الثعلب ، لم يعمل لها حسابًا ، بل ولم يتوقعها فالغرور يعمي البصيرة دائمًا..

* * *

رجع الثعلب برأسه إلى الوراء قليلًا ، وتنهد ودارت برأسه فكرة أن استغلاله من جانب فرس النهر ضد الثعبان أتت عليه وبالًا .. ماله وهذه الصراعات ؟ ولماذا أقحم نفسه فيها ؟ وماذا هو فاعل الآن خاصة أن فرس النهر أحضر كلبًا ضالًا وقردًا ضخمًا للعمل بالجزيرة ، وأسند إليهما مهامًا ، كان الثعلب يقوم بها من قبل ..؟

قال لنفسه لندع هذا الأمر الآن جانبًا ولأكمل تحليل بقية الشخصيات.. وكان لا يدري أن غروره طغى على تفكيره ، فأعمى بصيرته وأضعف عزيمته .. إنه عصر الدهموس يا ثعلب ، قد تمكن منك وربما يقضي عليك ، ولكن لا حياة لمن تنادي ؛ فالثعلب في تلك المرحلة فقد تركيزه تمامًا ، والتصق بالمنصب وصار خادمًا له متمسكًا به..

عندما يموت الأسد فينا.. تموت معه قيم الخير والحق والحكمة ، والكثير من الصفات الحميدة..

* * *

الحيوان الرابع في الجزيرة المركزية .. كان كلبًا مسعورًا ، ولكنه يخفي هذه الحقيقة عن الجميع ، إلا أن الثعلب كان يعرف أصوله ، فقد كان هذا الكلب يعيش على أطراف المدينة قُرب الصحراء ، وينتمي إلى حيوان مجهول ، يجمع بين الكلب والضبع في أسوأ صفاتهما ، ثم نزح إلى الغابة منذ سنوات ، واستقر بها ، وعمل بالجزيرة المركزية منذ زمن بعيد وخدع الأسود بمظهره وحديثه ، فوثقوا به وعهدوا إليه بالمناصب المهمة ، إلا أن طباعه وأصوله الدنيئة ظلت تلازمه ، فما إن يجد فرصة سانحة حتى يعقر كل من يقابله ، حتى ولو لم يكن واقفًا في طريقه.

وكان هذا الكلب يعلم أن الثعلب يعرف حقيقته ، وحاول كثيرًا أن يعقره، إلا أن الثعلب في مواجهته معه كان أسدًا بحق ، وكان حريصًا على أن يفضحه أمام الجميع ويذكره بأصوله ، وكان يواجهه بخطاياه وأخطائه ، وطالما دخل معه الثعلب في معارك نجح في أن يهزمه فيها ..

وابتسم الثعلب في هدوء معجبًا بنفسه ، فهذه العنترية التي واجه بها الكلب المسعور ، لم تكن أبدًا من خصائص شخصيته.. وتذكر قول الأسد بأن كلًا منا بداخله أسد كامن يخرج وقت اللزوم ، ويبدو أن من سوء طالع هذا الكلب المسعور أن خرج له هذا الأسد الكامن بالثعلب..

أمسك الثعلب بالقلم وكتب اسم آخر اثنين من العاملين بإدارة الجزيرة معه ، وهو يتعجب من الإصرار على وجودهما ، رغم أنهما يحملان بداخلهما

أسباب رحيلها.. الأول ضبع صغير ينهش في الجميع ويهاجم من الخلف دائمًا..أما أمامك فهو كالنعاج ، يتبع دائمًا سياسة القطيع ..استطاع أن يقنع فرس النهر بأنه على درجة عالية من العلم والخبرة ، فانخدع به ؛ لا لأن الضبع أجاد دوره ، ولكن لأن فرس النهر لا يستطيع أن يفرق بين النفيس والرخيص ..!

أما البلاء الثاني ، فقد كان جروًا صغيرًا ، أتى إلى الجزيرة يهز ذيله ، وأقصى ما يطمع فيه ويحلم به أن يقال عنه إنه عمل بها.. فبذل مجهودًا خرافيًا لإثبات نفسه ، سواء في العمل أو في إذلال نفسه أمام رؤسائه ، وظهوره أمامهم بمظهر الضعيف ؛ كي يستمتعوا بإذلاله إرضاء لعقد النقص الكامنة في نفوسهم ، ولكنه لم ينجح سوى في الثانية ، وفشل في إثبات أي كفاءة في عمله ..!

وجد هذا الجرو ضالته المنشودة لدى فرس النهر ، والذي أمعن في إذلاله حتى الثمالة ، وكان المقابل بقاؤه في الجزيرة ...

توقف الثعلب كثيرًا أمام ما سطّره عن العاملين معه .. لقد نظر إلى نواقصهم وتتبع عوراتهم فقط ولابد أن لهم مزايا غفل عنها ، وشعر بأنه قد يكون ظلمهم أو تجنى عليهم .. وأحس بتأنيب ضميره فحمل أوراقه ، وقرر أن يذهب بها إلى الأسد علّه يجد عنده الجواب الشافي لتساؤلاته وحيرته.. لا لكي يقف منه على كيفية التصرف مع هؤلاء ، فهو كفيل بهم ، ولكن لشعوره بأنه بدأ يفقد جزءًا من احترامه لنفسه ، وقدرًا من قدرته على التقييم الموضوعي .. وصار الثعلب على هذا النحو مما وصل إليه من حال ، لا يستطيع العمل في أجواء مفعمة بالغيوم ، كتلك التي بدأت تلوح في الأفق .. وخرج من مقر الجزيرة

حزينًا ومحبطا ، بعد أن علم بغياب الأسد لفترة قد تطول.. ولن يجد من يعينه على نفسه ، مثلما كان يفعل معه الأسد..

كان الوقت قُرب الغروب ، وبدا مبنى الجزيرة المركزية من خلفه أطلالًا سوداء كئيبة ، وكأنها يشاركه الشعور الذي بداخله ..و يعبر عن حال قيادة الغابة في عصر الدهموس.

* * *

8

كبير الضباع ملكا

مرت أيام وسنوات طويلة على الثعلب ، وهو يعمل في الجزيرة المركزية، وبدأ يشعر بالملل والكآبة ، فالحال لم يتغير ، ولا يبدو أن هناك تغييرًا قريبًا يبعث بعض الأمل في النفوس ، كما أن الوجوه لم تتغير أيضًا ، وازدادت النفوس سوءًا ، وبات الضرب تحت الحزام أمرًا مألوفًا والغدر والخيانة والنفاق من الأشياء المعتادة ، التي يستقبلها المتلقي بفتور ، دونما استياء أو استنكارمن كثرة ما تعودها ، كما صار الاحترام وقول كلمة الحق والوفاء بالعهد أمورًا ينظر لها ببعض الدهشة ، وبكثير من الاستغراب ، وكأن صاحبها أتى من كوكب آخر ..

وفي يوم أشد سوادًا من ظلام الليل ، وصل الثعلب إلى مقر عمله متأخرًا بعض الوقت ، وكان فرس النهر دائم السؤال عنه في ذلك اليوم ، حسبما أبلغه أحد القردة ، الذين بات من النادر ألا تراهم في أرجاء الجزيرة المركزية، وكأننا في سيرك لا مقر عمل وقيادة غابة!!

دخل الثعلب على فرس النهر ، وكان الأخير يقلم أظافره غالبًا من فرط الملل ، فقد علاها الصدأ من قلة الاستخدام...!

جلس الثعلب في هدوء ، متوقعًا أن يستمع إلى تعليمات جوفاء كالمعتاد، تعقبها ابتسامة ثعلبية ، توحي بأن تلك الأفكار عبقرية وأنه سيعمل على

تنفيذها فورًا .. أمر يتكرر كثيرًا حتى صار مملًا ، مما دفع الثعلب إلى أن يفكر جديًا في أن يدفع ببديل له إلى مكتب فرس النهر ؛ لأداء هذا المشهد الروتيني كل بضعة أيام .. إلا أن اليوم كان أمرًا مختلفًا..

نزل الخبر كالصاعقة على الثعلب ، عندما فتح فرس النهر فمه الكبير ، والقبيح أيضًا ، ليخبره بأمرين ، كلاهما أسوأ من الآخر..

الأول أن كبير الضباع صار ملكًا على الغابة هذا الصباح ، بعد أن تم انتقال هادئ للسلطة بينه وبين الخرتيت ، تحت إشراف نخبة من مجلس حكماء الغابة .. !! نظير السماح للخرتيت بخروج آمن من الغابة بلا عودة !!

وثانيهما أن الجرو الصغير الذي أتوا به منذ سنوات لقهره وإذلاله والسخرية منه ، من قبيل إخراج النواقص التي لدى فرس النهر وأتباعه من الضباع ، والتسلية به في أوقات الفراغ.. هذا الجرو صار كلبًا كبيرًا الآن، وسيتولى منصب النائب الأول لفرس النهر ، بعد إقصاء الثعبان نهائيًا من الجزيرة المركزية.

الحقيقة ، أن الثعلب مرت عليه لحظات صمت وكأنها سنوات ، وظل قابعًا في مكانه ، لا يحرك ساكنًا وكأن على رأسه الطير.. خرتيت وثعبان بحجر واحد ، وأحدهما كان ملكًا على غابة .. يا لها من ضربة قاضية .. لم يهمه خبر الجرو بقدر ما انزعج واندهش ، في آن واحد ، من صيرورة كبير الضباع ملكًا على الغابة دون أن يدري أحد .. ما هذا الجبروت وتلك السيطرة ؟ ملك على الغابة هكذا ببساطة وبهذه السهولة ، وكأنه تم خروج الخرتيت إلى المعاش ، وتولى كبير الضباع لأن أقدميته أتت به ؟!

هل يعقل أن يحدث ذلك في مملكة الغابة ؟ هل أصبحت مثل دواوين الحكومة ؟

بعد مرور برهة على سيل الأسئلة ، التي تدافعت إلى رأسه ..فضل الثعلب أن يستمع إلى تفصيلات أكثر من فرس النهر عن تلك الكارثة ، أو قل: الكارثتين اللتين وقعتا في وقت واحد ، فكان ما أخبره به فرس النهر من أسباب وتحليلات لتلك التغييرات هو ما جعل الكوارث تصير ثلاثًا..!

بدأ فرس النهر حديثه الكئيب بصوت خفيض ، مع إيماءات خفيفة من الرأس وابتسامة صفراء كل بضع ثوان لكي يصلك إحساس كاذب بأنه العليم ببواطن الأمور ، وهو أمر اعتاد فرس النهر أن يفعله حتى أتقنه وكان من لا يعرفه ينخدع به للوهلة الأولى ؛ خاصة مع بريق منصبه ، ومع الوقت يكتشف محدثوه أنه أبله ، ولا يعرف من الأمور حتى ظاهرها .. فقال :

« الخرتيت صار مريضًا في الفترة الأخيرة وكبر وتوحش ، وظن نفسه قائدًا عامًا رغم أنه لا يفعل شيئًا في الواقع ، وأنا من كنت أزرع وهو يحصد ، وأنا من كان يفكر ويتدبر وهو ينطق ؛ مما دفع الديناصورات إلى اختيار كبير الضباع ملكًا للغابة ، عندما علمت بالحقيقة التي كانت غائبة عنها ، وأبلغت الخرتيت بقرار تنصيب كبير الضباع ملكا على الغابة ، وتم انتقال السلطة في هدوء تام .. وكان أول ما فعله كبير الضباع صباح اليوم أن ألغى لقب القائد العام ، وأعاد لقب ملك الغابة مرة أخرى ، وهو اختيار حكيم لمرحلة مهمة حرجة دقيقة تمر بها الغابة ، وتحتاج إلى نوعية مثل كبير الضباع لتحمل مسئوليتها وإدارة شئونها ، وتولي مقاليد الأمور فيها بحسم وشدة » ..

أنهى فرس النهر حديثه وأشعل سيجارًا بالمقلوب ، فقد كان يجهل طريقة استخدامه..وإنما هي الرغبة في تقليد كبير الضباع ..الذي صار ملكا !!

كاد الثعلب ، بعد أن سمع تلك العبارات من فرس النهر أن يصرخ قائلا: هل تقرأ من ورقة ؟!!

من أين أتيت بهذه القدرة على الحديث لفترة دون تلعثم ؟! ثم إن كبير الضباع نفسه لا يفهم معنى مقاليد الأمور حتى يتولاها.. ثم يحسمها وبشدة..!!

ظل الثعلب ينظر في ذهول إلى فرس النهر ، وعيناه محدقتان في وجهه ، مطالبًا إياه بالمزيد من التفاصيل عن هذا الانتقال الهادئ للسلطة ، بل الذي يبدو وكأنه انتقال صامت من فرط هدوئه.. كان الثعلب في شغف لمعرفة أسباب عزل السيئ واختيار الأسوأ ، حتى ولو كانت التفاصيل بهذا القدر من السطحية ، فأحيانًا يفرض الخبر المهم على متلقيه أن يستمع إلى حواش وتفريعات ، أغلبها ريح فاسدة تخرج من ..رأس من أبلغك بالخبر ..!

استرسل فرس النهر في تحليله قائلًا : إن كبير الضباع كان أولى بهذا المنصب منذ البداية ، ولكنْ لكل شيء أوان ، وقد آن الأوان الآن ولا يصح في النهاية إلا الصحيح ..! كما أن الخرتيت سيُعين في منصب استشاري كبير، فلما سأله الثعلب مندهشا : ألم تقل : إنه مريض ؟!

رد فرس النهر ، محاولًا أن يبدو خبيثًا : ألم تسمعني ؟ لقد قلت لك إنه منصب استشاري فقط ..

وعندما علم الثعلب - فيما بعد - حقيقة هذا المنصب الاستشاري الكبير ، وخطورته على أمن الغابة القومي ، ازداد تساؤله إلحاحًا عن علاقة «الأمراض» بهذه المناصب ، التي تبدو مهمة وحساسة جدًّا في غابات أخرى، إلا أنها عندنا تخصص للمرضى ...

يبدو أن ذلك من قبيل رفع معنويات المريض !!!!

وبدا فرس النهر متألقًا ، وهو يحلل اختيار الجرو الذي صار كلبًا ليكون نائبًا ، فقال : إن وفاء هذا الكلب نادر بحق وطاعته عمياء فعلا ، ثم إن الجزيرة تحتاج إلى خبراته في تلك الفترة الحرجة ..

ولم يقو الثعلب على كتم ما في داخله هذه المرة ، فجهر به في وجه فرس النهر، بأن المكان من كثرة ما به من نعاج ، بات في حاجة إلى كلب بالفعل .. ليحرسها!! ولم يعجب هذا القول فرس النهر بالطبع ، فالكلب من اختياره .. وأيضًا هو أحد أخلص تلاميذه .. هذا إذا افترضنا أصلًا أن فرس النهر يمكن أن يكون أستاذًا فلابد أن مَنْ يتتلمذ على يديه لا يكون إلا كلبًا ... وكشر فرس النهر عن أسنانه الغليظة القبيحة ، وفهم الثعلب أن أيامه في الجزيرة باتت معدودة بعدد الأسنان ، التي ظهرت له من فك فرس النهر !!!

* * *

الكارثة الحقيقية فيما حدث من وجهة نظر الثعلب لم تكن في اختيار كبير الضباع ملكًا أو تصعيد الكلب ، وإنما في الاقتناع وإقناع الآخرين بأن هذه الاختيارات هي الأصلح للغابة ، بينما جموع الحيوانات لم تختر أيًا منهما .. ولو كان لها حق الاختيار مثلما الحال أيام الأسد ، لاتجهت بفطرتها لاختيار أسود تحكمها وتقودها ..

إن المصيبة تكمن في خطورة مناصبهم وصلاحيات وظائفهم ..إنك إن أردت هدم بيت ، فإنك تضرب عاموده لتتهاوى جوانبه .. وهو بالضبط ما فعله الديناصور ، لعنة الله عليه ، بغابتنا .. ياليته انقرض حسبما أخبرونا

وصدقنا.. ولابد أنها كانت عصورًا زاهية تلك التي اختفى فيها ، قبل ظهوره مرة أخرى ..

شعر الثعلب بدوار خفيف من كثرة التفكير وقلة الحيلة ، وبدا عاجزًا حتى عن أن يغادر مقعده ، إلا أن صورة فرس النهر الكئيبة وتشويحه بوجهه غاضبًا ، كرد فعل ، على تعليق الثعلب على اختيار الكلب ، شجعته على النهوض لينجو بنفسه.

وغادر المكان بخطى متثاقلة ، متوجهًا إلى الأسد في منفاه الاختياري ، لعله يجد لتساؤلاته جوابًا .. فقد علم أيضًا أنه قد عاد للظهور في الغابة ، بشرط عدم تولي أية مناصب رسمية أو ظهور إعلامي ..

غادر الثعلب مقر الجزيرة في الظهيرة ، ماضيًا في اتجاه الربوة العليا ، متوترًا من فرط انفعاله.. بينما كان الاتجاه المعاكس ، المؤدي لمقر القيادة العامة ، يعج بالقرود والضباع والنعاج والحمير ، وكانت تهرول جميعا في طريقها للتهنئة بحاكم جديد ، وعلى وجهها ابتسامة بلهاء .. مخلفة وراءها سحابة من الأتربة الكثيفة ، من فرط كثرة عددها وجراء هرولتها ؛ حتى يخيل لمن يشاهدها أنها تتسابق من أجل قنص فريسة ، بينما هي نفسها فريسة للجهل والنفاق ..

وكانت الصورة تنطق بحال الغابة اليوم ، ولا تحتاج إلى أي تعليق ..

والتفت الثعلب التفاتة بسيطة خلفه ، وألقى ببصره على القطعان ، التي غابت خلف سحابة الأتربة في خلفية المشهد ، وكأنها تحجب عنه ما لايحب أن يراه.. فهدأت نفسه قليلًا ، وتنفس ببطء ، بعد أن أراحه هذا التفسير ..

* * *

طوال الطريق إلى عرين الأسد بالربوة العليا ، لم يتوقف الثعلب عن التفكير ؛ فكبير الضباع على مدار حياته الوظيفية كان أفّاقًا فاسدًا .. الغدر لصيق به كجلده ..لا يحب الخير لأحد ، وله بطانة من الثعابين والكلاب والقردة والحمير ، تقودها ضباع صغيرة ، كوَّنها على مر السنين الماضية ، فصاروا أتباعًا له لا ينطقون إلا بما يريد ، ولا يفعلون إلا ما يأمرهم به .. وهذه المواصفات لا تأتي بهذا الضبع ملكًا للغابة على الإطلاق !!

فما الذي حدث ؟ ومن رشحه ؟ ومن كان منافسًا له فرجحت كفته؟ وما الذي رجحها ؟ ومن الذي أوجد الصلة بين فرس النهر والديناصور ؛ حتى يأتي كبير الضباع لهذا المنصب بهذه السهولة ؟ صحيح أن الخرتيت رحل ، غير مأسوف عليه ، ولكن من الذي خلفه في منصبه .. إنه ضبع ، حتى ولو وصف بأنه كبيرهم ؟! فمن المؤكد أن الكبر هنا كبر حجم أو فساد !!

إن الأمور تزداد سوءًا ، فالجاهل والفاسد وجهان لعملة واحدة ..

ولما لم يعثر الثعلب على إجابة لكل تساؤلاته ، جال بخاطره أمر الكلب ، الذي تقلد منصبًا مهمًّا اليوم ..

لقد كان هذا الجرو لا يجرؤ حتى على أن يتحدث إلى صاحبه !!! فما بالك وهو الآن يتقلد منصبًا مهمًّا ، وبات على بعد مرمى حجر من منصب من أتى به ..

سأل الثعلب نفسه : يا ترى من الذي سيدير لهذا الكلب أمور عمله ..؟ فمن المعلوم في الغابة أن الحمار عندما يتولى منصبًا ، يأتي بحيوان آخر لإدارة الأمور الفنية في عمله ؛ حتى لا ينكشف أمره .. فمن سيتولى مقاليد الأمور إذًا بالنسبة للكلب ؟!

ولماذا يكون هناك - دائما - قائد أو مدير جاهل في العلانية ومقدمة الصفوف.. وآخر عالم ومتمكن في الظل ، ويجلس بعيدًا في الصفوف الخلفية؟!

وكيف تم استبعاد الثعبان ؟! هل فصلت رأسه عن جسده فمات.. أم قُطع ذيله فيعود مرة أخرى ؟!

كثرت علامات الاستفهام والتعجب في رأس الثعلب ، وصار شاردًا مهمومًا طوال الطريق ، حتى وصل إلى العرين.. فلاحت له بارقة أمل ، عندما شاهد الحصان يجلس مع الأسد ويتحدث معه ..

رغم أن الثعلب لم يكن قد جلس بعد أو حتى اقترب بمسافة كافية ، تسمح له بالتقاط الحديث .. إلا أن المشهد فرض نفسه على مخيلته ، وكأنه أول ضوء بعد ظلام الليل الطويل..

لم يتوقف الثعلب كثيرًا عند سبب هذا الشعور الذي تملكه بالأمل ، وهل هو لشدة اشتياقه لعهد الأسد والعمل مع الحصان ، أم أنها بارقة أمل بعودتهما معًا في عهد قريب ؟ وكأنهما كانا ينتظران قدومه ويقرآن أفكاره ، فقد بادره الأسد قائلًا:

- لا تحزن هكذا ، فالأسوأ لم يأت بعد !!!

شعر الثعلب بأنه بات يتلقى صدمات لا يستمع إلى مجرد أخبار ..

إذا كان الأسوأ لم يأت بعد.. فبمَ يوصف الكائن الآن؟! وهكذا اندمج في الحديث ، وكأنه كان حاضرًا معهما منذ بدايته..

نظر الأسد إلى الأفق البعيد وقال في ثبات وثقة الحكيم :

- « أصغ إليَّ جيدًا ، لقد قلت لك من قبل كثيرًا إننا نقتل الأسد بداخلنا ، وعلى مراحل ..نظل نجبن ونضعف ونهون على أنفسنا ، طامعين في منصب

ونفوذ وسلطان ، على حساب كرامتنا وهيبتنا واحترامنا لأنفسنا ، وإذا كان من يفعل ذلك يؤذي نفسه ويذلها حتى يصل إلى غايته.. فما بالك بما سيفعله بمن يفرض عليهم نفوذه ؟! وما الذي سيفعله به من مكّنوه من هذا المنصب الذي اشتاق إليه ؟!

أجب أنت...

وإذا كنا الآن في مرحلة الضباع ، وهي مرحلة سيئة ، ولا ترضيك ولكنك لا تدرك أنها ليست الأسوأ ، فالأسوأ لم يأت بعد.. الآن هناك مراحل أخرى أكثر سوءًا في الطريق.. هل تعرف أنك من الممكن أن تعاصر الفأر ملكًا على الغابة.. إذا ما استمر عصر الدهموس في البقاء ؟!!» .

سرح الثعلب في خيال كئيب ، صوَّر له الفأر ملكًا على غابة تمرح فيها الضباع والجرذان والحشرات .. بل حتى الضباع لن يكونوا موجودين ، وسيترحم وقتها على أيامهم ...!!!

وكأننا من فرط القبح الذي أحاط بنا أصبحنا نراه جمالًا .. ونتمنى بقاءه بدلًا من أن نعمل على تغييره أو حتى تجميله.. إلى هذه الدرجة أصبحنا في القاع نقبع .. وبالحضيض نستقر ؟!

كان تساؤل الثعلب في حزن وشجن ، ولم يستطع أن يمنع دمعة كانت تترقرق في عينيه وقت حديثه ، فانسابت في هدوء ، عندما فرغ من الكلام ، وكأنها تضع كلمة النهاية على ما تخيله الثعلب من صورة قاتمة سوداء .

بقدر ما كانت دموع الثعلب صادقة ، كانت كلمات الأسد على نفس القدر من الصدق والتشجيع ، محاولًا بث الأمل في نفس الثعلب بأن يخلق لنفسه

نظامًا خاصًا ، يلتزم به بعيدًا عن تلك الدائرة الفاسدة ، التي أتت بخرتيت قائدًا عامًا ، ولما انتهت صلاحيته أفرغت كبير الضباع ملكًا على غابة ، باتت تعج بالقرود والحمير والكلاب....

طلب منه الأسد في هذا اللقاء أن يعمل أكثر ويدقق في عمله ، ويلزم نفسه بأن يكون أسدًا في مجاله يهابه مرؤوسوه ويحترمه رؤساؤه ..

ونظر الثعلب إلى الحصان ، وكأن لسان حاله يقول له كيف أُنفذ حديث الأسد ؟!

كان الثعلب يريد من يأخذ بيده ..من يرشده.. من ينصحه .. ثم يعلمه كيف ينفذ النصيحة.. ووجد ضالته في الحصان ، الذي ما أن تحدث وأسهب في الحديث حتى شعر الثعلب أنه أمام أسد آخر حقيقي .. وقرر ، وهو في طريقه مغادرًا العرين ، أن يخرُج الأسد الذي بداخله .. فما لا يدرك كله لا يترك جله .. وليكن ما يكون ..

* * *

عندما عاد الثعلب لمقر عمله بالجزيرة المركزية ، جلس على أريكته المفضلة بمكتبه ، وأدار موسيقى ، تبعث على الشجن .. كان يحب كل فترة أن يستمع إليها .. وبدأ يتذكر أول يوم ، أتى فيه الجرو إلى الجزيرة للعمل بها.. تمهيدًا لتنفيذ تكليف فرس النهر بالتعاون معه..!!

كان الجرو ممتلئ الجسم بعض الشيء ، ودائمًا وأبدًا ما يهز مؤخرته أثناء سيره بصورة ملفتة ، تبعث على كتم ضحكات من يراه.. كما كانت له أيضا ضحكة بلهاء ، وابتسامة بلا معنى على شفتيه ، وكأن فكيه مشدودان إلى أذنيه ..

هـذا عن الشكل..!! أما المضمون فحدث ولا حرج.. فقد كانت كلمة « لا يصلح » التي وصفه بها الثعلب ، واتفق معه آخرون فيها تعد بمثابة مجاملة لقدرات الجرو ، ربما لا يستحقها !!

وتذكر الثعلب أن فرس النهر في ذلك اليوم طلب منه رعاية الجرو ، والاهتمام به ، وتلقينه مبادئ العمل وأصوله ، وكان الثعلب مخلصًا بحق فيما كُلف به.. إلا أن الأمر بدا له بعد فترة مستحيلًا ، لا لصعوبة العمل ، وإنما لأن الجرو كان من الغباء ؛ بحيث لم يستطع أن يتعلم شيئًا.. وكان أكثر ما يستفز الثعلب في البداية ، هو إصرار الخرتيت وفرس النهر ، ثم كبير الضباع على الإبقاء على هذا الجرو وتصعيده .. وبعد فترة ، اكتشف الثعلب أن الجرو ما هو إلا راع رئيس لهؤلاء....

والرعاة الرئيسون ظاهرة انتشرت وتفشت ؛ في السنوات الأخيرة بالغابة، كإحدى ثمار الفساد ، الذي ضرب بجذوره فيها ، وكانت الرعاية تشمل المشاركة التجارية والمأكل والسهرات والملذات وأحيانًا رعاية الأطفال وتقديم الخدمات الأخرى بمختلف أنواعها ، وهو ما اصطلح على تسميتها مؤخرًا بكلمة «وخلافه» ، بما فيها طبعًا خدمة التوصيل للمنازل!!

وكان الجرو ، شأنه شأن أغلب الرعاة ، ميسور الحال.. يفتقد السلطة والنفوذ ويشتاق إليهما .. ويفتقر إلى القدرات الفنية والمهارات الشخصية ، التي تؤهله لتولي أي منصب.. وبرعايته لأصحاب النفوذ صار واحدًا منهم، ولكن في منزلة أقل.. ونادرًا ما يبرح منصبه ، فلا يكبر ولا يصغر وهذا ليس نكرانًا للجميل ممن شملتهم رعايته .. ولكنه توازن محسوب بدقة ، باعتبار أنه إذا ما كبر ، ستتوقف رعايته لهم ، وسيشعر أنه بحاجة لتعويض ما فاته،

وقد ينقلب عليهم ، وقد يبحث لنفسه عن راعٍ هو الآخر !! أما إذا ما ظل يتحرك في مساحة محدودة ، زاد اشتياقه للمنصب الأعلى والتصق بكرسيه الحالي حتى لا يفقده ، ووسع من نطاق رعايته على رؤسائه ؛ لضمان تصعيده أو بقائه فيه على أسوأ حال ..

ولم يشعر الثعلب أنه متجنٍّ على أحد فيما انتهى إليه من تفسير ، فليس من رأى كمن سمع ..وهو قد رأى وقد سمع ما يكفيه ويفيض.. وإذا كان حظ الثعلب العاثر قد شاء له أن يرى أكثر من الآخرين ، وأنه كان يفرح كثيرًا في البداية بما يراه ؛ فقد غفل أنه سوف يدفع ثمن كل مشهد من هذه المشاهد ، التي كانت ممنوعة على الآخرين .. إنه ما يمكن وصفه باللعب مع الكبار .. الغلطة الأولى غالبًا وأبدًا ما تكون الأخيرة .. ولم يخرجه من تفكيره وشروده إلا طرق عنيف على باب مكتبه ، أعقبه تعالي أصوات صاخبة تنبئ عن وصول حشد من الغوغاء والسوقة ..

والتفت الثعلب التفاتة بسيطة ، ووجه بصره نحو باب الحجرة ، ولم يستطع أن يكتم ضحكة سخرية ولدت من رحم ابتسامة مريرة ، عندما شاهد الكلب يدخل حجرته ، وهو يسير مختالًا بنفسه ، وسط مجموعة من القرود ، وكأنه زعيم قبيلة من الحفاة والعراة في أدغال إفريقيا ، وصاروا يحتفلون به ، بعد أن نصبوه أميرًا عليهم.. وانخرط الثعلب في ضحك متواصل بصورة غريبة ، حتى سالت دموعه .. والأغرب أن الكلب وقروده شاركوه الضحك ، ظنًا منهم أنه يحتفي بهم ، ولكنه بالنسبة له كان ضحكًا كالبكاء !!

* * *

9

لمحات من زمن الضباع

حتى شكل مبنى قيادة الجزيرة المركزية تغير مع التغييرات الأخيرة في المواقع القيادية ، وكأنما الجماد يشارك بدوره في ملامح المرحلة الجديدة ، حسبما يروق لفرس النهر أن يردد هذه الجملة دائمًا ؛ ليبدو مقنعًا .. أو ربما لكونه إحدى ثمار تلك المرحلة الجديدة بالفعل ..

كان المبنى - بحق - كئيبًا ، وله واجهة أشبه ببيت العنكبوت .. ربما أراد مصممها أن يرمز بها إلى أن من بداخل المبنى قد عفا عليهم الزمن ، أو أنه آن الأوان لكي يرحلوا.. ولكن لا حياة لمن تنادي .. فهم رجال المرحلة الجديدة .. ولا بد من أن يكملوا المسيرة حتى نهايتنا لا نهايتها !! وإن كان الثعلب يساوره الشك في رجولتهم من الأساس ، أو درايتهم بهدفهم من مسيرتهم ..

تذكر الثعلب بدايات المرحلة الجديدة ، واختيار هذا المبنى الكئيب كمقر للقيادة ، فقد كان أن وقع اختيار فرس النهر على الثعلب والجرو ؛ ليتفقدا هذا المبنى الجديد للقيادة ، فذهبا معًا واتفقا عندما وصلا لمدخله أن يتفقد كل منهما جناحًا ، ثم يلتقيا بعد فترة لمناقشة ملاحظات كل منهما ..

عندما جمعهما اللقاء مرة أخرى ، تحدث الثعلب قائلًا : إن المكان غير مصمم أصلًا لقيادة الجزيرة .. فهو يقع في منطقة نائية جدًّا ، ويشكل الوصول

إليه مشقة بالغة ؛ حتى على العاملين فيه ، كما أن واجهته كئيبة بصورة غير مسبوقة ، وكأنها متعمدة ..! أضف إلى ذلك أن تصميم الحجرات غير ملائم، ووسائل الاتصال بين القيادة المركزية وبقية الجزر شبه منعدمة ، ولم يعمل لها حسابًا في التصميم .. واستطرد : إن قيادة الغابة لابد وأن تكون قريبة من حيواناتها لا لتراقبهم ، كما يحلو للبعض أن ينتقد ، ولكن لتتعرف على مشاكلهم عن قرب ، وتعمل على حلها ، فضلًا عن أنه يشعرك بهيبة العرين رمز الأسد ، عندما تراه يتوسط غابتك .. ووجود المبنى في وسط الغابة يجمع بين الأمرين .. ويطمئنك بوجود الأسد قريبا منك ، حتى ولو لم تره.. و..

وقبل أن يستكمل ملاحظاته عن ضرورة نقل المبنى إلى وسط الغابة ، فوجئ بالجرو يقول له: انتظر قليلًا ، هل جلست مع فرس النهر أو تحدثت إليه قبل أن تحضر إلى هنا؟

فأجابه الثعلب بالنفي ، وبادره سائلا : ولماذا تسأل ألم نتفق على أن نناقش هذا الأمر معًا بعد تفحص المبنى ومعاينته ، ثم نكتب تقريرًا مشتركًا .. ؟؟

فابتسم الجرو في مكر ، يصعب حتى على الثعلب أن يجاريه فيه ، قائلًا: لا شيء ، كان مجرد سؤال أعتقد أن فرس النهر سيسعد كثيرًا بأفكارك !!! ولا تهتم بأمر التقرير .. اكتب أنت ما تريده ، ودعني وشأني.

فلما سأله الثعلب عن ملاحظاته ، أجابه بابتسامة خبيثة مرة أخرى ، تعجب الثعلب من قدرته على تكرارها بصورة متلاحقة هكذا، وقال الجرو: إن رأيي ورأيك مثلما تقول أنت دائمًا: كطرفي مقص .. كلاهما مشدود إلى الآخر ، ومع ذلك فكل منهما في اتجاه ..

سرح الثعلب قليلًا ، وشعر بأن ملامح الغباء بدأت ترتسم على وجهه ، ثم انقلبت إلى حيرة من قدرة الكلب على إتقان الابتسامة الماكرة بهذه السرعة .. ثم ابتسم هو الآخر ، وقال لنفسه : هل صحيح أن ما ورد بخاطره الآن هو الحقيقة ؟! يبدو ذلك ..

وقد كان بالفعل !!

عندما اجتمع فرس النهر بالثعلب والجرو في مكتبه ؛ لمناقشة موضوع المبنى الجديد ، بدأ الجرو بالحديث بناء على أمر من فرس النهر ..فوصف المبنى بأنه تحفة معمارية من الخارج.. وأما من الداخل ، فلم تترك شاردة أو واردة إلا وعمل لها حساب..!!! واسترسل قائلًا إنه رأى مكتبًا ، شعر بأنه لا بد ، وأن يكون فرس النهر قد اختاره لنفسه .. وأنه يتمنى أن يحظى بشرف الجلوس بالمكتب المجاور .. وهو وإن كان صغيرًا ، إلا أن قربه من فرس النهر سيعوضه ضيق المكتب ..!

سرح الثعلب ولم يعد ينصت إلى هذا الغثيان ، فقد أدرك أنه كان شديد الغباء وأنه لم يذهب لإبداء رأيه في المبنى ، وإنما لاستلامه والفارق كبير .. ولا بد أن فرس النهر قد سبقهما بزيارة ، بعد أن حصل على موافقة كبير الضباع على هذا المبنى الكئيب .. ونقل بصره إلى وجه فرس النهر ، فلمح ابتسامة رضا كبيرة ، أضاءت وجهه المظلم بطبيعته..

وعندما التفت فرس النهر إلى الثعلب قائلًا: ما رأيك يا ثعلب ؟

اكتفى الثعلب بكلمتين : المبنى جاهز...

قالها وهو يغادر مقعده ، وكأنه يعبر عما بداخله من غضب بترك الاجتماع، بعد ما عجز عن الإفصاح برأيه فيما رآه .. وكان لسان حاله يقول أنا لست

إلا دمية لها دور تؤديه ، ومساحة تتحرك فيها ، فإن تجاوزتها قُطعت خيوطها ..فالذي يتجاوز حدود خشبة المسرح ، يسقط إلى الصالة ، ويصبح واحدا من المتفرجين وما أكثرهم !!!

* * *

لم يكمل الثعلب عامًا داخل المبنى الجديد .. وكانوا قد اختاروا له مكتبًا بالطابق الأرضي ، أقرب ما يكون إلى باب الخروج من أي مكتب آخر .. يبدو أن ذلك كان لتسهيل الأمر عليه ، عندما يتم إنهاء خدمته بالجزيرة المركزية ... هكذا حدث نفسه !!

ورغم أن مكتب الثعلب كان كبيرًا بصورة مبالغ فيها ، ولديه حجرات للسكرتارية والمعاونين.. إلخ ، حتى لقد ظن في البداية أنهم أعطوه مكتب فرس النهر ، ومع ذلك فإنه لم يفعل شيئًا يذكر طوال تسعة أشهر كاملة ، قضاها بهذا المبنى حتى غادره نهائيًا ..

وكأنما كان المبنى أشبه برحم احتضنه فترة الشهور التسعة ، ثم لفظه ليكتب له ميلادًا جديدًا في موقع آخر..

مثل الغيوم عندما تتزايد وتتكاثف ، ثم تلتصق ببعضها البعض ، كان الحال كذلك في زمن الضباع ، وبات على من لم يكن ضبعًا أن ينظر إلى السماء كل يوم متضرعًا إلى الله ؛ ليرسل إلينا القطرة ، التي هي أول الغيث.. ولكنها لم تأت إلا بعد حين ..

أول الغيوم عندما بدأ الجرو تدريجيًا في السطو على اختصاصات الثعلب ومخصصاته ، بتشجيع وتحريض من فرس النهر .. بدأ سكوتًا عن الحق.. ثم تلميحًا بالسطو..وتحريضًا على الغدر إلى أن لاقى استحسانًا في النهاية ..

والغريب من أمر الثعلب أنه ترك المخصصات ، وكأنها لا تعنيه أو ليست من حقه ، أو كأنها كانت تفضلًا من فرس النهر عليه .. وفُهم تصرفه على أنه ضعف وخوف والتصاق بالمكان ..واعتقدوا أن الثعلب بسلبيته يبعث لهم برسالة ، تقول أعطوني الاختصاصات وخذوا المخصصات ..

إلا أن الحقيقة كانت غير ذلك تمامًا ، ويعرفها الكثيرون الذين عملوا معه، وأولهم الجرو نفسه الذي صار كلبًا الآن ..فالثعلب لم يرد مخصصات، ولم يطمح إلى اختصاصات ، بل كان زاهدًا في المنصب ويتعامل معه بهواية لا احتراف.. أحب عمله فأعطاه حياته كلها ، فمنحه عمله النجاح والاختلاف عن الآخرين .. التميز ..والتفرد .. والإبداع .. والابتكار.. وتلك كانت صفاته دائما..

لم يكن يهمه الكم أو الاستمرار ، بقدر ما كان يهمه الكيف ، ولم يحسب أبدًا ماذا سوف يفعل غدًا ..

لم يأبه يومًا بمن يقود ومن يحكم ، واهتم فقط بأسلوب الحكم وطريقة القيادة ..

لم يكترث يومًا بأمر كبير الضباع أو غيره أو من على شاكلته ..

لا يعرف إن كان ما فعله خطأ أم صوابًا ..ولكنه يدرك اليوم تمامًا أنه ليس نادمًا أبدًا على ما فعل بالأمس ..

ثاني الغيوم كان تصعيد البغل من إحدى حظائر الماشية إلى موقع قيادي في الجزيرة ..فأصبحت الجزيرة المركزية تدار من خلال مثلث قيادة ، على رأسه فرس النهر ، وعلى زاويتي قاعدته البغل ثم الجرو ، الذي صار كلبًا..! ولا

بهم إن كنت ترى المثلث مقلوبًا ، أو في وضعه الصحيح ؛ فالنتيجة واحدة لأنه في النهاية كان كبير الضباع هو الذي يتخذ القرار !! وهذا المثلث صورة من صور البطالة المقنعة لحيوانات لا تفعل شيئًا ولا تتخذ قرارًا ..ولا حتى تقوى على ذلك.. وأيضًا لا تريد !!!

ثالث الغيوم كان تعاظم دور الضبعين الأيمن والأيسر ، وهذه التسمية لا تعني تفضيلًا لأحدهما على الآخر ، وإنما فقط للتفرقة بينهما .. فأحدهما كان يميل إلى النظام الاشتراكي ، ويعتنق مذهبه من منطلق «خالِفْ تُعْرف» .. والآخر مال إلى الرأسمالية وأغلب الظن - وهو ليس آثمًا - لأنه لم يفهم معنى الاشتراكية!!!

ورغم أنهما كانا على دراية بأمور العمل في الجزيرة على نحو ما .. وقادرين على مواجهة أزماتها بصورة لا بأس بها ، وفقًا لمتطلبات العصر الجديد ، إلا أنهما كانا فاسدين حتى النخاع ومنافقين حتى المهات ، وبهما من الخسة والجبن ما يكفي الإنتاج المحلي ، ويتبقى فائض للتصدير !!!!

أصبح نظام العمل يقوم على أهل الثقة لا أصحاب الخبرة ، وهو نظام لا يلائم الثعلب ، ولا تظهر معه قدراته ..وعلى الرغم من ذكائه وقدرته على التأثير في الآخرين وحضوره وسرعة بديهته ، إلا أن ذلك كله لا يكوّن أدواته الأولى ، التي يستخدمها في أي وظيفة تسند إليه .. ربما عن غرور.. عن ثقة .. عن اعتزاز بالنفس ..عن كبرياء ..أو ربما عن غباء اجتماعي هو نفسه لا يعرف ولم يتوقف يومًا ليعرف سببه.. وإنما كان دائمًا يعتمد على كفاءته في العمل أولًا ثم بقية الأدوات ، بعد ذلك ، إن لزم الأمر ..

مع الوقت تطور نظام العمل في عصر كبير الضباع ، وأصبحت مقوماته الأساسية لا تعتمد على أهل الثقة فقط ، وإنما أضيفت إليها عناصر أخرى

أهمها كان إبداء الولاء التام بصورة دورية ، ولا بد أن يكون الولاء لكبير الضباع أولًا ، ثم مسبوقًا وملحوقًا لفرس النهر ، باعتباره ولي العهد .. لا تنس أننا في مملكة الغابة.. ولكن أي مملكة تلك التي ينجب فيها الضبع .. فرسا للنهر ؟!

ومع مرور الوقت أيضًا ، أضيفت إلى العاملين بالجزيرة خاصية جديدة إجبارية ، وهي عدم إبداء الرأي .. والاكتفاء بالإعلان الصريح بالموافقة ، في حالة تعذر التأييد أو التهليل للقرارات العنترية ، التي تصدر عن كبير الضباع ، وتنقل إلى الحيوانات العاملة بالجزيرة عبر فرس النهر ....

وكان نقل التعليمات بهذه الوسيلة من أكثر الأمور ، التي حيرت الثعلب، فلماذا لا ينقل ملك الغابة – حتى ولو كان ضبعًا – التعليمات مباشرة إلى رجاله..لماذا يكون هناك وسيط دائما بينه وبينهم ؟!

هذا الأمر لم يحدث إلا في عهد هذا البلاء العظيم المسمى كبير الضباع، لأن في عصر الخرتيت كان هو الذي يتلقى التعليمات ولا يصدرها ! أما في عصر الأسود فقد كانوا يلتقون بمعاونيهم دائمًا .. ولم يستطع الثعلب أن يدرك سبب اتباع هذا الأسلوب ، الذي كان كبير الضباع دائمًا ما يصر عليه ..وكأنه يخشى المواجهة ، أو ربما يشعر في قرارة نفسه بالدونية ؟! ربما ... فكلا الأمرين جائز ومقبول !

* * *

طغى الجرو بعد أن صار كلبًا.. وسعى في الجزيرة فسادًا ، أطاح بكل من سولت له نفسه مجرد انتقاده لا منافسته ، وساعده على ذلك قربه بل التصاقه بكبير الضباع ملك الغابة الحالي.. وساعده أيضا ضعف فرس النهر وخوفه

على منصبه بالجزيرة المركزية ، مع وجود البديل الجاهز في ظل تصعيد البغل نائبًا أول لفرس النهر .

ولكن أين أنت من ذلك كله ؟!!

هكذا بادر الحصان الثعلب بالسؤال ، عندما التقيا ، بعد سبعة أشهر من الانتقال إلى المبنى الجديد ..

اعتدل الثعلب في جلسته وابتسم ابتسامة حزينة ، وقال بصوت مجهد خفيض : أنا الحاضر الغائب حاليًا ، وبعدها سأكون الغائب الحاضر دائما على ما أظن .. ولم يخب إحساسه وصدق ظنه ، وكأنه كان يقرأ من كتاب مفتوح أمامه!! فلم يمض أكثر من شهرين على هذا اللقاء ، حتى ترك مقر القيادة نهائيًا، وظل معاونوه وزملاؤه ومرؤوسوه يترحمون على أيامه حتى الآن!!

في الشهور الأخيرة لعمله بالجزيرة المركزية ، تقلص دور الثعلب بشكل ملحوظ ، وأصبح مسئولا عن إدارتين فقط .. وصار الكلب مسئولًا عن الغالبية العظمى من الإدارات المهمة ، بينما تركت الإدارات الروتينية التي لا وزن لها في يد البغل.. وبدأ الثعلب يتهيأ للرحيل ..وإن كان من داخله يرفض هذا القرار ، فكيف يتقبل أن يترك مكانًا قضى فيه نصف عمره وأخلص له.. وكما أعطى المكان وقته وجهده ، أعطاه المكان اسمًا لامعًا ومكانة عظيمة ..كان دائمًا يشعر بالفخر بعمله ، ويحبه كما أحب أيضًا الذين كانوا يعملون معه ، وبادلوه هم نفس الحب .. فما الذي تغير ؟ ولماذا انقلب الحال هكذا ؟ حتى باتت المقولة الشهيرة عن الدنيا ، التي إن أقبلت باض الحمام على الوتد، وإن أدبرت بال الحمار على الأسد ..هي الأقرب لوصف حاله..

كان الثعلب كلما جلس إلى الكلب ، يشعر أن الأخير يتضاءل أمامه وينكمش في مقعده ، وكان هذا الإحساس يضايق الثعلب ولا يسعده على

الإطلاق ، فهو لم يتمنَّ يومًا أن يرى أحدًا ذليلًا منكسرًا ، حتى ولو كان من أعدائه ..كما كان يضيق بأحاديث الآخرين عن أنه الأفضل من الكلب في كل شيء ، ولم يكن ذلك تواضعًا من الثعلب بقدر ما كان إحساسًا وقناعة بأنه ليس في منافسة حقيقية ، مع من هو دونه في كل شيء ، فلماذا الإصرار على تلك المقارنة السخيفة بينهما إذًا ؟!

ولم يدرك الثعلب أبدًا أن مع كل انكماشة للكلب في مقعده ، كان يضمر له معها حقدًا شديدًا ، حتى ضاق صدر الكلب بالحقد والكراهية .. وتمكن ذلك الجرو ، الذي صار كلبًا في النهاية ، من أن يوغر صدر كبير الضباع على الثعلب وسهل له البغل بغبائه الباقي ، فالأخير كان أيضًا مقربًا من كبير الضباع لطاعته العمياء ، ولدرجة لا يستطيع أحد تخيلها ؛ فبنفس السهولة التي تتعرف بها على الوقت ، عندما تنظر في ساعتك .. كان كبير الضباع يأمر البغل ، فيطيعه بأكثر مما رغب !

كان من السهل اقتلاع الثعلب من جذوره ، بعد أن أوشك الأسد الذي بداخله على أن يموت..

والأغرب أنهم لم يشعروا بقرب موت الأسد بداخله ، وظنوا أنه ما زال قادرًا على الخروج ..فنقلوا إلى كبير الضباع أن الثعلب بداخله أسد يطمح في أن يكون ملكًا على الغابة يومًا ما ..!!

فأطاح به كبير الضباع بين ليلة وضحاها ، وكأنه لا يحاسبه على طموح ، لم يبح به لأحد فحسب ؛ بل لمجرد أن الآخرين لمسوا فيه القدرة على القيادة ، فكان في ذلك مقتله..ولكن مشهد النهاية كان مختلفًا.

* * *

قبل خروج الثعلب من منصبه بالجزيرة المركزية ، بشهر واحد ، استدعاه كبير الضباع ملك الغابة وكان هذا الاستدعاء غريبًا من عدة نواحٍ..

فهو الأول من نوعه منذ أن أصبح كبير الضباع ملكًا للغابة . .

وثانيًا لأنه كان له بمفرده دون فرس النهر ، رئيسه المباشر ، على غير المعتاد ..

وثالثًا لأنه لم يكن هناك في العمل ما يبرره.. فالأمور هادئة ، والثعلب لا تسند إليه أية أعمال مهمة في الفترة الأخيرة ، فلماذا هذا الاستدعاء المفاجئ إذًا ؟!

حمل الثعلب تساؤلاته في رأسه ، وذهب قبل الموعد المحدد للقاء ملك الغابة بفترة كبيرة .. لا احترامًا للموعد ، وإنما رغبة في تأمل العرين ، عندما جلس على عرشه ضبع ، حتى ولو وصف بأنه كبير .. كان يريد أن يتعرف على تفاصيل زمن كبير الضباع عن قرب..

عندما وصل الثعلب إلى المكان بدا له وكأنه مهجور فالإضاءة شبه منعدمة.. والأعمدة الطويلة الضخمة في الخارج ، والتي كانت تشبه معابد الرومان تعلوها الأتربة .. وعندما خطا أولى خطواته داخل العرين ، أفزعته أعداد القردة والخنازير التي به ، وكانت الهوام والحشرات لكثرتها تلاحقه، وتلتصق بوجهه التصاق الرجل بظله .. وكانت تنبعث من المكان رائحة عفنة غريبة تثير الاشمئزاز .. ولكنها على أي حال ، من وجهة نظر الثعلب ، كانت معبرة عن الواقع !!

قبل دخول الثعلب إلى غرفة العرش حيث يجلس كبير الضباع ، مرَّ من أمام غرفة أحد نوابه ، وكان الثعلب يعرفه ، فهو الثور الذي كان يعمل من

قبل مع الخرتيت وقت أن كان الأخير قائدًا عامًا للغابة.. وفكر الثعلب لحظات ثم اتخذ قراره بأن يجلس مع الثور قليلًا ؛ خاصة أن الموعد المحدد له للقاء كبير الضباع لم يحن بعد .. كما أنه لم ير الثور منذ فترة بعيدة .

هاله وراعه منظر الثور ومكتبه.. آلاف الأوراق والملفات وعشرات المساعدين يقومون بالعمل.. والثور في وسطهم ، يكاد لا يُرى رغم ضخامة حجمه من كم الأوراق المكدسة أمامه ..

حياه الثعلب في احترام يليق بالمنصب لا بصاحب المنصب .. وجاء رد الثور للتحية بفتور .. لم يأبه له الثعلب .. فقد كان يتوقعه..

جلس الثعلب للحظات صامتًا نظرًا لانشغال الثور ومساعديه في العمل، وشعر أنه جاء في وقت غير مناسب .. إلا أن ما لفت انتباهه رد فعل مساعدي الثور عند دخوله ، فقد توقفوا عن العمل ، وكأن حضوره إشارة متفق عليها مسبقًا بينهم على السكوت !!

سأله الثور في برود عما يريد ..فأجابه الثعلب متلعثمًا من الحرج ، وكمّ النظرات المصوبة إليه كالسهام من مساعدي الثور بأن لديه موعدًا مع ملك الغابة ، و.. ورأى أن يمر عليهم أولًا للتحية ، لا أكثر ولا أقل ؛ خاصة أنه قد مضى وقت طويل منذ آخر لقاء بينهما.. كان الثعلب يتحدث ، وهو يتصبب عرقًا راسمًا على شفتيه ابتسامة مجاملة ، جعلته يبدو أبله بعض الشيء..

جاءت الإجابة من الثور ببرود وصلف ، أكثر مما يتوقع الثعلب ، فقال: إن العمل الكثير لديهم لا يسمح لهم حتى باستضافة زملائهم.. وشعر الثعلب أنه قد أهين بهذه الكلمات ، وكان بداخله يشعر بأن لقاءه مع كبير الضباع سيكون الأخير لإنهاء خدمته.. فوضع ساقًا على ساق ، وقال بتعال

وكبرياء موجهًا حديثه للثور : إن العمل لديكم ليس بحجم عملي بالجزيرة المركزية، والمشكلة عندكم تكمن في أنكم غير منظمين ، فتهدرون الوقت وتتراكم الأوراق أمامكم ، فتصير جبالا ، وأشار إليها بيده في استهزاء .. وإذا كان لديَّ وقت فراغ في يوم ما ، فسوف أخبركم بما يجب أن تفعلوه ..أو أرسل لكم واحدًا من المساعدين بإدارتي .. ثم قال بلهجة لا تخلو من حدة : أرجو إبلاغ ملك الغابة فورًا أنني هنا للقائه ..

عقدت المفاجأة لسان الثور ، وكاد يطيح بالثعلب ، إلا أن أحد مساعديه تدخل بهدوء ، ورفع سماعة الهاتف الداخلي لإبلاغ إدارة العرين بحضور الثعلب للقاء ملك الغابة ، وأجابه المتحدث بأنهم في انتظاره ، فخرج الثعلب في لحظات من الغرفة ، وهو يتصبب عرقًا ، ولكن من داخله هذه المرة .. فقد كان لا يعرف سببًا لهذه المقابلة الفاترة ، التي انتهت بعبارات غليظة تخلو من الذوق واللياقة من الطرفين..

* * *

عندما دخل الثعلب إلى العرين للقاء ملك الغابة ، انتابه شعور غريب، فقد أحس أنه لا وجود للأسد به .. كان كبير الضباع يبدو ضئيلًا ، وهو يجلس على عرش ملك الغابة ، ورغم أن العرين كان من الأماكن المألوفة لدى الثعلب ، وطالما دخله مئات المرات على مدار سنوات عمله بالغابة .. إلا أنه هذه المرة لم تتولد لديه نفس الهيبة التي اعتادها .. فالفارق كبير بين أسد وضبع ، حتى ولو سبق اسم الأخير كلمة «كبير» ، التي كان يحرص عليها حرص الأم على صغارها !!!

جلس الثعلب ورسم ابتسامة ثقة على وجهه كالمعتاد ، فهي تزيده اعتدادًا بنفسه ، وتريح محدثه دائمًا ، بينما كان ملك الغابة مترددًا متلعثمًا دون مبرر ..

تحدث الملك باقتضاب عن العمل ، وسأل الثعلب عن حال الجزيرة والقيادة العامة ، وأجابه الثعلب بما يحب الملك أن يسمعه ، لا بما يجب أن يقال.

لم يكن ذلك نفاقًا من الثعلب ، فلم يكن يريد شيئًا .. بل ولن يحصل على شيء ، حتى لو طلبه .. وإنما لمعرفته بأن قول الحقيقة لن يفيد الآن.. فما جدوى أن ينتقد فرس النهر أو الكلب ، أو غيرهما من الخراف ، التي تقود الجزيرة ، بينما القابع أمامه على عرش الغابة ضبع!!!

فوجئ الثعلب بأن ملك الغابة يثني على عمله ، ويخبره أنه باق معهم في العمل بالجزيرة ، وستسند له مهام جديدة في القريب العاجل.. وأضاف أنهم لن يفرطوا فيه لقدراته ومهارته .. وشكره الثعلب بامتنان ، إلا أن هاجس الرحيل كان يلح على مخيلته – من داخله – بشدة ، وشعر بأن نهايته قد أوشكت على الاقتراب ، وكأنه كان يقرأ ما يدور في رأس كبير الضباع .. الذي صار للأسف ملكًا للغابة..

انتهى اللقاء بعبارات ترحيب من ملك الغابة ، من المعتاد ترديدها، عندما تريد أن تصرف ضيوفك ، وهي تبدأ بالتأكيد على شرف اللقاء ، وتنتهي بالتأكيد أيضًا على ضرورة التواصل ، وتكرار نفس اللقاء في القريب العاجل!! فصافحه الثعلب ، وانصرف في شرود غريب متجهًا إلى الجزيرة..

وطوال الطريق ، كان يفكر في عمله الجديد الذي لم يخبره به ملك الغابة، والذي استشعره فقط من نبرة التأكيد على بقائه وما سيسند إليه من مهام جديدة .. ومع ذلك كان يسيطر عليه شعور خفي بأنه سيطرد من عمله ، وسيخرج في صورة مهينة متعمدة ، وأن هذا اللقاء أشبه بجرعة المخدر قبل الجراحة !!

كانت لديه حاسة غريبة.. وكأنه يقرأ طالعه قبل وقوعه بفترة.. وكان هذا الشعور دائمًا ما يصيبه باكتئاب .

عندما وصل الثعلب إلى الجزيرة ، فوجئ بالكلب ينتظره في لهفة ، وظل يلاحقه حتى باب مكتبه محاولًا الاستفسار منه عن كواليس اللقاء .. ولم تشبع إجابات الثعلب المقتضبة فضول الكلب .. فغاب عنه للحظات ، ظهر بعدها أحد القردة ، ليخبر الثعلب بأن فرس النهر يريده فورًا ..

وابتسم الثعلب ، فقد كان على يقين بأن الكلب قد بدأ في دق المسمار الأخير في نعشه ..

كان فرس النهر يبدو أبله ، وهو يستمع إلى رواية الثعلب عن لقائه بملك الغابة .. وانهال عليه بسيل من الأسئلة ، التي تؤكد بلاهته وتثبتها لدى محدثه.. وكان الثعلب يجيبه ، وهو ما زال على حالة الشرود التي لازمته منذ مغادرته العرين.. كما أنه لم يكن لديه ما يقوله ، فاللقاء مع كبير الضباع كان قصيرًا جافا بعض الشيء ، وأثناء الحديث مع فرس النهر كان الكلب يقبع على مقربة منه ، ملوحًا بذيله في شغف .. مقاطعًا كل فترة بتفسير أو تحليل لما يقوله الثعلب عن اللقاء ، باعتبار أن هناك ملامح لمرحلة جديدة ..

وتركهما الثعلب يفسران ويحللان ، فهذا على الأقل أفضل من لا شيء يفعلانه يوميًا.. وخرج شاردًا ليلتقي الخروف ، والذي جاء لاهثًا من مكتبه، وبادر الثعلب بسؤاله عما دار مع ملك الغابة اليوم ..ولم يستطع الثعلب أن يمنع مكره .. فبادره بالرد قائلًا : هل من المعقول أنك لا تعرف ما الذي داربيننا يا كبش الكباش ؟ فابتسم الخروف في دهاء ، لا يليق بفصيلته على الإطلاق ، قائلًا : إنه يعرف بالطبع ، ولكنه يريد فقط أن يطمئن ، وابتسم

للثعلب ابتسامة أخرى بلهاء أعادته لطبيعته مرة أخرى .. ثم توجه إلى مكتب فرس النهر مهرولًا ..

لم يتمالك الثعلب نفسه من الضحك .. وما إن خطا بضعة خطوات أخرى ، حتى قابله أحد الحمير متسائلًا عن سبب هذا الاجتماع المهم الدائر، الآن بين فرس النهر والكلب والخروف ، فأجابه الثعلب ببرود : لا شيء.. كانا يحتاجان - فقط - إلى مسمار أخير لدقه في نعش ثعلب ، فأتى به لهما الخروف!!!

ومضى الثعلب في طريقه ، وتعبيرات وجه الحمار تعكس كم الغباء الذي بداخله ، وتزيدك في ذات الوقت حسرة على مكان حيوي ، يعمل فيه هذا الحمار وأقرانه .. لم تمض ثلاثون يومًا على هذا اللقاء حتى أُقيل الثعلب من منصبه بالجزيرة تمامًا..

كان يومًا حزينًا غريبًا لا ينسى ، تأكد معه لدى الثعلب أن كبير الضباع لا يملك شجاعة المواجهة ، رغم أنه ملك الغابة ، ويبدو أن الصناعة الصينية تفوقت في كل شيء حتى في صناعة الملوك الجدد !!

كان الثعلب في ذلك اليوم ، الذي أُقيل فيه ، يعمل في موضوع مهم .. حتى استغرقه العمل ، وكان متحمسًا له ، فمنذ أن وطئت أقدامه المبنى الجديد للقيادة لم يعهد إليه بعمل ذي أهمية .. كان بالفعل متحمسًا جدًّا ، وكان هذا اليوم هو اليوم الثاني له في مباشرة هذا العمل المهم ، ومنذ أن وصل إلى مقر الجزيرة في الصباح ، لاحظ أن نظرة الجميع إليه مختلفة عن المعتاد ، كانت أشبه بمن يلقي نظرة الوداع على جثمان!!! لم يعر الأمر اهتمامًا، ولعن في سره تلك الحاسة التي لديه ..

قرب الظهيرة ، تلقى الثعلب اتصالًا هاتفيًا من فرس النهر.. تصور الثعلب ، للوهلة الأولى ، أنه يريد منه أن يعرف تطورات العمل والمهمة التي بدأ فيها.. فاسترسل في الشرح، دون انتظار لسؤال فرس النهر ، إلا أنه بعد برهة أفاق على مقاطعة فرس النهر له بعبارة حادة : اترك ما في يدك من عمل، وسلِّمه للكلب .. لقد صدر قرار الآن بإقالتك نهائيًا !!

* * *

كان وقع الخبر كالصدمة .. لم يصدق الثعلب أذنيه ، وظل مشدوهًا شاردًا لفترة طويلة ، كان في قرارة نفسه يشعر أنه لا يستحق ذلك أبدًا .. وإذا كان رأي رؤسائه فيه أنه لا يصلح ، وأرادوا له أن يذهب ويترك الجزيرة .. فلماذا بهذه الطريقة المهينة ؟! ولماذا في هذا التوقيت ، وهو يعمل.. بل وهو منغمس في العمل ؟

عاد الثعلب بذاكرته إلى صباح اليوم ، وتذكر نظرة مرؤوسيه وزملائه له .. إذًا لقد كانت نظرة وداع بالفعل .. لعن في سره مرة أخرى حاسته السادسة، التي تجعله يتوقع الحدث قبل وقوعه ..

عندما عاد إلى الجزيرة بعد أن ترك المهمة التي كان يعمل فيها ، التقى فرس النهر ، وسأله سؤالًا واحدًا في حدة قائلا : ماذا فعلت حتى أترك عملي بهذه الطريقة ؟ .. لن أسألك لماذا تركت ولكن قل لي لماذا بهذا الأسلوب المهين ؟

لم يجبه فرس النهر ، ولزم الصمت ، فلم يكن يعرف .. ولم يجبه الخروف أيضًا ، وظل يحملق في سقف الحجرة .. بينما أطرق الكلب برأسه للأرض ..

ظل الصمت مخيمًا لدقائق ، كان الثعلب خلالها يتمنى أن يسمع جوابا ، بينما الثلاثة الذين أمامه يتمنون مغادرته ..

دخل غرفة مكتبه في هدوء ، وكأنه يسير وهو نائم وأخذ بعضًا من أوراقه وكلف أحد مساعديه بأن يتولى جمع بقية متعلقاته .. قفز إلى ذهنه مشهد الأسد ، وهو يغادر العرين فشعر بأسى .. لم يقو على مصافحة من يعملون معه ، فلحظات الفراق والوداع أصعب شيء على نفسه.. غادر في هدوء ، وكان الخروف والكلب هما اللذان صاحباه حتى باب مقر الجزيرة الخارجي لتوديعه ، وكأنهما كانا يخشيان عودته!! وأرادا أن يتأكدا أنه غادر للأبد ..

تلقى الثعلب اتصالا هاتفيًا من الأسد ، ولم يقو على أن يقول شيئًا فقد تغلبت انفعالاته على عقله ، فصمت تمامًا .. ويبدو أن الأسد قد شعر بمشاعره فلم يقل له كلامًا كثيرًا ..وإنما أعطاه الإجابة التي كان يبحث عنها .

قال الأسد : لا تحزن فمن يتم تكريمه من هؤلاء يكون على شاكلتهم ، وأنت لست كذلك لحسن حظك.. ومن الأفضل ألا تحسب عليهم في تلك المرحلة ، ومن المؤكد أنهم الخاسرون هذا هو أنت وها هو حالك الآن .. وتلك هي ملامح المرحلة الجديدة ، ولمحة من لمحات زمن الضباع الذي ترفضه .. فلا تحزن على خروجك ، فربما يكتب لك نجاح ومجد جديد في عمل آخر ، ولا تنس أنهم لم يأخذوا منك عقلك ولم يعطلوا موهبتك .. فابدأ بها في أي مكان ، وستعود أقوى مما كنت .. ومن أراد بعدك زده بعدًا قدر ما تستطيع.. اجعل الأسد الذي بداخلك يستيقظ مرة أخرى ، وتذكر دائمًا ما قاله الفيلسوف الألماني العظيم نيتشه .. « الأقدار تختار التوقيت للأبطال » .

غادر الثعلب مقر القيادة العامة للجزيرة إلى الأبد في مساء هذا اليوم، ويبدو أنه فضل الخروج في الليل حتى لا يراه أحد.. كان الظلام يلف المكان، وكانت الصحراء القريبة منه تبدو موحشة ، وكان النور الخافت المنبعث من المبنى ما زال يظهر ظلي الخروف والكلب ، اللذين كانا في وداعه ، وكأنهما شبحان مخيفان.. ولم يبتسم الثعلب هذه المرة رغم أنه شعر ، وكأن القدر ينصفه بتركه هذا المكان الموحش ، والذي بدا أشبه بالقبور ..وكأنه عائد إلى الحياة .. إلى النور.. إلا أن المرارة التي كانت تعتصر قلبه منعته من الابتسام..

وسالت دموعه ساخنة على وجنتيه ، ولم يمنعها هذه المرة بل تركها تنهمر.. ومشى بخطى بطيئة متثاقلة متعرجة ، وكأنه كان ينتظر من ينادي بعودته .. ولكن هيهات .. ففي زمن الضباع لن تسمع صوت نداء ، وإنما ستسد أذنيك من شدة العواء ..

وبعد برهة ، ابتعد الثعلب عن المكان واختفى تمامًا في الظلام ، ولم يتبق في خلفية المشهد سوى شبحي الخروف والكلب ، وكأنهما لم يبرحا مكانهما بعد.. وبدا المكان بقعة صغيرة بعيدة ظلت تتضاءل رويدًا رويدًا .. ولم يستدر الثعلب تلك المرة.. بل مضى إلى الأمام .

* * *

10

عرش الطاووس

من عالم الغابة .. من قانون البقاء للأقوى حتى لو تغيرت مفاهيم القوة إلى قوى النفاق والجهل والنفوذ، وبعد أن خفض صوته وضعفت عزيمته، وتجرع مرارة الانكسار ..وبعد أن شعر بألم السقوط المدوي من علٍ .. وبعد أن هوى من مصاف النجوم إلى الأرض .. بعد هذا وذاك انتقل الثعلب إلى المزرعة !

وجد الثعلب نفسه في عالم آخر غريب عليه لم يألفه من قبل ..مكان يعج بالطيور ، بمختلف أشكالها وألوانها وأنواعها .. كبيرهم طاووس وأعوانه ببغاوات ، يرددون خلفه ما يقول كصدى الصوت .. ويقلدونه في كل صغيرة وكبيرة.. لا هدف لهم إلا إرضاءه ، يتندرون بنوادره ويضحكون في بلاهة عندما يتطاول عليهم أو يسخر منهم .

الكل يحاول أن يقلد مشيته وطريقته في الحديث ونبرة صوته المميزة.. فترى في النهاية أمامك مسوخا لا تعرف حقيقتها من كثرة تقليدها للطاووس .. وتتساءل في دهشة مرة أخرى هل تمكنت الصناعة الصينية من إغراق السوق لهذه الدرجة ؟!!

كانت المزرعة تشكل جزءًا حيويًا من الغابة ومورداً مهماً من مواردها ، وكانت تعتبر لدى كثيرين أهم مكان بعد الجزيرة المركزية .. كان الثعلب

سعيدًا بالانتقال للمزرعة فعلى الأقل لم ينكل به كبير الضباع تنكيلًا كبيرًا .. فقد كان يتوقع الأسوأ دائمًا ؛ خاصة أن الغابة بها من الأماكن ، التي لو عمل فيها يومًا واحدًا ، سيكره اليوم الذي ولد فيه.

ورغم أن عمله الجديد سيكون مع طيور داجنة ، لا حيوانات مفترسة، ورغم أن المزرعة تعج بالأرانب والنعاج .. ومع أن هذا المناخ لا يناسب الثعلب على الإطلاق.. إلا أنه قرر منذ اللحظة الأولى أن يعمل جاهدًا على التكيف مع تلك البيئة الجديدة ، فمن المؤكد أنه عالم جديد بالنسبة له ، كما أن المزرعة كانت طوال فترة عمله بالجزيرة المركزية تمثل له أمرًا ما ، فقد كان يشعر أن بها الكثير من الغموض .. وكان سعيدًا أنه سيعمل مع طاووس ، فحتى ولو لم يكن أسدًا في عرين الغابة ، فعلى الأقل فهو يجلس على عرش الطاووس ، وهو قطاع حيوي جدًّا في الغابة ..

دار كل ذلك برأس الثعلب منذ اليوم الأول ، وكان متفائلًا إلى أقصى درجة ، دون أن يدري ماذا يخبئ له القدر في الأيام القادمة .. كان لقاؤه الأول بالطاووس أشبه ما يكون بمرحلة الريبة أو جس النبض ، مثلما يحدث في مباريات الكرة .. وكان كل منهما ينظر إلى الآخر في تحد ، وكأنهما في مناظرة انتخابية..

وبدأت الحاسة اللعينة لدى الثعلب في العمل ، وبدأ هو في مقاومتها .. فلم يكن يريد أن يبدأ عمله الجديد بهاجس غريب ، يظل يتزايد بداخله يومًا بعد يوم ، موحيًا إليه بأنه سيصطدم بالطاووس عاجلًا أم آجلًا..

لم يعرف الثعلب في البداية سببًا لهذا التحدي المكتوم ، والذي تطور إلى غيرة من جانب واحد ..

ربما لأن الطاووس لم يكن يرى سوى نفسه.. أو ربما لأنه اندهش من بريق الثعلب ، وهو الذي لم يتعود بريقًا آخر بجواره ..أو لعله اعتقد أن الثعلب قد ينافسه في إدارة المزرعة ..

لم يستطع الثعلب في البداية أن يصف علاقته بالطاووس ، وإن كان من المؤكد أنها ظلت دائمًا كطرفي مقص ، كليهما مشدود إلى الآخر ، ولكنّ كل منهما في اتجاه .. لقد مل الثعلب من كثرة ترديد هذا التعبير والذي بات ملتصقًا بذهنه كطرفي المقص ذاته ..!

علاقة غريبة .. معقدة.. متشابكة.. ومتوترة دائمًا لا تخضع للقواعد العامة بين رئيس ومرؤوس ، ولا يمكن أن يتوقع أحد ردود أفعال الطرفين فيها أبدًا .. وفي أحيان كثيرة ، كان المشاهد لهما يحتار أيهما يرأس الآخر ، ومن منهما الذي يدير المكان ..؟!

عندما وطأت قدما الثعلب المزرعة لأول مرة ، شعر بألفة غريبة لم يعتدها من قبل.. كان كمن وقع في الغرام من النظرة الأولى ..شعر بود وحب جارف تجاه من يعملون في المكان من طيور .. وبادلوه هم نفس الشعور والمودة .. تجانس رائع ومزيج غريب يصعب تكراره ..كان ذلك الشعور يمثل له أكبر حافز على الإبداع والابتكار في عمله .. ومع ذلك ظل الطاووس هو الاستثناء .. وهو الشذوذ عن القاعدة ، فقد ظلت العلاقة بينهما يشوبها التوتر دائمًا .. ملبدة بالغيوم في أغلب الأحيان لم تتخللها أية علاقة إنسانية بينهما ، أو مشاعر ود من أي نوع طوال فترة عملهما معًا .

كانت علاقة جافة جامدة كالصحراء الجرداء ..كانا أشبه باثنين من جنسيات مختلفة ، التقيا مصادفة في مدينة مزدحمة لا يعرف أحدهما لغة الآخر

.. ثم مر كل منهما من أمام الثاني ، للحظات خاطفة ، في الطريق العام ، فلم يكد أي منهما حتى أن يتذكر ملامح الآخر..

كانا يتعاملان معًا كأنهما أطياف تمر بسرعة دون تركيز ، وكانا يتعمدان مع مرور الوقت ألا ينظر أحدهما للآخر ، وهو يحادثه .. وكأن كليهما يبعث برسالة إلى الآخر من كلمتين «أنا أتجاهلك»!! وقبل أن يدرك الثعلب حقيقة الطاووس ، كان حريصًا في البداية على تنمية العلاقة وتوثيقها ، ولكن في إطار محدد لا تتجاوزه .. إلا أن الطاووس لم يقبل أن تفرض عليه طريقة الثعلب في تحديد إطار العلاقة بينهما..

ومع أن الطاووس كان يبدو راغبًا في تقريب الثعلب منه ، إلا أن الثعلب لم تكن تروقه شخصية الطاووس إلى حد كبير ، وكان يراوده هاجس قوي بأنه أفاق في حقيقته .. إلا أنه كان يطرد هذا الهاجس من ذاكرته حتى لا يظلمه دون دليل ، وظل يحاول أن يعمق الجانب الإنساني بينهما ، على أمل أن يكون بداخل الطاووس أسد حقيقي ، يعادل ما حققه من شهرة ونجاح، واكتشف مع الوقت أن ذلك كله كان دون جذور ثابتة على الإطلاق ، ولا جوهر يتكئ عليه..

كان يتمنى أن يجده أسدًا افتقد الثعلب وجوده ، منذ أن ترك الغابة ، بل حتى قبل أن يتركها بسنوات منذ أن أتى الخرتيت وكبير الضباع للعمل بالعرين .. ومع ذلك كان شعوره بأن الطاووس أفاق يراوده ، من حين إلى آخر ولا يكاد يفارقه ، وهو ما أسهم في فتور العلاقة بينهما .

* * *

مع مرور الوقت وتنوع المواقف ، اكتشف الثعلب أن الطاووس يحمل بداخله أسدًا مزيفًا.. وتأكد أنه يرتدي أقنعة البطولة والشجاعة والصدق أمام دواجن وطيور ، لا أمام أسود حقيقية.. ويوم عرف الحقيقة شعر بجزع .. وتمنى من داخله ألا يكون قد عرفها أبدًا ..

أحيانا كثيرة تصيب المعرفة صاحبها بصدمة وذهول ، يعقبها اكتئاب شديد، ربما لا يخرج منه بسهولة .. وفي أغلب الأحيان ، فإن المعرفة عندما تكون على قدر الحاجة تجعلك تقضي ما تبقى من عمرك في سلام ..ولكن طبيعة الثعلب وغريزة البحث عن الحقيقة ، التي لازمته كظله ، ولم تفارقه وظلت تكبر وتنمو بداخله ، ولم يكن يقاومها أبدًا رغم أنه يدفع ثمنها دائمًا !

سنوات طويلة أمضاها مع الطاووس في وظيفة جديدة عليه تمامًا ، استخدم فيها الثعلب مهاراته القديمة ، واكتسب خبرات جديدة أضافت إلى رصيده المهني الكثير.. حقق إنجازات كبيرة وصلت بالمزرعة إلى مصاف الغابات الكبرى المتقدمة ، وأصبح للمزرعة التي يعمل بها اسم مدوٍّ..

صحيح أن الطاووس كان صاحب الفضل الأكبر والأعظم في ذلك.. حسبما كان الثعلب يردد دائمًا ، وهو الذي أعطى الثعلب تلك الفرصة في البداية ؛ لكي يظهر ثم يصول ويجول .. فمنحه كل الصلاحيات ؛ لكي يكون أسدًا في موقعه ، قبل أن ينقلب عليه ، ويحاول جاهدًا قتل ما تبقى من الأسد بداخله بكل الوسائل المشروعة وغيرها .. إلا أن الثعلب أيضًا ساهم في الحفاظ على استمرارية العمل المزرعة بنفس الكفاءة ، وساعد على توازنها، وقدم الكثير من وقته وخبرته لخدمة مكان ، استقبله بالمودة والورود، فأعطاه الثعلب مشاعره وعقله بلا حدود.

كانت شخصية الطاووس تحير الثعلب كثيرًا ، وطالما توقف عندها بالتحليل والرصد لمرات كثيرة ، محاولًا أن يفهم ويبحث عن الحقيقة.. فالتنقيب في النفس البشرية وخبايا الفكر والعقل إحدى هواياته ، التي تُشعر الآخرين بأنه ثعلب بالفعل ، وترضي غروره إلى حد كبير في آن واحد.

كان الطاووس لا يفعل شيئًا لا يعود عليه هو شخصيًا بالنفع.. لا تهمه مصلحة مزرعة أو غابة .. كان يتصرف على أنه ملك الغابة في مكانه والجميع رعاياه .. وكان يستغل موارد وإمكانيات المزرعة في أعماله الخاصة ، حسبما اكتشف الثعلب مع الوقت ..

كان لا يعلو صوت على صوت الطاووس ، ولا تظهر صورة في المشهد إلا صورته وحده ..

كان الجميع يسبحون بحمده أمامه والغالبية يلعنونه في سرهم ..

في المزرعة ، كنت تستطيع أن ترى القهر والمهانة والنفاق في يوم واحد، وكأنها تسير أمامك على قدمين ..و كنت تستطيع أيضًا أن تتلمس الخوف وتفهم معنى الجزع ، عندما تراه في أعين من يصب عليهم الطاووس جام غضبه.. مع أنه في الحقيقة كائن داجن ضعيف ، يمكنك أن ترهبه وتخيفه بأقل مجهود ، ولكن المرؤوسين دواجن لا أسود ، أو حتى حيوانات مفترسة من أي نوع..

كانت المزرعة واحة للتأمل في تشابك العلاقات الإنسانية الراقية والسامية ، وأيضًا المتدنية مع بعض التركيبات المريضة نفسيًا والمعقدة والكثير من النفاق الوظيفي من أسفل إلى أعلى .. درجات وألوان من التزلف إلى التسلق.. من الذل إلى الهوان ...من الزهو إلى الاستعلاء إلى الغرور .. ثم

الارتداد إلى النقيض عند أول مصيبة .. لحظات نادرة تراها مجسدة أمامك وتحفر في ذاكرتك ، لا يمحوها الزمن أبدًا ، فهي لا تنسى ، وأبطالها مزيج غريب وعجيب ، من الصعب أن يتكرر..

* * *

من الأمور التي كانت تحير الثعلب كثيرًا .. اقتراب الثعابين من أصحاب النفوذ والقيادات في الغابة.. بل الأكثر حيرة أن القائد - في أحيان كثيرة - هو الذي يسعى لكي يكون الثعبان قريبًا منه ، ويمهد له الطريق لذلك دائمًا .. وغالبًا ما يكون القائد هو أول الضحايا ، ورغم أن ذلك أمر بديهي ؛ خاصة إذا ما كنت تعرف من البداية أن من تقربه إليك هو ثعبان سام .. إلا أنه مع ذلك أيضا كان يحدث ، وكأن دروس التاريخ لا عبرة منها !!

أمر طالما رآه الثعلب وحيَّره كثيرًا .. في عهد وحيد القرن ، كان لديه ثعبان، أطلقه عليه كبير الضباع .. وكان وحيد القرن لا يُقدم على أمر إلا بعد استشارته .. وفي عهد فرس النهر ، كان الثعبان الأرقم يحكم الجزيرة تقريبا ، ويكاد فرس النهر يلفه حول رقبته من كثرة ملازمته له ..إلى أن تنبه وأفاق ، فأبعده عن الجزيرة ثم أرسل له من يقتله ؛ حتى لا يعود مرة ثانية بأوامر من كبير الضباع .

والآن ، عندما عمل بالمزرعة مع الطاووس ، وجد ثعبانًا مماثلًا.. وكان الغريب في الأمر بالنسبة للثعلب أن جميع الثعابين تتبع نفس الأسلوب دون تجديد ، فلماذا لا نتعلم ؟! فهل من تم لدغه ، لا يقول للآخرين إنه لُدغ .. هل أصبحنا حتى لا نرى ما يحدث لغيرنا فنتعلم منه ؟

كانت الثعابين تقترب في هدوء ، وبخطى حثيثة ، وتنفث سمومها ببطء .. تكاد ترى الحقد والكراهية في عينيها ، وهما يطلان منها في جحوظ .. غالبية الوقت لا تعمل الثعابين ، بل ساكنة مترصدة تتفحص فرائسها جيدًا قبل الغدر بها.. كان الثعلب يعرف أن الطاووس ، ومن قبله الخرتيت وفرس النهر استخدموا الثعبان للفتك بمن يقترب منهم ؛ خاصة أنهم - في أحيان كثيرة - كانوا لا يريدون قتل غريمهم في البداية ، وإنما إصابته في مقتل لإذلاله فيما بعد وضمان ولائه.. وليكون الثعبان سيفًا مسلطًا على رقبته دائمًا.. يظهر وقت اللزوم ..وكان لدى الثعلب إيمان قوي بأن السحر ، لابد وأن ينقلب يومًا ما على الساحر .. وأن الثعبان لا أمان له على الإطلاق ، مهما أطعمته أو آويته أو حتى أكرمته ، فلا بد أن يلدغك ، ففي ذلك تأكيد لغريزته التي هي سبب بقائه ..

كان الطاووس أحد الحيوانات التي قربت منها ثعبانًا أبيض اللون ، شديد الغدر والكراهية للآخرين.. وقد أضر هذا الثعبان الطاووس أشد الضرر ، وجعله يتخبط في قرارات كثيرة ، بل وأفقده الثقة حتى في أقرب المقربين إليه.. والآن يسعى في هدوء لاقتناص الطاووس نفسه ، الذي هو سيده وقائده ، بعد أن شعر بأن الفرصة مواتية الآن ، ربما لا تسنح له مرة ثانية ..

ولأن الطاووس متفرد ومختلف عن الباقين ، فقد اقتنى في ذات الوقت حية رقطاء ، كان يتباهى بها أمام الجميع ويفخر بأنه الوحيد القادر على ترويضها ، وأن هذا الأمر لا يستغرق منه مجهودًا أو وقتًا .. فلديه كاريزما تروض الأفاعي ، بل والأسود أيضًا إذا لزم الأمر !!

هكذا كان يردد دائمًا ، أو إن شئت الدقة يهذي ..

ورغم أن وجود تلك الحية الرقطاء كان يضر أكثر مما ينفع ، ورغم أنها افترست العشرات من دواجن المزرعة ، الذين حاولوا مجرد المحاولة إبداء الرأي في طريقة عملها .. إلا أن الطاووس ازداد تصميماً على الاحتفاظ بها..

وفي يوم من الأيام عرضت تلك الحية الرقطاء على الثعلب التحالف معها، بعد أن لمست قربه من دائرة صنع القرار بالمزرعة .. رفض الثعلب عرضها وتعامل معها بدهاء .. وإن كان قد أبقى شعرة معاوية بينهما ، ثم لما ضاق بها وبغدرها كشفها في عملها وفي سلوكها كحية متسلقة على استعداد للغدر بالجميع حتى صغارها ، فهي لا ترحم أحدًا أبدًا ..

لم يكن شجاعة من الثعلب بقدر ما كان نفورًا من تلك الحية وبغضًا لها .. ولكنه الغرور مرة أخرى والتقليل من قدر العدو والاستهانة بأسلحته ثلاث آفات تصيب الثعلب دائمًا في مقتل ، ولا يتعظ أبدًا.. فقد أعطاها الفرصة بعدم اكتراثه بها .. أحيانًا يشعر الثعلب أن منافسه أو غريمه لا يستحق أكثر من ذلك ، فيتركه وشأنه دون أن يتنبه له .. فعلها معه الجرو الذي صار كلبًا ، وفعلها معه ثعبان الجزيرة الأرقم وغيرهم من بغال وحمير ، كان يرى الثعلب أنهم مجرد دواب لا عقل لها وقوتها في جسمها ، ونسي أنه دائمًا وأبدًا يعيش في غابة البقاء فيها للأقوى..

* * *

قاومت الحية الرقطاء حتى النهاية ، واستخدمت أسلحتها كأنثى مع الطاووس حتى تمكنت منه.. واستخدمت نفس السلاح مع معاونيه فطوتهم في جيوبها .. وصاروا أتباعًا لها ، رغم أنهم في الأصل متبوعون.. وأظهرت

نفسها أمام الطاووس بمظهرالضحية ، التي يريد الثعلب أن يفترسها ، ويحصل على مكانتها.. فصدقها الطاووس دون عناء .. وعبثًا ، حاول الثعلب أن يشرح للطاووس أن الثعابين والثعالب فصيلتان مختلفتان لا يمكن - بأي حال من الأحوال - أن يلتقيا فهو لا يستطيع أن يعيش في جحر أو زاحفًا بين الحشائش ، ولم يتسلق الأشجار ، ولن يفترس حية رقطاء مهما اشتد به الجوع، فهي لا تروق له ولن يستسيغ طعمها ..

ولكن كل كلامه ذهب أدراج الرياح ، فقد كان الطاووس مهيئًا فيما يبدو من ثعبانه الأبيض ؛ لكي يصدق الحية الرقطاء فيما تدعيه .. ويكَذب الثعلب فيما يؤكده .

وتحالفت الثعابين على الثعلب وصدقها الطاووس ، وحاول أن ينال منه ، إلا أنه لم يستطع .. وإن كان قد ترك به جرحًا غائرًا لا يراه إلا من كان بداخله أسد حقيقي .. فعندما تكون مفترسًا ، ويأتي طائر لكي يهددك فتلك مهانة .. فإذا ما خفت منه بالفعل ، فالموت أولى بك ، واعلم أنك فقدت الأسد الذي بداخلك إلى الأبد .. أما مجرد تعرضك لهذا الموقف ودفاعك عن نفسك أمام من لا يستحق ، فهو ما يجرح كبرياءك ..

وعندما تعرض الثعلب لهذا الموقف ، انقلب وحشًا مفترسًا في وجه الطاووس ، فخفض الأخير أجنحته وهدأ ثم ابتعد ..وإن كان قد ظل يضمر له العداء في نفسه .. بينما أصاب الاكتئاب الثعلب لجرح كبريائه ولضياع وقته وجهده في معارك وهمية مع طاووس .. كان ولا يزال يحاول أن يخدع الجميع كل الوقت ..

لم تهدأ الحية الرقطاء أبدًا .. كانت لا تكل ولا تمل ..أعادت علاقتها بالثعلب .. حاولت الاقتراب منه.. عرضت عليه أن تلدغ له الجميع ليصفح عنها.. وكان الثعلب يعلم أنها لا تفعل ذلك دون مقابل .. كان يدرك أنها لا تتودد له وتظهر أمامه بهذه الصورة الوديعة ، إلا كلما ترددت أنباء قوية عن عودة الأسد .. ومع كل مرة تتكرر فيها تلك الشائعة ، كانت الحية الرقطاء تقترب منه أكثر ، بل أحيانًا كانت تلدغ له بعضًا ممن يضايقونه ، على سبيل إظهار حسن النية وتقديم القرابين ..

كانت تلك الحية الرقطاء تعلم مدى صلة الثعلب بالأسد ، وكانت على استعداد لأن تفقد حتى صغارها ؛ من أجل الاقتراب من الأسد ، والفوز بأي منصب قيادي في الغابة ..

أحيانًا يكون المنصب لدي البعض هو الغاية والهدف ، حتى ولو لم يكن ملائمًا أو مناسبًا . إنها غريزة السلطة والتحكم في الآخرين .. مع الإحساس بالدونية في أي عمل يقومون به ، حتى ولو كان مهمًّا ، ما دام لا يُمكِّنهم من فرض سلطتهم على الآخرين.. وإذا ما تمكنت منك تلك الغريزة وسيطرت عليك ، فاعلم أنها ستفرض عليك سياجًا من حديد ، لن ترى منه شيئا ، ولن تسمع معه إلا صوتك ..

ومع يأسها من الثعلب وغطرسة الطاووس معها ، رأت أن تُقدم على خطوة انتحارية.. تكشف بعضًا من أخطاء الطاووس لكبير الضباع ملك الغابة ، بعد أن علمتها من قربها منه .. فإن أصابت نالت مرادها وإن فشلت فلن يضيرها قطع ذيلها ، فسوف ينمو مع مرور الوقت في مكان آخر .. وقد تحقق لها ما أرادت .. نالت المنصب القيادي ..ونال ملك الغابة من الطاووس .. وأنبه أشد التأنيب على أخطائه الفادحة ..

وظل الثعلب أيامًا طويلةً لا ينام من كثرة ما أرهقه التفكير فيما يجري حوله .. كان يتعجب من ملك غابة ، يرى في اقتراب حية رقطاء منه أمانًا وسلامًا .. رغم أنها لدغت الطاووس أمامه ولديها الفرصة الآن لأن تفعل بالملك الأمر نفسه ..

كان الثعلب يحدث نفسه قائلًا : لماذا لا نتعظ أبدًا ؟! لماذا تتكرر نفس الأخطاء البديهية ، ونتحدث عنها بعد ذلك ، وكأننا في مواجهة خطر من نوع جديد كنا نجهله.. لماذا نُخفي على أنفسنا الحقائق ونستغرق ، ونمعن في الكذب حتى يستغرقنا تمامًا فتُمحى إيجابياتنا ، فلا نترك خلفنا إلا صغائر الأمور كذكرى سيئة لنا.. بينما كان لدينا من الإيجابيات ما يمحوها .. لماذا لا نعترف بأخطائنا ، بدلًا من تكرار الحديث عن نظرية المؤامرة من غابات أخرى ؟! ظل يردد بينه وبين نفسه : إن كل ذلك يحدث لنا ؛ لأن من يحكمنا ليس أسدًا حقيقيًا..

كان الثعلب متعجبا من رد فعل الطاووس مع الحية الرقطاء ، بعد أن لدغته .. فعندما لُدغ الطاووس ، ثار وانفعل وكاد يقتل الحية الرقطاء .. ولكن كل تلك الثورة كانت في غرفة مغلقة .. ظهر فيها الطاووس بمظهر الأسد ، وأدى دور البطولة بكفاءة عالية ، ولكن ليوم واحد فقط ؛ فقد انتهى العرض مبكرًا وسحب الفيلم من دور العرض لرداءته !!

ففي اليوم التالي ، زحفت الحية الرقطاء لمقر عرش الطاووس بالمزرعة، وعند دخولها فرت الدواجن من حولها في ذعر شديد ، مخلفة وراءها ريشًا كثيرًا..حتى الثعبان الأبيض ، عندما علم بقدومها ، أغلق جحره من الداخل حتى لا تصل إليه إذا ما دلها أحد على مكانه ، خوفًا منها أو

تزلفًا إليها.. في هذا اللقاء أجبرت الحية الرقطاء الطاووس على استقبالها، مثلما يستقبل كبار الزوار ، بل وتعمدت إهانته بالإشارة والفعل طوال اللقاء أمام مرؤوسيه ، وكأنها تبعث لهم برسالة ، مفادها هذا هو كبيركم .. انظروا ماذا أنا فاعلة به !!

ورغم أن الثعلب شعر بضيق شديد من هذا الموقف الذي شاء حظه العاثر أن يراه كاملًا .. وود لو أنه استطاع فصل رأس الحية عن جسدها لتطاولها على الطاووس ، فهو في نظره لا يزال رمزًا للمزرعة .. إلا أن ما أخفت حماسه وزاد من ألمه وأسفه على اندفاعه لحماية الطاووس أن الأخير بعد كل ما جرى له من تلك الحية.. زاد من قرب الثعبان الأبيض له ، بل جعله مستشارًا له في جميع الشئون الفنية.. وكأن من يجلس على عرش لا يهدأ له بال ، إلا عندما يدق مسمارًا فيه حتى يتهاوى ، ووقتها يتساءل في بلاهة عن سبب سقوط عرشه.. ويخرج عليك من كانوا يلتفون حوله نفاقًا وتزلفًا ليملأوا آذانك بنظرية المؤامرة وأعداء النجاح ..إلخ ، بينما نحن - أحيانًا - نكون من أشد أعداء أنفسنا..ولكننا لا ندرك ذلك إلا بعد فوات الأوان بكثير..

* * *

في كل مرة كانت العلاقة تتوتر بينهما ، لم يكن الثعلب يقف على السبب الحقيقي وراء ذلك إلى أن عرف أن الطاووس لا يحبه ، وإن كان يحتاجه في العمل فقط .. قال لنفسه : لا بأس أنا أريد العمل فقط !

كان الطاووس مندفعًا في قراراته .. بينما الثعلب متعقلًا..

كان الطاووس متعجلًا .. في حين أن الثعلب كان متمهلًا ..

الطاووس يرى أن قياس نجاح العمل يكون في سرعة اتخاذ القرار بالإعلان عن الاستعداد لإنجاز أمر ما .. بينما يؤمن الثعلب بأن النجاح الحقيقي هو في تحقيق هذا الإنجاز ، بالفعل ، على أرض الواقع ، حتى وإن تأخر بعض الوقت ..

الطاووس دائما كالألعاب النارية تحدث فرقعة ووميضًا مبهرًا للحظات، وسرعان ما تخفت إلى أن تعود من جديد في شكل آخر ، بينما الثعلب - في الأغلب الأعم - كالمهندس يدرس ويُخطط ، ثم يصل إلى العمق أولًا ، وعندها يبدأ في وضع الأساس فيكون البناء متينًا ثابتًا كل الوقت ..

كان الثعلب يعرف أن الطاووس يحتاجه ، فرفض أن يتركه لضمان استقرار المزرعة ، لا لاستقرار عرش الطاووس .. بينما كان الأخير يعتقد أن الثعلب لا مأوى له إلا المزرعة ، فاستغله لتقوية عرشه وتدعيمه ، وعندما علم الطاووس بأن الثعلب قد يتركه ويعود لغابته ، بعد أن ملَّ العمل مع دواجن لا تناسب طبيعته البرية تغيَّر معه تمامًا ، وعاد وديعًا مسالمًا على خلاف طبيعته المتعالية .. ومن كان يراهما معًا في السنوات الأخيرة ، كان يظن أن الثعلب هو الذي يحكم المزرعة ، بينما الطاووس هو أحد مرؤوسيه التنفيذيين !!

دائمًا وأبدًا كانت طبيعة الطاووس وتركيبته النفسية هي التي تتحكم في العلاقة بينه وبين الثعلب صعودًا وهبوطًا..كان الطاووس متعجرفًا فظًا متكبرًا مغرورًا ، بلا حجة أو منطق سوى تسفيه رأي من هو أضعف منه .. فإذا كانت لديك حجة أو منطق ، أو كان صوتك عاليًا ، هابك على الفور أو على أقل تقدير تجنبك ..كان مندفعًا أهوجَ كذوبًا لدرجة أنه يكذب كما يتنفس !.. يقول لك الشيء ونقيضه في آن واحدٍ حتى تحسبه يمزح ، من فرط ما أمعن في الكذب وتمادى فيه..

كان ينسى ما قال ويغير رأيه وفقًا لمصالحه.. ينحني دائمًا وأبدًا مع اتجاه الريح ..ثم يغرقك حتى أذنيك في بحور أكاذيب بطولاته الزائفة ، ومواقفه اللا إنسانية بعد ان أسقط حرف اللام من حروفها الأولى ؛ حتى تبدو على غير حقيقتها .. !! يطيل الحديث عن اعتداده بنفسه ، رغم أنه على استعداد دائمًا لأن يذل نفسه من أجل مصلحته ، وشرطه الوحيد أن تكون مذلته في الظل .. في غرفة مغلقة لا يراها أحد من حاشيته أو رعاياه ، ولا يعلم بها أي مخلوق ..

كان المهم لديه دائمًا أن يظل طاووسًا على عرش المزرعة.. وكان هذا الأمر أحد مسببات الحيرة أيضا للثعلب.. وما أكثرها.. قفزت تلك التساؤلات إلى رأس الثعلب ، فذهب بها إلى الطاووس ، وألقى بها إليه قائلا : لماذا تفعل كل ذلك أيها الطاووس ؟ لماذا تخضع كل هذا الخضوع؟.. وإذا كان بداخلك أسد حقيقي حسبما تقول ، مع أنني أرى أنه أسد مما ينخدع به الجميع لأول وهلة عند رؤيتهم لك.. فلماذا تلجأ إلى كل هذا الزيف وتلك الأكاذيب ؟ فأنت لا تحتاجها على الإطلاق ، بل أكاد أجزم بأنك لو لم تتكلم ، لصرت أقوى وأفضل مما أنت عليه الآن ..! أرجوك أجب ..

ظل الطاووس صامتا لبرهة ، وهو ينظر إلى الثعلب في خبث ، وكأن كل تلك الإهانات التي وجهها له الثعلب لم تحرك ساكنا بداخله .. ثم أردف ببرود عابثا ببعض الأوراق الملونة على مكتبه : أنت قلت الآن ، لو لم تتكلم لصرت أقوى وأفضل .. وأنا رأيت العمل بنصيحتك الغالية .. وسألتزم الصمت!!

عاد الثعلب يسأل في حدة ، بعد أن نجح الطاووس في استثارته ببروده: لماذا تتغير وتتلون وتتراجع دائمًا وأبدًا بسرعة الصاروخ ، رغم ما لديك من

مقومات شخصية ؟ ولماذا تمارس دور الأسد على رعاياك ، بينما على الآخرين لا تكون سوى نعامة ؟! هل كل ما لديك من مقومات هي مقومات مصطنعة؟ أم أن من حولك يجهلون حقيقتك إلى هذه الدرجة ؟

حقيقتي ؟! قاطعه الطاووس بهذه الكلمة ، ثم استرسل: إنك جاهل بشعبيتي ومحبة حيوانات المزرعة لي .. الجميع هنا يحبونني ، ولا يتصورون قائدًا لهم سواي .. لا تجعل خيالك يصور لك أوهامًا ، فتصدقها وتتخذها مقدمات لفكرك ، فتفاجأ بنتائج ، لم تكن في حسبانك قط ، ووقتها لن تنجو من سخرية الجميع من أفكارك.. فما دمت تحب الظهور بمظهر الفيلسوف الواثق من نفسه ، والذي يفيض بالحكمة كلما تحدث ، فيجب أن تعلم أنك عندما تخطئ ستحاسب بشدة مهما كان خطؤك يسيرا..

لم يهتز الثعلب أمام محاولات الطاووس زعزعة ثقته بنفسه ، فقال : صحيح أن هناك بعضًا من رعاياك يحبك ويصدق ، ولكن ما حال الباقين ، وهم أغلبية ولا يحبونك .. فهل هم جميعًا أصحاب مصلحة؟! أم أن الجهل استشرى في مجتمع المزرعة ، ومن قبله في الغابة ، إلى درجة أفرزت لنا مثل هذه النوعيات المزيفة مثلك فأصبحنا نفرح بها مثل فرحة الطفل بالدمية المزركشة ، والتي تحدث أصواتًا كثيرة وعالية ؟.. فإذا ما مللنا منها أو غيرت الشركة المنتجة النموذج إلى آخر أكثر إبهارًا ، ألقينا بما معنا وذهبنا إليه !! هذا هو حالك ، وهذا هو رأيي في شخصيتك..

لم يجبه الطاووس وتركه وحيدا بحجرة العرش المبهرة بألوانها وزينتها، وانصرف غاضبًا كعادته ، عندما لا يجد ردًّا حاضرًا بذهنه ؛ إذ يصطنع الغضب ؛ ليستخدمه كدرع واق من هجوم الآخرين عليه .

وخرج الثعلب من عرش الطاووس واجمًا مكتئبًا ، وهو مقتنع بأن الأفاق يستطيع أن يخدع كل الناس بعض الوقت ، أو بعض الناس لكل الوقت ، ولكنه في جميع الأحوال لا يستطيع أن يخدع كل الناس كل الوقت ..

ولكن السؤال الآن : هل هناك غيره لم ينخدع بعد ؟! وهل هناك من اكتشف الحقيقة وسكت عنها؟؟ هل بات صوت الحقيقة أضعف من أن يسمع ، مع ضوضاء الباطل وطبول النفاق وأنغام المصالح ، والماكينة الإعلامية الرهيبة ، التي سخرها الطاووس لخدمته ، بعد أن عرف ثمنها فدفعه من رصيد المزرعة ..أم تحولت الغالبية إلى شيطان أخرس ؟! يبدو ذلك...!

* * *

كان الثعلب في بداية عمله مع الطاووس معجبًا بحماسته لإنجاز مشروعات كبرى طموحة ، تعود بالنفع على المزرعة والغابة ، وشارك الثعلب معه في تحقيق هذا الهدف ، إلا أنه اكتشف بعد وقت قصير أنها حماسة مزيفة كابتسامة النجوم ، مع من يرغبون في التصوير معهم !!

اكتشف الثعلب ، مع الوقت ، أنها حماسة لتلميع صورة الطاووس ..حماسة ظاهرية دون عمق .. حماسة لا تقوم على علم أو معرفة .... حماسة أشبه بشعارات جوفاء مثل تلك التي كان يرددها الخرتيت ، ومن بعده كبير الضباع هدفها وسائل الإعلام لخلق صورة جميلة لقائلها .. صورة البطل القومي الذي لديه الحل في أي وقت ..صورة المنقذ والملهم .. حماسة تلعب على عواطف المستمع ، ولكنها لا تخاطب عقله أبدًا ..

كان الثعلب يرى دائمًا أن الحماس يعني في بعض الأحيان الرغبة الصادقة ولكنه كثيرًا ما لا يعني المعرفة الحقيقية بالأبعاد المختلفة للهدف المراد تحقيقه.. ورأى أن يكتب مقالا صحفيا ، يعبر فيه عما يجول بخاطره بشأن الحماس والمعرفة .. فأحضر ورقا وقلما وكتب ما يلى :

« إن الذين لديهم المعرفة والعلم غالبًا ما يجدون صعوبة في إقناع الذين يستولي عليهم الحماس .. ورغم أن المعرفة أبقى وأكثر نفعًا من الحماس ، إلا أن الأخير له دائمًا في البداية بريق أقوى ووهج أعظم ، تجري وراءهما وسائل الإعلام.. ويسهل على المنافقين استخدامهما لوأد المعرفة والعلم في مهدهما..

والحماس في أيامنا هذه أصبح بضاعة رائجة ، حتى ولو لم يكن له أساس من العلم والمعرفة ، فلا أحد في الغابة يحاسبك على ما تقول ، بل ليس مهمًا ما تقول ، بقدر الكيفية التي تقوله بها ! فكلما استخدمت واخترت عبارات رنانة تدغدغ بها مشاعر مستمعيك من الجهال والسوقة والدهماء ، زادت شعبيتك ، وازدادوا هم تصفيقًا وتهليلًا لك ..

ورغم أن المعرفة أبقى وأكثر نفعًا من الحماس والصخب الإعلامي المصاحب لها.. إلا أن الواقع كان مختلفًا تمامًا في المزرعة ، كما كان أحيانًا في بعض جنبات الغابة ... فقد دفعنا الحماس كثيرًا نحو مشروعات ، قرر الطاووس تنفيذها بالمزرعة ، وكانت المعرفة تبدي بشأنها الكثير من التحفظات ، واكتشفنا الأخطاء بعد فوات الأوان.. ففقدنا الحماس ، ولم نستمع لصوت المعرفة ورأي العلم من البداية ، فدفعنا في ذلك ثمنًا باهظًا ، ويبدو أننا سنظل على هذا الحال ..» .

ثم وقع باسم مستعار أسفل المقال ، فلم تكن لديه المقدرة الكاملة بعد على قول الحقيقة أمام الجميع .. إذ كان يبدو أن الأسد الكامن بداخله لا يزال في أطوار النمو الأولى .. كان الثعلب يرى أن العمل بالمزرعة بحاجة لأن نبني حماسنا له على معرفة حقيقية وسؤال أهل العلم والخبرة ، لا أن نبني الحماس على أساس من عاطفة ، أو طمعًا في شهرة ، أو إطالة البقاء في منصب.. وكان يرى أن في سؤال أهل الثقة وحاشية النفاق بداية النهاية لأي مسئول ..

كان الثعلب مؤمنًا بعدم الهرولة وراء رغبة جارفة لتحقيق إنجاز ، لم تكتمل مقوماته بعد..

وكان مقتنعًا بأن الحماس والانفعال والرغبة في الشهرة ، على حساب المصلحة العامة ، يحول دون الإنصات لصوت العلم ونداء المعرفة ، ويفتح الباب واسعًا لدخول المنافقين وأهل الثقة وحاشية السلطان ..

وللأسف ، كان الطاووس من هذا النوع المتحمس لاسمه ولصورته ، حتى أصبح ينسب لنفسه - في السنوات الأخيرة من إدارته للمزرعة - كل نجاح وإنجاز فيها .. ربما كان هو نفسه في أغلب الأحيان من غير المتحمسين له في البداية ، أو كان لا يدري عن أمره شيئًا ، فإذا ما نجح وأصبح له دوي، نسبه لنفسه وأزاح - من حوله - من قاموا به فعلًا ؛ ليصبحوا خارج إطار الصورة، فلا يظهر بها سواه.

أما إذا ما فشل أو أخفق هذا الأمر .. فإنه يلفظه كابن غير شرعي.. وتنعقد مسئولية الآخرين عنه ، فهم الذين فشلوا وعجزوا عن تحقيق أهدافه ، وفهم رؤيته وتطبيق أفكاره.. ! إنها آفة كل غابة أو مزرعة أو إدارة ، لا يقودها أسد حقيقي ، وما أكثرهم هذه الأيام ..

كان العمل مع الطاووس أشبه بالسير ك وكان الطاووس يتعمد أن يكون هو اللاعب الأوحد ، الذي يعتمد على شد انتباه المتفرجين والتحكم في مشاعرهم ، والعبث بأعصابهم طوال فقرات العرض ؛ حتى يحسبوا التافه من الأمور أخطرها .. وكان إذا أراد أن يعطل عملًا لا يروق له أن ينجزه، فيشكل له لجنة وما أدراك ما اللجنة.. فهي مجموعة من الأشخاص غير الصالحين للعمل .. غير المنسجمين مع بعضهم البعض .. اختارهم شخص غير راغب في العمل ؛ لأداء أمور ، لا ضرورة لها من وجهة نظره !!!

* * *

كان اليوم محددًا لخطبة العرش التي يلقيها الطاووس سنويًا ؛ احتفالًا بعيد جلوسه ، وكانت الطيور كلها قد تجمعت منذ الصباح الباكر ، واتخذت أماكنها بالصفوف الأخيرة بفناء المزرعة الأكبر ، الذي كان مقرًا دائمًا للاحتفال، بينما كانت الصفوف الأولى تحتلها الحيوانات المفترسة ، والوحوش الذين دعاهم الطاووس للحضور .. فقد كان يتباهى ويتفاخر دائمًا بأن أصدقاءه مفترسون، لا طيور داجنة أو خنازير مما تعج بهم المزرعة ..! جلس الثعلب في الصف الثاني بحكم أنه مصنف كحيوان مفترس ، وظل يستمع إلى خطبة العرش باهتمام .. فقد كانت مختلفة عما سبق بكثير ..

كان يحلو للطاووس – دائمًا وأبدًا – في عيد الجلوس أن يروج لأسطورة، تقول إن الأسود غابت ..خرجت ولم تعد .. حتى ماتت.. ولم يبق إلا هو!! وكان في كل مرة يُضيف إلى القصة المختلقة فصلًا ؛ حتى باتت الأسطورة من كثرة ما رددها ، ومن خلفه أتباعه أقرب إلى الحقيقة بعد إعادة تدويرها إن جاز التعبير .. !! واعتقدت الحيوانات ، وصدق الكثير منها – للأسف – أنه لا أسد بعد اليوم في مملكة الغابة ، وأن عرش الطاووس فقط هو الذي سيبقى ..

وفي عيد الجلوس في هذا اليوم ، كان الطاووس يريد أن يخلِّد نفسه كأسطورة ، لن تتكرر ، بل أكثر من ذلك كان يريد أن يمحو أسودًا جاءوا قبله.. حكموا غابة لا مزرعة كما هو حاله.. ورغم أنه كان من الممكن أن يكون أسطورة في مزرعته .. إلا أنه - فيما يبدو - اختار أن يظل أكذوبة بأفعاله ورعونته .. لقد سولت له نفسه أن الطاووس - في الأصل - كان ملك الغابة .. أساس الحكم.. امتداد المُلك لعرش الطاووس من بعد عرش الأسد .. فروى - في أكذوبته - أن الأسد تولى عرش الغابة في غفلة من الزمن ، فلم يكن هناك طاووس ينافسه ، وأضاف أن الأسد عندما بدأ في تشييد أركان الغابة وإعلاء شأنها ، فقد جمع حوله بطانة من الفاسدين..

وأن أول وآخر ما عُني به ، هو أن تكون الغابة آمنة ، تستطيع أن تحمي حدودها على حساب بنية الغابة التحتية أو تنمية مواردها.. فقد كان يخاف على عرينه فقط ..!

وكان الطاووس زاهيًا بنفسه ، وهو يقول : وكان لابد بعد ذلك أن يتفرغ الأسد إلى تأمين الغابة من الداخل من حيوانات ، بعضها له وزنه ، وإن كان أغلبها لا يملك من أمره إلا طعامه وشرابه ، فاختار الحمير الوحشية للدفاع عن أمن الغابة الداخلي ، وعهد إلى البغال بمكافحة الشغب ، ونشر قواته في كل مكان .. هذا هو كل إنجاز الأسد.. قالها الطاووس ، وهو يرمق محدثيه بنظرة ترقب وبمخارج ألفاظ ونبرة صوت ، توحي إليك إن كنت أجوف أنها الحقيقة المطلقة !!!

رشف الثعلب رشفة من قدح القهوة الذي قدمته إليه سلحفاة فجاء باردًا! وظل يستمع إلى أسطورة الأسد التي يرويها الطاووس ، وهو يرمقه

بنظرات صارمة ووجه متحجر .. ظل الطاووس يؤكد أن غياب الأسد سيطول للأبد ؛ فلن يعود أبدًا ..

ومع كثرة اختفاء الأسود يومًا بعد يوم ، عن غابتنا ، ومع تكرار الطاووس لتلك الأكاذيب التي لا تنتهي في خطبته ، ساور بعض الرعية الشك أنه لا بد وأن ما يردده الطاووس صحيح .. وأن الأسد قد أصابه مكروه بالفعل، ولن يظهر بالغابة على الإطلاق .. حتى صدقوا الطاووس بأن الأسد قد مات ..

وكان لظهور الخرتيت بالطبع ، ومن بعده كبير الضباع واللذين كانا يتصدران الصف الأول اليوم ما أسهم في ارتفاع أسهم الطاووس ، على الأقل ، لدى أتباعه من حيث صدق أكاذيبه ؛ مما شجعه بعد ذلك على التطاول على أسود ، حكموا قبله غابات كثيرة.

مال الثعلب على أذن ديك أسود يجلس بجواره ، قائلًا : من المؤكد أن غياب الكبار والأسود الحقيقية يسهم بقدر كبير في ظهور الهوام والنكرات ؛ فأومأ له الديك بالإيجاب في أسى ..

جال بخاطر الثعلب أن تدني أوضاع الغابة واستقرار المزرعة بالمقارنة بها قد ساعد الطاووس أيضًا على ترويج أكاذيبه بسهولة .. بل أكثر من ذلك كان إعلانه انتهاء عصر الأسود ، وأن الطيور – وهو على رأسها – سوف تحكم الغابة كلها في القريب ، بات أقرب إلى التصديق..

مضت الخطبة رتيبة لفترة .. وفجأة ألقى الطاووس مفاجأة من العيار الثقيل ، عندما أعلن أنه اكتشف وفاة الأسد.. وصدقه الكثيرون ، بل إن أعداءه حتى اتفقوا معه ، ولم يعارضوه مثلما كانوا يفعلون معه دائمًا.. وضج الفناء بالتصفيق حتى كاد يبلغ عنان السماء ، عندما قال الطاووس بصوته المميز أثناء ترويجه لأكذوبته : ولسوف يدهش البعض الآن ، عندما يسمعني

أقول لكم إن الأسد عُثر عليه ميتًا عند حافة النهر ، وأن روايات كثيرة قيلت عن موته .. إلا إنني أرجح أن الوفاة طبيعية لانتهاء السلالة تمامًا ، فلن تعود ثانية .. ولن يحكمنا أسد مرة أخرى..!

عاد التصفيق مرة أخرى وصدقه كثير من الحيوانات ، بعد أن أكد لهم أن لكل مخلوق نهاية..ولكنه نسي أن حتى الأكاذيب لها نهاية.. ونهايتها صدق يكشف عنها الغطاء.. فتفوح رائحتها وتُزكم كل الأنوف ؛ فقد كان يحلم باليوم الذي تموت فيه الأسود وتسود فيه الطيور ، ولكن الأسود لا تُقتل بأحلام الطيور.

وشعر الثعلب أن الطاووس قد يتمادى ويعلن نفسه ملكًا للغابة على عرش الطاووس ، فبدأ يتأهب للمواجهة ..وهو لا يعلم سببًا لهذه القوة الكامنة به، والتي باتت تدفعه يومًا بعد يوم نحو إخراج الأسد من داخله .. ولكن الطاووس تراجع في آخر لحظة ، فقد رأى أن ينتظر موت الأسد الحقيقي لا أسد أكذوبته التي يروجها ؛ حتى يُعلن نفسه ملكًا للغابة..! خاصة أن كبير الضباع كان لا يزال حاضرًا حفل عيد الجلوس .. ولن يروق له الحديث إلى هذا الحد ..!

كان الثعلب مؤمنًا بأن الأسود لا تموت أبدًا ..كان واثقًا في نفسه ، وفي الأسد الذي بداخله .. وكان يعمل جاهدًا على كشف حقيقة الطاووس ، وأن الأسد الذي بداخله ليس أسدًا حقيقيًا.. بل ليس أسدًا على الإطلاق .. ظل الثعلب يفتش عن الحقيقة حتى أعيته الحيلة.. وأراد القدر أن يكون رحيمًا به ، فلم يطلعه على الحقيقة كاملة.... ولكن الثعلب لم يكن رحيمًا على نفسه ، فلم ييأس ، وكلما فشل في البحث بدأ من جديد.. يظل ينقب

ويفتش.. ويجهد نفسه في البحث والجري وراء الحقائق ، واستنباط الدلائل، ومع إصراره تحقق له ما أراد .. واستجاب له القدر !!

كان يومًا مفزعًا عندما دخل الثعلب دون استئذان إلى عرش الطاووس، بعد نهاية الاحتفال بعيد الجلوس إلى جناحه الخاص ، الذي لا يرتاده إلا المقربون ، والذين لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد الواحدة .. وهاله ما رأى .. لم يكن الطاووس طاووسًا كما تصور الجميع ، بل كان ببغاء ملونًا ضئيل الحجم ، تلتف حوله طيور الحاشية ، يلفونه بالريش الملون والورق المقوى ، ويركبون له أجنحة ضخمة ليحلق بها في الأفق ، ويختال في مشيته ؛ ليبدو طاووسا زاهيًا يبهر الناظرين.. يا لها من صدمة مروعة !!

لحظات مرت كالدهر ، عندما التقت نظراتهما الممزوجة بالدهشة.. المفعمة بالخجل والتوعد ..المغلفة بالاحتقار .. المثقلة بالخجل والانكسار .. لحظات طويلة لم يتخللها إلا الصمت .. كانت لا تحتاج إلى تعبير أو شرح ؛ فالصورة أحيانًا أبلغ من ألف كلمة وأقوى تأثيرًا..

تيبّس كل منهما في مكانه حتى مرت تلك اللحظات العصيبة ، واكتفى كل منهما بالصمت تعبيرًا ..

وغادر الثعلب عرش الطاووس شاردًا مصدومًا ، فلم يلحظ أنه يدوس بقدميه الريش الملون المتناثر في أرجاء الغرفة ، وكأن القدر يعلن أن عصر الطاووس قد انهار ، وهوى حتى داسته الأقدام..

وغادر الثعلب المكان وفي أذنيه عبارة واحدة تتكرر دون توقف :

« لا أحد يستطيع أن يخدع كل الناس.. كل الوقت .. »

* * *

11

في مواجهة الديناصور

ظلت العلاقة بين الثعلب والطاووس متوترة ، ولم تفلح جميع المحاولات لإصلاحها ، رغم أن تلك المحاولات لم تكن من أطراف خارجية ، بل كانت نابعة منهما ، وإن كان الفتور هو السمة الغالبة على محاولات الثعلب.. صحيح أن الثعلب كان متحفظًا بعض الشيء في محاولاته ، وكأنه من داخله يرفض ما يقبله ظاهره ، وصحيح أن محاولات الثعلب كانت الأقل ودائمًا على استحياء ربما لشعوره بأنه يحتقر الطاووس من أعماقه ، فلم تتعد محاولاته أصابع اليد الواحدة حتى باءت جميعًا بالفشل ..

كان الطاووس ، بعد أن انكشف أمره ، وظهر زيف الأسد الذي ادعى وجوده بداخله ، قد ظل يكابر ويعاند ، ثم حاول في النهاية أن يقنع الثعلب بأن ما رآه لا يعدو أن يكون استعدادًا لتصوير فيلم وثائقي عن حياته ، وأنه كان يمزح مع طاقم موظفيه ، عندما شاهده الثعلب على هذه الصورة بغرفة العرش.. ولكن الثعلب لم يصدقه ، وإنما زاده ذلك التبرير احتقارًا للطاووس، وودَّ لو أنه أسند إحدى ساقيه على حائط ، وارتكز بالأخرى على الأرض ، وبال على الطاووس..!

ورغم أن الثعلب لم يكن متوازنًا مع نفسه في محاولات الإصلاح ، فلم يكن لها مبرر منطقي ، إلا أنه كان يقوم بها ، ربما تمسكًا بوظيفته بالمزرعة ، فقد كان في تلك الفترة يخاف من المجهول أكثر من أي وقت مضى .. ولكن من المؤكد لشعوره بأن المزرعة تستحق البقاء والاستمرار في العمل.

ورغم تقلب الحال وتوتر العلاقة ، إلا أن الثعلب استمر في عمله ، ربما لأنه أحب المكان وعشقه.. أحب العاملين فيه ومعه ..أحب رؤيتهم كل صباح .. كان يشعر براحة نفسية ، لم يتعودها في أي مكان عمل فيه من قبل ... كان – وهو الغريب عن المكان ، بحكم طبيعته ، وبعده عن أعمال المزارع وإدارتها – يشعر بأنه موطنه الأصلي.. مصدر سعادته ونشوته ..كان بداخله شيء يدفعه دائمًا لأن يتروّى كثيرًا ، قبل أن يتخذ قرارًا بترك المكان ، في كل مرة يضيق فيها بالطاووس وأفعاله.

شعور غريب ظل ينتابه من أول يوم حتى النهاية .. شعور بالنشوة والصفاء ، لم يجد له تفسيرًا منطقيًا ، وإنما عاطفيًا ، ربما لأن العاطفة تخالف المنطق في أحيان كثيرة ..وكان دائمًا ما يرتاح إلى هذا التفسير الأخير ويسير وراءه في أغلب الأحيان.

ذات يوم ، استدعاه الطاووس على وجه السرعة .. فدخل عليه في غرفة العرش ، فوجد أوداجه منتفخة ، والدم يوشك أن ينفجر في عروقه من شدة الغيظ والغضب ..فاندهش الثعلب .. ولكن اندهاشه لم يطل كثيرًا ، فقد كان الطاووس رغم خيلائه وزهوه بنفسه يتحدث بسرعة ، وينفعل بمبالغة مثل المدفع سريع الطلقات ، الذي لا تتمكن أبدًا من إحصاء عدد الرصاصات، التي قد تخرج مع أول ضغطة على الزناد ، حتى لو كنت تركز مع صوت إطلاقها.

الأمر نفسه مع الطاووس ، لا يمكن أن تخرج منه بجملة مفيدة كاملة ، حتى إذا ما أصغيت إلى حديثه حتى نهايته ، دون مقاطعة .. بل أحيانًا ، فإن مقاطعتك له تُعيده إلى الصواب ، وتجعل كلامه مفهومًا ، بعد أن يستعين ببعض عباراتك ، ويسكن لطريقة تفكيرك وترتيبك لأفكارك التي قاطعته بها ..

كان حديث الطاووس هذه المرة مفجعًا ، فقد أخبر الثعلب أن الديناصور الذي ظهر بالغابة منذ سنوات قليلة ، وأصبح من أقرب المقربين لكبير الضباع، يرغب في شراء المزرعة بالكامل ، وفصلها عن ولاية الغابة وتطويرها ؛ تمهيدًا لبيعها!!!

دهشة الثعلب وجزعه كادا يكونان ملموسين من شدة ما جحظت عيناه، وترقرقت فيهما الدموع .. تدافعت الأسئلة إلى رأسه تدافع البشر في يوم الحشر.. بيع المزرعة ؟! إعادة تطويرها ؟! ديناصور يرغب في الشراء ؟! من أين أتى هذا الديناصور ؟ المفترض فيه أنه قد انقرض.. ومتى وكيف عاد ، وظهر بهذه القوة ، وما مصدر هذه القوة ؟! ولماذا المزرعة دون غيرها من بقاع الغابة وأحراشها ؟ هل لأنها أجمل بقعة في الغابة ؟ أم لأن لها قيمة تاريخية ؟ أم لأنها أكثر بقاع الغابة إدرارًا للموارد ؟!

انهال الثعلب بأسئلته على الطاووس ، فلم يجد لديه جوابًا لا شافيًا ولا حتى معديًا!! فقد طلب منه الطاووس أن يتصرف فورًا ويرفض هذا الأمر ..هكذا ببساطة شديدة ، ثم تفرغ للزهو بنفسه - أمام المرآة - بعد أن ارتاحت قسمات وجهه ، واطمأن باله إلى هذا الحل العبقري .. وظل واقفًا في خيلاء أمام المرآة متأملًا ريشه الزاهي ، وكأنما أدى دوره ، وأزاح بذلك

عبئًا ثقيلًا كان يحمله على كتفيه ، فراح يتأملها بعد أن أصبحا بلا مسئولية!! ولو أنه أدرك حقيقة ما فعل .. لعلم أنه قد ألقى بأمانة ومسئولية ، كان يتعين عليه أولًا أن يحملها ..تلك هي مصلحة المجتمع ، الذي أنابه عنه ليرعى مصالحه، ويدافع عن موارد المزرعة ، ويحافظ عليها صحيح :

«لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي»

* * *

أُصيب الثعلب بإحباط شديد ، استغرق منه وقتًا طويلًا ؛ حتى يخرج منه ، وبدأ يعيد ترتيب أفكاره بهدوء. بعد قليل ، وصله خطاب رسمي من مكتب الديناصور ، يعرض فيه وجهة نظره لشراء المزرعة وتوزيع العائد على طيورها ، ونقلهم للغابة بعد بيعها لتنشيط حركة التداول العقاري ، واستثمار موارد الغابة ، مع إعادة توظيفهم وتأهيلهم لدور جديد بداخل الغابة ..

كانت صياغة الخطاب محبوكة ..دقيقة .. قوية ، وبطريقة أشبه بمن يضع السم في العسل ، وباستخدام كلمات الحق التي يراد بها باطل دائمًا .. كما لم يخل الخطاب أيضًا من السخرية من الشعارات الوطنية والتمسك بالمفاهيم القديمة البالية ، والتي وصفها الخطاب بأنها قد عفا عليها الزمن ، مثل : «المزرعة جزء من تاريخ الغابة وتراثها ، الذي لا ينبغي التفريط فيه أو بيعه .. إلخ» ، ولم يفت الديناصور أن يخاطب الحيوانات بغريزتهم الأساسية ، وهي حب البقاء والوعود بالاستقرار والرخاء بعد البيع .. ورغم كل ما حواه خطاب الديناصور من حجج للبيع ، إلا أن ما استوقف الثعلب في ذلك كله كان غير موجود بالخطاب.

لماذا المزرعة ؟ ولماذا الآن ؟ وما صلة الديناصور بها ؟؟ ولديه الغابة واسعة ، وهو يفعل فيها ما يشاء بالفعل ؛ حتى كاد يتملكها لا أن يشارك في حكمها فقط !!

تذكر الثعلب رأي الأسد في المزرعة ، وأنها من أكثر القطاعات التي تدر دخلًا قوميًا للغابة ، وأنها قطاع ناجح بكل المقاييس ، حتى في العهود التي مُنيت فيها بإدارة فاشلة ، كانت المزرعة ناجحة بطبيعتها ومواردها.. وشرد حزينًا يفكر في أن الأسد لو كان موجودًا بيننا الآن ، ما جرؤ الديناصور حتى على مجرد التفكير في بيع المزرعة ، بل ربما ما ظهر أصلًا مرة أخرى ..

ظل الثعلب يفكر حتى أعياه التعب ، فراح في سبات عميق على مقعده بمكتبه ، ورأى فيما يراه النائم أن الديناصور يقسم المزرعة أجزاء ويبيعها بالقطعة ، فصرخ بصوت جهوري: أين الأسد ؟ وظل يكررها مرات كثيرة في وجه الديناصور.. وفجأة شعر بيد أحد مساعديه ، تهزه برفق ، ويبتسم له في حنو كي يُهدئ من روعه..

كان الثعلب يتصبب عرقًا ويركز بصره إلى لا شيء ، ونظر إلى وجه مساعده، وكأنما يطلب منه العون والمساعدة على الديناصور ، فوجد مساعده يبتسم بلطف ويطمئنه .. ورغم بركان الغضب الذي بداخله ، فقد رضخ أمام تلك الابتسامة وهدأت نفسه .. إلا قليلًا.

* * *

دق جرس الهاتف بمكتب الثعلب .. جاء على الطرف الآخر صوت رقيق ناعم ، يصلح لأن يكون للمهمة شاعر رقيق أو رسام مبدع ، أو على أقل

تقدير هو من الأصوات ، التي ترسم على وجه محدثها ابتسامة بلهاء ، مع لمعة وبريق في العين ، لمجرد سماع هذا الصوت الملائكي..

بعد لحظات ، أفاق الثعلب من أحلام اليقظة مع هذا الصوت الناعم على صوت غليظ أجش مختلط بأنفاس متقطعة ، وكأنها تُخرج ألسنة لهب من أنف المتحدث !!!

كان صوت الديناصور على الطرف الآخر ..وفي عبارات قليلة مقتضبة، أخبره الديناصور أنه في انتظاره هذا المساء بمكتبه بأقصى الغابة في منطقة الأدغال .. وبعد أن حدد الديناصور الموعد والمكان ، أغلق الهاتف دون انتظار رد الثعلب ، وكأنه كان يلقي عليه أوامره .

ظل الثعلب للحظات شاردًا ساكنًا ، كأن على رأسه الطير ، ثم ابتسم في مرارة ..

إن الديناصور يتحرك بأسرع مما يتوقع الجميع ، وبخطًى ثابتة قوية تسانده قوى الشر .. والمواجهة اليوم شبه حاسمة ، والجولة الأولى دائمًا ما تعطي دفعة .. قد يكون من الصحيح أن خسارتها لا تعني خسارة المعركة كلها ، ولكن الفوز بها يعطي تقدمًا بفارق واسع من البداية ، وكان على الثعلب أن يستدعي الأسد الذي بداخله .. ولكن للأسف الأسد لا يأتي هكذا ببساطة وفجأة ، أو عند الطلب .. فالأمور ليست بهذه السهولة أبدًا ، والشجاعة تكتسب وتتكون مع مرور الوقت ، ولا تظهر فجأة ، وإلا تحولت إلى هيستريا لن يصدقها أحد .. وقد تنقلب إلى فوضى عارمة ..

جاهد الثعلب لاستدعاء الأسد من داخله مرة أخرى ، ولم يفلح واجتهد ، وظل يحاول ، ولكنه من شدة الانكسار والإحباط ، خرج من أعماقه أسد غير

مكتمل النمو ، لن يصمد طويلًا أمام ديناصور ومئات الضباع.. وحتى لو جاء الأسد مكتملًا شجاعًا .. ففي أغلب الأحيان الكثرة تغلب الشجاعة..! هكذا حدث نفسه.

* * *

في الموعد المحدد أو قبله ببرهة قليلة ، كما هي عادته ، وصل الثعلب إلى موطن الديناصور في أدغال الغابة .. كان المكان موحشًا وكئيبًا .. تذكر الثعلب أنه طالما مر على هذا المكان من الخارج ، ولكنه لم يدخله أبدًا ، بل كان يعتقد حتى وقت قريب أنه مكان مهجور ؛ فقد كان مظلمًا دائمًا .. ولم يدر ببال الثعلب أنه تم تصميمه بهذه الطريقة ، عن عمد ، فقد كان الضباع يستخدمونه لإدارة شئونهم في نهاية حكم الأسد ، وكان مكانهم المفضل لعقد المؤتمرات للاتفاق على المؤامرات .. ومع مرور الوقت وتغير الحال وتولي الخرتيت ومن بعده كبير الضباع ، عاد الديناصور ، ووقع اختياره على المكان ذاته واستخدمه مع بطانته ، ولكن في العلن لا في الخفاء ، مثلما كان يحدث في الماضي .. حتى الفساد والفاسدون في الماضي كان لديهم حياء..!!

ابتسم الثعلب في هدوء ، ودخل المكان بخطًى ثابتة يحمل أوراقه ، عبر بوابة ، إلى ممر طويل ذي إضاءة خافتة .. فجأة ، ظهر له كائن كئيب المنظر ، كان ضبعًا أسود اللون ضخمًا ، له أنياب بارزة ووجه مشوه بجروح متفرقة تعلوها ندبة ، وكان يقوم بأعمال الحراسة ..

وبعد أن أطلعه الثعلب على شخصيته ، حياه الضبع في برود شديد، واصطحبه إلى غرفة كبيرة مضيئة بها مقاعد وآرائك وثيرة ، طالبًا منه الانتظار فيها .. بعد لحظات أتى إليه حمار وحشي ، رحَّب به كثيرًا فقد كان يعرف الثعلب جيدًا ..

كان الحمار الوحشي ودودًا لطيفًا ، وكان لترحيبه وعبارات المجاملة ، التي أفرط في ذكرها للثعلب ما شجعه على أن يتجاذب معه أطراف الحديث .. وكعادة الثعلب وطبيعته ، فقد كان مباشرًا ، وإن كان لا يبدو كذلك أبدًا ، واستطاع كعادته أيضًا بعدد بسيط من الأسئلة أن يصل إلى مراده بسهولة ، ولكنه كان ولا يزال السهل الممتنع ..

وجدها الثعلب فرصة سانحة ومهيئة ليمارس هوايته القديمة ، فوجه سؤالين للحمار الوحشي ، فتحا شهيته للحديث والثرثرة ، ثم ركز سؤاله الثالث ليحصل على ما يريد ، بعد أن أغرى الحمار الوحشي بأهمية ما يقوله ، وبأنه ينصت إليه كتلميذ يتعلم الحكمة من فيلسوف كبير!

نجحت الطريقة الماكرة التي عادةً ما يستخدمها الثعلب مع الآخرين في استدراج الحمار الوحشي ، فتحدث وأفاض في الحديث ، حتى كاد الثعلب يرجوه ليتوقف من شدة ما استدرجه....

قال الحمار : الديناصور لم ينقرض كما تعتقد ، ولكنه اختفى خوفًا على حياته وسلالته من الأسود ، فتحور إلى أطوار أخرى وظهر على صورة زواحف صغيرة ، تضمن بقاءه واستمرار ذريته حتى تحين الفرصة مرة أخرى لعودته.! وقد حانت مع اختفاء الأسد وانزواء الأشبال من بعده ، وتولي الخرتيت .. كانت مرحلة أشبه بحقل تجارب ، فقد بدأ الديناصور يكبر وينمو ، ولكن بحساب وساعدته الضباع ، الذين كانوا يشكلون السواد الأعظم من بطانة الخرتيت .. ومع عزل وحيد القرن ، كما كان يحلو له أن يسمي نفسه .. وتولي كبير الضباع مقاليد الأمور .. كان الديناصور قد تضخم بصورة هائلة ، لا ينفع معها أن يختفي عن الأنظار أو يتوارى عن الظهور ..شجعه على ذلك فساد كبير الضباع وبطانته ..

ونجح الديناصور بأمواله ، التي أغدق بها على كبير الضباع وبطانة السوء، في أن يحصل على النفوذ ؛ فدعم بأمواله أركان حكم الضباع ، وسيطر عليهم، وصار يتحكم في أهم موارد الغابة ..

ومع الوقت ، شعر الديناصور أنه لا يفعل شيئًا سوى جمع المال واستثماره حتى شبع ، فسأل نفسه : وماذا بعد ؟ وكانت «بعد» هذه هي السلطة والحكم وصولًا لعرش الغابة إلى العرين.. عرين الأسد ؛ فبدأ يطمع في دور سياسي أكبر لقيادة الغابة ، وكان المقابل للتغاضي عن طموحه استمرار دعمه المادي لكبير الضباع وبطانته وسدنة حكمه ، والآن كما ترى ، فالديناصور لا يحكم فقط وإنما يتحكم أيضًا ..

وتوقف الحمار الوحشي فجأة عن الحديث ، بعد أن لاحظ دهشة كبيرة ترتسم على وجه الثعلب.

انقلب وجه الحمار الوحشي ، وسأل الثعلب في حدة : لماذا تندهش ، لقد كنت أظن أنك تعرف ما أقول ، أم أنك كنت تستدرجني في الحديث إذًا؟!

ابتسم الثعلب في دهاء ، وقال ببرود مصطنع : دهشتي مصدرها معلوماتك الضئيلة ، التي كنت أظن أنك تعرف أكثر..!!

وبينما كان الثعلب يغادر الغرفة للقاء الديناصور ، ظل الحمار الوحشي ينظر إليه في إعجاب وانبهار ممزوجين بدهشة بالغة ، وهو لا يدرك بغبائه الشديد أن الثعلب لم يكن يعرف حرفًا واحدًا مما قاله!

* * *

كانت غرفة مكتب الديناصور ذات إضاءة خافتة ، ومن مصادر غير مباشرة ، متناثرة في أرجاء الغرفة ، تلقي أنوارها بظلال على جسم

الديناصور، فتجعله يبدو ضخماً على جدرانها .. كانت الغرفة مؤثثة بأثاث فاخر كلاسيكي عتيق، ولكن بلا روح..

لم يشعر الثعلب بهيبة للمكان، أو حتى بهيبة لصاحبه .. بل بالعكس شعر أن الديناصور ضئيل الحجم أكثر مما يجب، أو مما كان يتصور، وبصورة ذكرته بأنه أحد شخصيات أفلام الكرتون الشهيرة ؛ فقد كانت حركاته وصوته يؤكدان المعنى ذاته لدى الثعلب..

دار بينهما حديث هادئ نسبيًا في البداية، ثم ارتفعت حدته بعد فترة وجيزة لصالح الثعلب، الذي استخدم حجته ومنطقه وثقته بنفسه للتعبير عن رأيه في موضوع، يعرف تفاصيله ويلم بها ويحفظها عن ظهر قلب .. ومع مرور الوقت، شعر الديناصور بحرج موقفه ؛ خاصة أن اللقاء لم يكن ثنائيًا بل حميريًا!!! فمجموعة الحمير التي حضرت اللقاء لا تشعرك - إطلاقًا - بأنك في غابة، بل في حظيرة!

لجأ الديناصور إلى رفع صوته واستخدام نبرات حادة في حديثه .. واجهها الثعلب بابتسامة باردة لا تعكس ما بداخله من بركان غضب .. فلم يشأ أن يرد عليه ؛ لاقتناعه بأن مجادلة الجاهل تجعل من الصعب على متابعيها أن يعرف من منهما الأحمق !!!

لم يقطع الحديث ويزيل آثار الحرج الذي لحق بالديناصور إلا دخول الطاووس .. كان كالمعتاد زاهيًا يسير في خيلاء قام بتحية الحاضرين، ومن بينهم الديناصور ببرود وعجرفة كعادته، ظنًا منه أنهم مجرد طيور في مزرعته، وفات الطاووس أن الديناصور لم يعد كائنًا خرافيًا، كما كان في الماضي بل أصبح واقعًا، تهابه الحيوانات لبطشه وجبروته ونفوذه ..

ما هي إلا لحظات قليلة ، حتى بدأ الديناصور في مهاجمة الطاووس وبشراسة شديدة ، دون مقدمات ، وكأنه وجد فيه ضالته المنشودة.. فوجه إليه عبارات شديدة اللهجة ، ثم هدده وتوعده .. وأخيرًا راوده عن وظيفته في عرش الطاووس ، وبصورة غير مباشرة لفت نظره إلى أعماله الخاصة واستفادته من عرشه ، بما يعود عليه بمنفعة مادية .. ونظر الطاووس للثعلب مستنجدًا به ، فهز له الثعلب كتفيه ، وترك للطاووس حرية فهم مدلول تلك الإشارة كما يحلو له !

بدأ الطاووس يتراجع ويتضاءل وينكمش في مقعده ، وشعر الديناصور بزهو الانتصار.. لقد نال من الطاووس والثعلب أيضًا ، فالأخير ما هو إلا مرؤوس لهذا المغرور .. إذًا لقد نلت منكما معًا هكذا حدث الديناصور نفسه .. وبدأ الطاووس يقدم تنازلات ، ويحاول وضع شروط أقل قسوة في بيع المزرعة ، بينما كان الثعلب معتدًّا بنفسه متمسكًا برأيه ، وظل صلبًا لم يلن أبدًا، رافضًا مبدأ البيع..

أمام تشدد الثعلب ووسطية الطاووس ، اقترح الديناصور عقد اجتماع مع ممثلي فصائل الغابة ، قائلًا في نبرة توحي بديموقراطية مزيفة : نطرح عليهم أفكارنا ونستمع لآرائهم ونحتكم لرأيهم ..

كالمعتاد تحمس الطاووس الأرعن ، قائلًا جملته المعتادة : هذا حل رائع ، أنا موافق على ذلك.. وبدا على الثعلب بعض التحفظ ، الأمر الذي لاحظه الديناصور ، فتأبط ذراع الثعلب ، مصطحبًا إياه إلى قاعة المداولة والرأي ، التي تبعد عن مكتبه عدة أمتار .. واستسلم الثعلب تمامًا للديناصور ، فقد كان يرتاح لدخوله القاعة بهذه الكيفية متأبطًا ذراع الديناصور ، فعلى أقل

تقدير ستهابه بقية الحيوانات ، التي تنتظرهم في القاعة منذ ساعات ، ولن يجرؤ أي منها على أن يتطاول عليه ، كما هي عادتهم في مثل هذه المناسبات.

وفي الوقت ذاته ، لم يكن الثعلب يستطيع أن يرفض ما اقترحه الديناصور، فقد أدرك بذكائه أن هذا الاجتماع معد له مسبقًا منذ فترة ، وأن انعقاده واقع لا محالة ..

* * *

كان الاجتماع أشبه بمسرحية هزلية ، ولكن من النوع الثقيل الظل .. كان الحوار فيه أقرب إلى العبث ، وكانت الأفكار المطروحة تنبئ عن جهل حتى بأبسط الأمور .. وما يقال كحجج أو براهين لا تؤدي إلى إقناع طفل..

ظل الثعلب مستمعًا فترة طويلة ، ثم بدأ يشعر من جراء كثرة تنازلات الطاووس أن الأمر سيخرج من أيديهما ، ولن يستطيعا أن يحولا دون بيع المزرعة ، فكتب ورقة صغيرة للطاووس ، ينبهه فيها إلى خطورة التنازلات ، وكانت المفاجأة المدوية استمرار الطاووس في التنازل ، ثم مهاجمته للثعلب مؤيدًا لرأي الديناصور ..

في البداية ، ظن الثعلب أن الطاووس يمزح ، وأن الأمر سينتهي على هذا النحو ، وأنه لا يعدو سوى سخرية من الديناصور ..

ثم تبين له أن الطاووس جاد في التخلي عنه .. صحيح أن الطاووس يتمتع بقدر كبير من الأنانية وحب الذات ، تسمح له بفعل أكثر من ذلك ، ولكن الأمر هنا يتعلق بالتفريط في المزرعة ، وليس التخلي عن الثعلب!!!

الأغرب أن الحاضرين من الحيوانات - رغم مساوئهم وضعف شخصياتهم أمام الديناصور ، وتكالبهم على نفاقه بصورة غير مسبوقة، وكأننا

في حفل شعبي - كانوا يريدون المجاملة واحدًا تلو الآخر على المسرح.. إلا أن الثعلب لاحظ في أعينهم نظرة أسى ، وهبط عليهم جميعًا الصمت مع كلمات الطاووس المخزية..

ربما ما زال بداخلهم شيء نقي تجاه المزرعة ، أو ربما ما زالوا يشعرون بغيرة وطنية .. ولكنهم ارتضوا أن يكونوا منافقين ، ولابد أن غيرتهم تغلبت بداخلهم على نفاقهم ، فآثروا الصمت هذه المرة.. وحسنًا فعلوا ..

نظر الثعلب بحدة إلى الطاووس ، وركز بصره على عينيه ، وهو يعلم أن الطاووس يخاف دائمًا مما يجهل.. والثعلب كان في غضبه مجهولًا للطاووس.. فاستغل الثعلب هذا الأمر ، ونجحت الطريقة ، وسكت الطاووس ، وتوقف عن الاسترسال في التفريط في أجزاء من المزرعة ، حسبما كان يقترح ، وطلب الثعلب الكلمة ووجه حديثه للديناصور ، وفنَّد كل ما قيل رغم تفاهته ، ورد عليه بالحجة وبهدوء شديد ..

لم يعجب الديناصور بهذا المنطق ؛ خاصة بعد أن لاحظ استحسانًا في القاعة لمنطق الثعلب وأسلوبه ، فاستغل نقطة ضعف في أسلوب إدارة المزرعة، وهاجم بها الثعلب بضراوة وعلا صوته ، فكان كالهدير ، وآثر الثعلب الصمت ، فقد أدرك أنه لو حاول الرد هذه المرة ، فهو هالك لا محالة؛ خاصة مع تحول الحيوانات بالقاعة إلى جانب الديناصور ، مدعمين إياه بتصفيق حاد ، وكأن الثعلب قد صار من أعداء الوطن..

نظر الثعلب إلى وجوه الحيوانات في القاعة ، فأصابه قدر كبير من الذهول .. لقد كانوا جميعًا من الحمير .. وضرب جبهته بيده .. كيف فاته هذا الأمر ..!! كيف لم يلحظ ذلك عند دخوله القاعة ..!

وسرح الثعلب بخياله بعيدًا ، فقد كان الواقع أمامه مريرًا لدرجة لا تحتمل .

انتهى هذا اللقاء التعيس بنصر مؤقت للديناصور وأعوانه على الطاووس والثعلب ، وخرجا معًا يجران أذيال الخيبة.. وما إن وصلا إلى البوابة المؤدية إلى الغابة ، حتى فوجئ الثعلب بالطاووس يطير !!! ووقف الثعلب ينظر إلى هذا المشهد الفريد ، وهو يكاد لا يصدق ما يراه متأملًا الطاووس ، وهو يطير في خطوط متعرجة ، كان أشبه بلص يهرول هاربًا بعد أن ضبط وهو يسرق.. فأشبعه المارة ضربًا فلما أفلت منهم ، أطلق لساقيه العنان ، وهو يتلفت خلفه كل برهة خوفًا من ملاحقتهم له!!!

وتحرك الثعلب من المكان ، وحيدًا سائرًا على قدميه منكسًا رأسه إلى أسفل قليلًا ، بعد أن عقد كفيه وراء ظهره .. كان يشعر بالأسى ثلاث مرات .. الأولى لما حدث لطاووس ، هو في النهاية رمز لعرش المزرعة .. والثانية أن هذا الطاووس مديره ورئيسه في عمله ، والثالثة لأن بيع المزرعة بدا في الأفق القريب على وشك الحدوث ، وكان ذلك كله يبعث على الأسف الشديد ..

كان يومًا عصيبًا لن ينساه الثعلب أبدًا..لم ينم الثعلب في تلك الليلة ، ومع أول ضوء شمس من صباح اليوم التالي ، كان يعدو مسرعًا صوب عرين الأسد، وعندما بلغه كان النهار قد انتصف ، والشمس تتوسط السماء ، والضوء يغمر المكان الفسيح أسفل ربوة العرين العالية ، وكانت السماء صافية تمامًا..

كان المشهد يبعث على الأمل في عهد جديد قريب. .ربما.. لا أحد يدري..!!

* * *

عندما وصل الثعلب إلى مقر العرين القديم ، لاحظ وجود حركة غير طبيعية ، وعلى مسافة قريبة من المقر نفسه .. استرعى انتباهه خيول بيضاء تجري ، وكأنها تسابق الريح ، تكسو وجوهها ابتسامة أمل وفرحة .. أعداد غير قليلة من الأفيال تجوب المكان ، وتصدر أوامرها بصوت حاسم ومرتفع أحيانًا ، وحاد أحيانًا أخرى لمجموعة من القرود ، راحت تعمل بهمة ونشاط .. فهود تتحرك في كل الأرجاء ، تتابع وتصحح بملاحظات فنية خاطفة ، تحت قيادة نمر عجوز مخضرم ، يوجه المجموعات ويشرف على أعمالها ..

بدا الثعلب وكأنه غير مصدق لما يرى هل ما يفكر فيه هو الحقيقة ..؟! هل حدث بالفعل ؟! هل عاد مرة أخرى؟!! كاد قلبه يتوقف من الفرحة لمجرد أن الفكرة جالت بخاطره ..

خطا الثعلب عدة خطوات مقتربًا من العرين .. كانت خطواته مترددة ، حاول استيقاف أي حيوان لسؤاله ، فلم يتمكن .. كان العمل يجري على قدم وساق بهمة ونشاط غير مسبوقين ، وكأن المطلوب إزالة آثار الخرتيت وفرس النهر والضباع والطاووس ..

أوراق تُحمل ، وقرارات تُصدر ، وأوامر تُعطى ، والجميع يعمل ..

تسلق الثعلب الربوة العالية بالقرب من مدخل العرين القديم ، ووقف يراقب ما يجري أمامه .. كان مشهدًا تاريخيًا ، وشعر أنه يعيش لحظة فاصلة .. يعيش مشهدًا سيظل محفورًا في ذاكرته لسنوات طويلة ، من الصعب عليه أن ينساه..

لم يخرجه من هذا المشهد إلا صوت الحصان ، مناديًا عليه وملوحًا له من أسفل الربوة لينزل .. نزل الثعلب مسرعًا في خطوات رشيقة ..كان ينبض

بالحيوية ويشع نشاطًا ، وبداخله طاقة لاحدود لها .. دائمًا الأمل والفرحة والسعادة يشكلون ثالوثًا قويًا ، يعطيه دفعة قوية للأمام ..

استقبله الحصان بترحاب قائلًا بلهفة : أين أنت ؟ ! نحن نبحث عنك منذ الصباح الباكر ، وهو يريد أن يتحدث معك في أمر مهم .. لمعت عينا الثعلب إذن لقد تحقق الحلم فرد بلهفة مماثلة : هل عاد ؟!

أومأ الحصان برأسه ، وعيناه تشعان فرحة ، ثم أضاف بصوت يملؤه الثقة والفخر : نعم لقد عاد اليوم وطلب استدعاءك فورًا ..

وضع الحصان يده على كتف الثعلب وسارا معًا باتجاه العرين القديم قائلًا : لقد تطور الأمر بأسرع مما كنا جميعًا نتصور ، وكان بيع المزرعة هو القشة التي قصمت ظهر البعير.. ويبدو أنهم كانوا ينتظرون حدثًا جللًا مثل بيع المزرعة ؛ لكي يتدخلوا ويعيدوا الأسد إلى عرينه ..

قاطعه الثعلب مقطبًا جبينه : من هم ؟!

أجاب الحصان : الإنسان كالمعتاد .. مثلما تدخل في شئون الغابة من قبل . وأفسدها ، منذ أن أتى لنا بالخرتيت .. مرورًا بالضباع حتى الديناصور ، واليوم يحاول إصلاح ما تبقى ، فقد خاف أن يفلت زمام الأمور في الغابة أكثر من ذلك ، وهناك تحفظ على طريقة بيع المزرعة ..أنت بالتأكيد متابع للأحداث ، وإن كنت تعمل في المزرعة بعيدًا عنها ، ولكنها في النهاية أتت إليك ، وكأنها كانت تبحث عنك .. لقد ساءت الأوضاع في الغابة لأقصى درجة .. وأصبح الفساد في كل مكان وفي كل شيء ، حتى أصبح الفاشل الغبي عبقريًا ومناسبًا لأي موقع ، طالما هو يدين لهم بالولاء .. لقد تردينا إلى أسفل السافلين ..

الفساد أصاب الذمم والنفوس والأفكار .. وتوغل إلى مناهج العمل وإلى سبل الإدارة .. وإلى العلاقات الإنسانية.. لم يترك شيئًا إلا وأصابه .. أصبح كالسرطان ، أحيانًا لا يمكن السيطرة عليه ، ومن الأفضل وقتها أن تموت الإدارة الحالية فلا أمل من تقويمها.. فالحالة باتت ميئوسًا منها.. هل تتخيل أنه حتى النفاق بعد أن كان على استحياء ، أصبح الآن مفضوحًا ثقيلًا، له رائحة تزكم الأنوف ، لم يعد يتحملها أحد بما فيهم الذين يوجه إليهم النفاق أنفسهم !!

كان الحصان مسترسلًا في الحديث بلا توقف ، وكأنه يجري في سباق لبلوغ النهاية : إن الأمور استفحلت لدرجة غير مسبوقة ، حتى كادت الغابة تسجل بموسوعة الأرقام القياسية في التخلف والفساد ، وعلى كل المستويات، وفي أوقات متلاحقة .. يبدو أنه مرض معد .

الثعلب مقاطعًا : بل الحقيقة أنه وباء !!

الحصان : الموارد نضبت من كثرة ما تعرضت للسرقة والنهب على يد الضباع ، وغباء الحمير الذين يتولون إدارتها ، ومرتبات الموظفين – بالغابة من الحشرات والجرذان والطيور – ضعفت لدرجة أصبحت معها هزيلة للغاية.. والأسعار ارتفعت بلا سقف ، وكأنها في سباق.. والضباع خرجوا علينا بحلول وهمية للمشكلة ، فرفعوا المرتبات قليلًا ، وطلبوا من موظفي الغابة أن يتفانوا في عملهم مقابل تلك الزيادة ، ولأن ما فعلوه لا يعدو سوى أنهم كانوا يتظاهرون بدفع رواتب .. فقد تظاهرت الحيوانات من الموظفين أيضًا بأنها تؤدي عملها ..فكانوا يذهبون لمقار العمل في الغابة ، ولا يفعلون شيئًا سوى التواجد.. وإن عملوا ، فيكون ذلك بمقابل ممن يطلب خدمتهم

من الحيوانات المواطنين ..! ناهيك عن الإهمال والسلبية المتناهية في الإدارة والتحرك دائمًا وأبدًا عقب وقوع الكارثة ؛ حتى بات الحل لهذه المشكلة هو اختلاق كوارث وهمية للمسئولين في مواقع مختلفة ؛ لكي يتحركوا ويضعوا حلولا لتدارك ما لديهم من ترهل إداري !!

قاطعه الثعلب : هذا عن صغار الحيوانات ، فماذا عن كبارهم؟!

ابتسم الحصان بأسى قائلًا: الأمر يختلف تمامًا ، ففساد الكبار يرتبط بعلاقة طردية ، بعلاقاتهم مع من هم أكبر منهم ، وكلما كبر السارق كبرت طموحاته وتوحش فعظمت سرقاته .. الفساد في الطبقات العليا له قواعد وحسابات مختلفة .. الكثيرون كتبوا عنها ، وغيرهم تحدث عنها وأفاض، ولكنك تعلم أنه لا حياة لمن تنادي ..و ما يشغلني بحق أن الفساد طال الجزر الأربع الرئيسية ، بما فيها الجزيرة المركزية ، التي كانت ولا تزال أهمها على الإطلاق .. وأنت يا ثعلب عملت في هذه الأماكن ، وتعلم جيدًا أن بذرة فساد صغيرة ، في هذه الأماكن ، كفيلة بحدوث كارثة لسنوات طويلة قادمة للغابة بأكملها ..فالأخطاء هناك لا تحتمل ، والغلطة الأولى كما يقولون ستكون الأخيرة .. هل تعلم أن جميع الضباع الذين تولوا المناصب القيادية ، في عهد كبيرهم ، كانوا من الفاسدين .. لقد حوّلوا الغابة إلى مستنقع ، لم يعد ينفع فيه إصلاح أو تطهير ، بل لابد من ردمه ..

يحتاج الأمر الآن إلى تغيير في الأفكار والمبادئ والثقافات.. في عاداتنا وتقاليدنا .. نحن لا نحتاج تغييرًا في الحيوانات القيادية فقط .. هذا يبدو كالمسكّن ، قد يكون له مفعول طويل ، ولكنه دائمًا سيكون مؤقتًا.. نحن نريد نهضة حقيقية في نفوسنا .. نريد للأسد الكامن أن يخرج فورًا..!

الثعلب مقاطعًا كالمعتاد: نعم فالله لا يغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم ..

أضاف الحصان : المصيبة الثانية بعد الفساد ، أننا أصبحنا بلا رأي عام حقيقي .. بل لدينا إما رأي عام موجّه أو آخر مسيّر .. الأول موجّه من قيادة الغابة وضباعها وحميرها وقرودها وكلابها ، الذين تطلقهم على من لا يطيع أو يخالف أمر الضباع .. والثاني مسيّر من شائعات مصدرها جُهلاء ، والتي أصبحت تملأ أصداء الغابة وتجد رواجًا وقبولًا لدى المتلقّين لها .. لا تصديقًا لما تنبئهم به ، فهم لا يعملون فكرهم فيها ، ولايجهدون أنفسهم في تحليلها ؛ لكي يعقلوا ما يسمعون.. وإنما يفعلون ذلك كُرهًا ونكاية في الضباع وبطانتها ..فيشعرون أنهم بتصديقهم تلك الشائعات وترديدها ، كأنهم ينتقمون منهم ويتشفون فيهم .. لقد أُصبنا جميعًا بالفصام الرسمي.. نكره الغابة ونفرح لمصائبها .. ونتمنى رضا قيادتها عنا !

.. ولأن المقدمات تؤدي إلى النتائج ، في أغلب الأحيان ، فأصبح لدينا اليوم كل التخصصات مجتمعة في حيوان واحد ..كل منا أصبح عالمًا بلا جهد أو قراءة ، أو حتى تعليم في بعض الأحيان .. الكل يفتي فيما لا يعلم، وأصبحت من علامات الذكاء والفطنة أنه ليس مُهمًّا ما تقول ، وإنما كيف تقوله .. وكما قلت أنت في مقالك ، الذي نشرته تحت اسم مستعار ، كلما استخدمت جسدك وعينيك وإيماءات لا معنى لها برأسك وتدنيت بألفاظك إلى الحضيض ؛ حتى يضيق السوقة والدهماء من رداءة ألفاظك ، وتحمر وجوههم خجلًا .. أصبحت محط إعجاب ما يسمى بالرأي العام والخاص أيضًا إن أردت !

وإن لم تفلح في هذا الاتجاه ، فلتعارض بالحق وبالباطل ..فتلك وسيلة ما زالت ناجحة ، وتدر على صاحبها دخلًا مقبولًا مرضيًا وحضورًا إعلاميًا لا بأس به.. أما إن سلكت طريق النفاق لكبير الضباع وبطانته ، فاحترس فقد أصبحت وسيلة فجة ومفضوحة ، أو بتعبير آخر ، باتت بضاعة غير رائجة، تركها المحترفون من قدماء المنافقين لصبيانهم فتدنوا بها .. تخيل أنك تقوم بعمل حقير ومتدنٍ من الأساس فتهبط به أيضًا!!

هل رأيت ترديًا أكثر من ذلك؟!

أجاب الثعلب في غير مقاطعة هذه المرة : أنا أعلم غالبية ما قلت وأشعر بأسى حقيقي ، ولكن ما زال عندي أمل مادمتُ حيًا ، وقد تحقق جزء من أحلامي اليوم بعودة الأسد.. على الأقل ما زالت هناك بارقة أمل أخرى في أن يعود حكم الأسود لا أشباههم ، ولكن لماذا يريدني الأسد اليوم على وجه السرعة كما أبلغتني ؟!!

الحصان : موضوع بيع المزرعة الذي لاقى معارضة شديدة من عامة الحيوانات ، أزعج الإنسان كثيرًا .. ليس خوفا على الغابة ، وإنما قلقًا من الديناصور وطموحاته ، فقد شعر الإنسان أن السحر قد ينقلب على الساحر، وهو كما تعلم الذي أعاد الديناصور واستدعاه من الانقراض .. والآن الديناصور يملك زمام الأمور تقريبًا ، ويسيطر على غالبية المؤسسات والإدارات والجزر الأربعة .. لقد أصبح يَمنح ويَمنع .. يعطي ويأخذ ..يُعيّن ويعزل ..يأمُر وينهى ..

فرأى الإنسان أن يعيد الأسد مؤقتا ؛ حتى تعود الأمور إلى نصابها الصحيح ، ويمر موضوع المزرعة بسلاسة .. الأمر بات أشبه بجهاز التنفس

الصناعي ، الذي يتسبب في بعض الأحيان في نزول سكينة وتقبل لقرب رحيل المريض لدى أهله قبل وفاته ، بدلًا من الموت المفاجئ ، الذي يتسبب في فجيعة معظم الأحيان .. أعتقد أن الأسد لا يستطيع أن يفعل أكثر مما سيفعله الجهاز بالمريض ، وقد أكون متشائمًا .. لا أدري .. ولكنني أعتقد أننا نحتاج إلى إخراج الأسد الذي بداخلنا الآن أكثر من أي وقت مضى .

شرد الحصان قليلًا ثم أردف : الأسد يطلبك اليوم لإبلاغك بأن الديناصور لجأ إلى مجلس الحكماء مطالبًا بحقه الدستوري في بيع المزرعة، مادام هناك قبول لتطويرها وتجديدها ؛ مدعيًا أنها مثل أي سلعة تُباع وتُشترى، والأسد رافض بطبيعة الحال لمبدأ البيع .. والجلسة غدًا..

الثعلب: غدًا بهذه السرعة ؟! وأين الأسد الآن ؟ إنني لا أراه هنا في العرين القديم ..

الحصان: الأسد في العرين الكبير .. لقد تسلم مقاليد الأمور منذ الصباح الباكر ، ولكن دون مراسم أو احتفال ، واكتفى ببيان مُقتضب ، دعا فيه الحيوانات للتكاتف والالتفاف حول غابتهم وقيادتها الجديدة .. واعدًا إياهم بتصحيح الأوضاع خلال فترة وجيزة .. ولكنه كان مهمومًا ، فقد وردت إليه تقارير عن فوضى محتملة ، قد تقوم بها الحيوانات المكبوتة والمشحونة لأقصى درجة ....

قاطعه الثعلب : فوضى أم تظاهر ؟؟

ابتسم الحصان ، وقال : هكذا كان تعليق الأسد أيضًا .. ولكنني أنقل لك ما جاء بتقارير الضباع ، وإذا ما كانت فوضى .. فثق أنه لن ينفع معها وجود الأسد ، ولا حتى مائة أسد !

تركه الثعلب وانصرف.. وكلمات الحصان الأخيرة ترن في أذنه ، لا تريد أن تفارقها « وقتها لن يمنع الفوضى مائة أسد» .. وشعر بخوف على غابته لم يعهده من قبل ، وكأنه يكاد يُرى بالعين من فرط ما تسرب إليه .. ومع ذلك تنازعه إحساس بأن الحيوانات قد يحركها ويدفعها للتظاهر شعور دفين بالقهر والظلم والكبت ، تراكم منذ سنوات بعيدة .. فقال لنفسه ولم لا ؟ فعلى الأقل ستأخذ في طريقها الضباع وأشباههم..ثم مضى في اتجاه العرين للقاء الأسد .

* * *

12

مجلس حكماء الغابة

عندما دخل الثعلب العرين هذه المرة لم يلتفت إلى ظاهره ، مثلما اعتاد أن يفعل كل مرة ..

رغم أن العرين كان يبدو من بعيد كئيبًا ، ربما مشاركة منه على حال الغابة وما فعله بها ضباعها ، إلا أن إحساس الثعلب بوجود الأسد داخل العرين كان أكبر من أي إحساس آخر ، أو أي تأثير خارجي ..

عندما أُذن له بالدخول إلى عرين الأسد ولقائه ..كانت لحظة بالنسبة له لا تنسى ، وظلت راسخةً في مخيلته بعدها لسنوات طويلة....

كان الأسد شامخا قويًا عظيمًا ، وكأنما لم يحدث له شيء بالأمس ..

كان لديه حضور طاغ وهيبة حقيقية ، ينقل إليك الإحساس بالأمان والثقة والفخر أنك تعمل معه ، أو أنه ملك على غابتك .

صافح الثعلب الأسد بحرارة شديدة ، مهنئًا إياه بالعودة .. ورد الأسد بعبارات شكر مقتضبة ، ونصف ابتسامة سرعان ما زالت ، وحلت محلها قسمات جدية ارتسمت على وجهه فزادته هيبة ..

كان واضحًا أنه عاد ليعمل ، بل ولا يريد أن يضيع دقيقة واحدة دون عمل ..أخرج الأسد تقريرًا من مكتبه .. سلمه للثعلب ، موضحًا له أن الديناصور

قد قدمه لمجلس الحكماء، الذي سينعقد غدًا لبحث موضوع بيع المزرعة لصالح الديناصور .. طلب الأسد منه قراءته بعناية شديدة، وإعداد رد قوي لا يخرس الديناصور فحسب.. بل يكون مقدمة للقضاء عليه نهائيًا ..

كان الأسد حاسمًا في حديثه، يضغط على مخارج ألفاظه التي اختارها بعناية، ولا بد أنه كان يعني كل ما يقول ..

تصفح الثعلب أوراق التقرير في عجالة، وتغيرت ملامح وجهه، وظهر عليه الانزعاج ... ولاحظ الأسد ذلك، فبادره بالسؤال عما أقلقه من التقرير .. قال الثعلب في هدوء : من القراءة الأولى السريعة، لاحظت أنه يمكن تلخيص التقرير بأنه كلمة حق يراد بها باطل، المنطق فيها مغلوط والأوراق مختلطة .. بهدف إيصال معنى مغاير للحقيقة .. هذا ما يمكن وصفه بخدعة، لا تقرير، يهدف إلى المصلحة العامة ..

قال الأسد مبتسما في وقار: يعجبني فيك سرعة بديهتك وقوة ملاحظتك .. لا تفوتك أبدًا التفاصيل الصغيرة .. لديك بعض من سوء الظن، ولكنه يكون أحيانًا من حسن الفطن .. سأروي لك أمرًا بسيطًا للغاية .. وقد يبدو لك تافها .. ومع ذلك فانتبه لما أقوله..

فتح الثعلب عينيه وتسمرت أذناه إلى أعلى، وسكن تمامًا، وكأن على رأسه الطير..

قال الأسد : افترض أن هناك أربعة كلاب صغيرة، ذهبت لتلعب بمحطة القطارات، فاختاروا اللعب أمام القضبان التي يمر عليها القطار، وتركوا تلك المعلق عليها لافتة كبيرة تفيد بأن هذا الخط مغلق للإصلاحات، إلا واحدًا منهم اختار الخط المعطل ..حتى لا ينال إحساسه بالخطر، القادم مع

وصول القطار من متعة اللعب ، التي أتى من أجلها.. ثم حدث أن جاء القطار بأقصى سرعة ، وانحرف بطريق الخطأ إلى القضبان المغلقة للإصلاحات فقتل الجرو الصغير ، الذي كان مستغرقًا في اللعب ، بينما أصبح الثلاثة الآخرون في أمان ، رغم أنهم هم المخالفون والمخطئون منذ البداية.. ماذا سيحدث في هذه الحالة لتبرئة قائد القطار ؟!!

ظل الثعلب على دهشته..فلم يكن يتوقع هذا السؤال..

فاستكمل الأسد حديثه : سيقال هنا في تبرير ما حدث إن الجرو القتيل قد أخطأ بتواجده في هذا المكان ، منذ البداية ، عندما ترك أقرانه يلعبون في مكان آخر ، وفضل أن يكون بمعزل عنهم ... هذه واحدة .. أما الثانية فلأنه اختار مكانًا للعب ، مما لا يجوز اللعب فيه أصلًا ، ولن يذكر شيئًا عن خطأ الثلاثة الآخرين.. وسيقال دائمًا إن مقتل واحد أفضل من مقتلهم جميعًا.. ثم سيُلقى باللوم على عائلة الجرو ، التي تركته دون رقابة مما أدى إلى مقتله .. أما الثالثة فسيقال إن اللوحة الإرشادية ليست في اتجاه قائد القطار ، فلم يتمكن من رؤيتها .. وفي النهاية سيعتبر الجميع أن الميت كلب ، لا أكثر ولا أقل ... ثم يحدث حادث آخر أكبر وأهم ، فيأتي على ما تبقى من اهتمام لدى من تابعوا هذا الموضوع.. وهكذا ..

الثعلب منفعلًا: ولكن هذا قلب للحقائق ..

الأسد في الوقار ذاته : هذا ما أردت أن يصل إليك .. ستكون في مواجهة الديناصور على حق ، ولكنهم سيحاولون أن يجعلوك تبدو مخطئًا .. ادرس موضوعك جيدًا ، ولا تجعل أحدًا ينال منك .. كن قوي الحجة فصيح اللسان.. هادئ الطباع .. واثقًا من نفسك وقدراتك .. استحضر الأسد من

داخلك فهو الذي سيبقى معك دائمًا ، وسأكون بجوارك .. لن أخذلك أبدًا .. وتذكر أن طول الوقت ليس في صالحك..!

* * *

مجلس الحكماء .. مجلس الحكماء ... ظلت هذه الكلمة تتردد في أذن الثعلب .. لماذا مجلس الحكماء ..؟! ولماذا يعرض عليه هذا الموضوع بالتحديد ، ومنذ متى وهذا المجلس يختص بنظر مثل هذه الموضوعات..؟!!

لم يجد الثعلب جوابًا شافيًا لتساؤلاته ، فهو يعلم علم اليقين أن مجلس الحكماء يتولى حسم الخلافات الكبرى بين الغابة والغابات الأخرى المجاورة لها ، أو نظر المسائل المتعلقة بأمن وسلامة الغابة ، من خلال الجزر الأربع خاصة الجزيرة المركزية ... كما يعلم أن المجلس يتشكل ممن هم مشهود لهم بالكفاءة والنزاهة والحكمة والخبرة الطويلة ، ممن أمضوا سنوات عمرهم في خدمة غابتهم ، دون أن يسألوا مقابلًا أو يطلبوا خدمة أو منفعة ...

كان يعلم أيضًا أن الفيل بحكمته ووقاره عضو في المجلس ، وكذلك النمر ، وأيضًا الحصان ، وكانت الطيور ممثلة ببجعة عجوز ذات ريش أبيض ناصع البياض ، وكان يرأس المجلس دب قطبي ضخم موفور الصحة كامل النشاط .. وكان هذا المجلس يضم النخبة والصفوة العقلاء والحكماء والعلماء، وأصحاب الرأي والرؤية ، ومع ذلك كان عددهم دومًا لا يزيد عن سبعة .. كما كان مجلسهم يصدر كتابًا فصليًا كل ستة أشهر ، يضم أهم ما نظره من موضوعات وقضايا شائكة ، وأوجه الرأي الذي انتهى إليه فيها ، وكان هذا الكتاب يعد مرجعًا حقيقيًا في إدارة شئون الغابة الداخلية وسياستها الخارجية أيضًا ..

عندما وصل الثعلب إلى مقر المجلس في صباح اليوم التالي ، كان قبل موعده كالمعتاد ، ولكن هذه المرة بأكثر من عشرين دقيقة .. فقد تعمد هذه المرة أن يصل مبكرًا .. أراد أن يتأمل المكان ، فمنذ سنوات بعيدة لم يدخله ، ولم يكن دخوله المكان من الأمور السهلة أو المعتادة ..فقد كان يقتصر على أعضائه فقط ، وأحيانًا كانوا يدعون من يرى المجلس بغالبية أعضائه أن لحضوره أهمية في توضيح أمر ما من الأمور ..

وكان هذا الحضور المؤقت مرهونا بالمسألة المعروضة ، فإذا ما انقضت، استأذن المدعو للحضور في الانصراف فيؤذن له .. فلا يقف على بقية الموضوعات ، أو حتى مناقشات الموضوع ، الذي أتى من أجل إيضاحه ؛ حتى لا يعرف وجه الرأي فيه قبل إعلانه ..

تذكر الثعلب أنه دخل إلى هذا المكان مرتين في حياته بمناسبة عمله بالجزيرة المركزية : الأولى ، كانت لشأن داخلي في الغابة بالجزيرة المركزية، والثانية لشأن خارجي آخر متعلق بغابة مجاورة ، وفي المرتين لم يتجاوز حضوره نصف الساعة بداخل المجلس ..

سئل فأجاب واستفسر منه بعضهم عن أمور فنية في عمله ، فأوضحها ، فطلبوا منه بيانها بصورة أكثر تفصيلًا ، ثم شكروه فانصرف في هدوء ..

كان الجمل هو الذي يستفسر منه في المرة الأولى .. كان خفيض الصوت هادئًا ، وإن كان متجهم الوجه دائمًا .. ولكن في حدود اللياقة والأدب التي لم يتجاوزهما أبدًا .. وفي المرة الثانية ، كان الفيل هو الذي يسأله.. وقورًا حكيمًا كعادته دائمًا..ولكن توجد مسحة من الحزن في عينيه ، لا تخطؤها إذا ما تفرست في وجهه قليلًا.. تذكر كيف كانت الإضاءة غير مبهرة في القاعة

البيضاوية ، وكيف كان الهدوء يغلف المكان ؛ فيزيده وقارًا على وقاره .. وكيف كان كل شيء مرتبًا ..محسوبًا بدقة منذ وقت الانعقاد .. وفترة الحديث المسموح بها... في نوعية الأسئلة والاستفسارات ، التي توجه .. ومدى عمق وفهم موجهها .... في طريقة الإلقاء ورقي الأداء ..مع إدارة حاسمة لها هيبة، تكاد تلمسها بيديك من فرط تأثيرها عليك ..

دلف الثعلب إلى مبنى المجلس ، مارًا بالأعمدة البيضاء ، التي تحيط بالممر الطويل المؤدي إلى القاعة البيضاوية .. كان شبه مغمض العينين حالمًا ما زال يعيش أجواء زيارتيه السابقتين .. كان كعاشق ، ما لبث أن ترك حبيبته ، ولا يريد أن يرى غيرها ، فما زال سحرها في عينيه .. ولم يخرجه من أحلام اليقظة تلك إلا اصطدام كتفه بجسم صلب قوي مندفع كالقطار ، كاد يخلعه من مفصله .. ففتح عينيه وأغلقهما ، ثم فتحهما ثانية .. كان بالفعل كمن يحلم ويكاد لا يصدق ما يراه.. كان كمن يريد أن يصحو من كابوس ، ولا يستطيع فترى على وجهه أمارات الضيق والتذمر ..

كان الذي اصطدم به خنزير بري أسود اللون كالليل الحالك السواد .. كان الخنزير كثيف الشعر ، ذا ملامح كئيبة ، وكان يعدو مسرعًا وخلفه عشرات القرود ، بعضها يتحدث إليه ، وهم يلهثون ، وهو لا يعبأ بحديثهم على الإطلاق ..

ظل الثعلب يتأمل المشهد في ذهول لبضع ثوان ، وهو يكاد يجزم أنه أخطأ المكان ؛ خاصة أن الأعمدة التي حوله كانت متآكلة ، ولونها أقرب إلى الأصفر الباهت تعتريها البقع السوداء وآثار الأصابع من جراء الإهمال وتردد الحيوانات على المكان .. فلم يعد مهيبًا ، بعد أن كان الجميع يشعرون

بهيبة لمجرد المرور بالقرب منه .. حتى السجاد الأحمر الطويل بات كالحًا باهتًا مليئًا بالثقوب ، وكأنه شبكة صياد قديمة بميناء فقير قذر ، ضوضاء غير محتملة .. وكأنك في ملعب كرة ، وغرف كثيرة صغيرة على جانبي الممر ، لم تكن موجودة من قبل .. يبدو أنها مستحدثة ! وما كاد الثعلب يفتح إحداها من باب الفضول ؛ حتى انفجرت في وجهه عشرات الكلاب والقطط ، في اندفاع مريع باتجاه الممر ، كادت تخنقه من فرط كثرتها والتفافها حوله في هذا الممر الضيق ..

حركة غير عادية وبدأ يشعر ، وكأنه في مصلحة حكومية بإحدى دول العالم الثالث ، لا في مجلس حكماء الغابة !!! أطياف من الحيوانات وأنواع مختلفة .. بعضها لم يكن يعرفه من قبل ، ولم يسبق له أن شاهده .. بل حتى لم يكن يعرف متى ظهرت تلك الفصائل الغريبة على مجتمع الغابة ، وكيف تكاثرت على هذا النحو المخيف ، الذي بات يهدد الفصائل العريقة والسلالات النقية بالتراجع ..

انتبه أن بعضًا من أوراقه قد سقطت على الأرض ، عقب اصطدامه بالخنزير البري ، فانحنى وجمعها عائدًا أدراجه مؤكدًا لنفسه أنه أخطأ المكان بالفعل.. فكل ما رآه يؤكد أنه ليس مجلس الحكماء ، وإنما مقهى للغوغاء والدهماء .. وعندما شرع في أن يغادره استوقفه جمع كبير من الكلاب والقرود والجرذان .. كانت تحيط بالطاووس ، وهو يختال بينهم زاهيًا بنفسه ، والجميع يتقرب له بمودة مصطنعة ..

قطع الثعلب عليه الطريق ووقف أمامه حتى يجبره على التوقف ، محدثًا إياه في حدة بأن هذا المكان ليس مكان الاجتماع .. فانزعج الطاووس قائلًا في

انفعال: لقد أكدوا لي أمس أن الاجتماع سيعقد في مجلس الحكماء هذا الصباح، فرد عليه الثعلب بهدوء : وهل هذا مجلس الحكماء ؟!!

نظر إليه الطاووس بامتعاض ، وقال غاضبًا في حدته المعتادة : وهل هذا وقت للفلسفة والانتقاد ؟!

تركه الطاووس ، وانصرف مع جمع المنافقين الملتفين حوله في الزفة ذاتها، التي دخل بها المجلس ، تاركًا الثعلب بمفرده ينظر إليهم في دهشة .... فلم يكن ينتقد ولا يتفلسف ؛ فقد كان يعتقد أنه قد ضل المكان ، والآن تأكد أنه أيضًا قد ضل الزمان!!!

مشى الثعلب يجر قدميه ، في تكاسل ، خلف القطيع الذي يختال الطاووس وسطه ؛ حتى وصلوا إلى غرفة من الغرف الصغيرة المتراصة على جانبي الممر، فانحشروا في إحداها حشرًا ؛ حتى يؤذن لهم بالدخول للقاعة الرئيسة..

جاءت جلسة الثعلب بتلك الغرفة الخانقة بجوار جمل عجوز ، سقطت أغلب أسنانه واجرب لونه ، فصار أقرب لأعمدة المجلس .. وكان ذا وبر منحول ، حتى كادت عظام ضلوعه تبرز منه.. مال الثعلب عليه في هدوء وسأله ببراءة : هل نحن حقًّا بمجلس الحكماء ؟!!

أجابه الجمل في نبرة حزينة : نعم يا بني ، للأسف نحن فيه بالفعل. . ثم استرسل في أسى : أنا أعمل هنا منذ مئة عام أو يزيد .. كان لدينا حكماء وعقلاء وأصحاب رأي .. كانوا أسودًا حقيقية ، وكانت وظيفتي أن أرتب أوراق الموضوعات ، وألخصها لهم ، وأمدهم بما قد يحتاجونه من معلومات، ذات صلة بما هو معروض عليهم..

كنت أستمع إليهم وأستمتع بخدمتهم .. كان لدينا العقول واليوم ، كما ترى ، لا تتوافر بكثرة إلا العجول..! ابتسم له الثعلب مشجعًا حتى يستمر .. فقال الجمل العجوز : اليوم مجلس الحكماء يضم ألفًا من الحيوانات، من كل الفصائل بلا رابط أو ضابط حتى أهل الثقة ، الذين كنا نتندر عليهم ، لم يعد لهم مكان ماداموا لا يقدمون القرابين..!

ومجلس الحكماء ينظر اليوم أي شيء وكل موضوع تافه ، أو ما شابه ذلك تكون له الأولوية .. ويتحدث فيه من يشاء وقتما يشاء ، ويقول ما يحلو له؛ حتى ينشغل الجميع بمتابعته ، وكأن الهدف إلهاء جموع الحيوانات عن مشاكلهم الأساسية .. وإن لم يخطر على ذهن المتحدث شيء ؛ ليقوله فهو ينام آمنًا مستقرًا ؛ حتى ينتهي المجلس من المناقشة !!

كانت عينا الثعلب تتسعان اندهاشًا مع كلمات الجمل العجوز ، وعندما سكت الجمل فجأة ، بعد أن أصابه الحديث على ما يبدو بمزيد من الشجن والأسى .. ألح عليه الثعلب ليكمل له ما بدأه ، إلا أن الجمل اختار أن ينهي الحديث تمامًا قائلًا : دعني وشأني يا بني ، لا تقلّب علي من المواجع ما لا أطيقه ، وتركه وانصرف في بطء شديد متوكئًا على عصاه ، مستندًا إلى حائط الممر الطويل ....

وظل الثعلب يتتبعه بعينه حتى غاب عن بصره وسط زحام القرود والخنازير ، التي كانت تفد تباعًا على مجلس الحكماء ، بينما كان الجمل في طريقه للخروج !!

مرت ساعات طويلة داخل الغرفة الصغيرة الخانقة ، كان الطاووس خلالها يحكي ، كالمعتاد ، قصصًا أسطورية وبطولات وهمية ، يظهر فيها

بمظهر الأسد دائمًا.. وإن كان يتحاشى في تلك المرة الحديث عن أكذوبته الشهيرة ، التي كان يروج فيها لموت الأسد بعد أن علم بعودته ..

التف حول الطاووس العشرات من القرود والحمير والجرذان ، مبتسمين له في بلاهة ، فاغرين أفواههم بلا سبب محدقين ببصرهم نحوه .. وهو يتعمد أن يتجاهل نظراتهم استعلاءً وغرورًا .. كانوا مبهورين بحديثه ، فقد كان رغم مساوئه العديدة صاحب كاريزما مؤثرة ، ولكن إلى حين.. كالضوء المبهر سرعان ما تزول ..فبعد دقائق قليلة إذا كنت لا تعرفه ، ستكتشف بسهولة أنه لا يقول شيئًا على الإطلاق.

نظر إليه الثعلب ، وابتسم ، ثم اقترب منه وهمس في أذنه ، طالبًا منه أن يستثمر بلاهة مريديه لخلق رأي عام مؤيد لوجهة نظرهم بعدم بيع المزرعة ، بدلًا من تلك السخافات عن بطولاته الوهمية ، التي كان يرويها لهم ولا يكل من تكرارها أبدًا ..

وللحظات قليلة ، لمعت عينا الطاووس وأعجبته الفكرة .. إلا أنه كالمعتاد؛ لأنها أتت من الثعلب ، فكان لا بد وأن يرفضها ، بل وأحيانًا كان يسفهها ، وكأن بينهما ثأرًا قديمًا ، رغم أن كل القصص والأساطير والروايات القديمة لم تتضمن من قريب أو بعيد أية إشارة ، تفيد أن الثعلب قد افترس طاووسًا يومًا ما..!!

استمر الطاووس في هذا الغثاء ، وكأن الثعلب لم يقل له شيئًا ، وعندما أعاد الثعلب طلبه على أذن الطاووس ، مرة أخرى في إلحاح سخيف ، كان يتعمده أحيانًا لإثارة الطاووس وإغاظته ... همس له الأخير ؛ أنه لن يفعل؛

فالديناصور له آذان في كل مكان ، ولابد أن بعضهم يجلس بيننا الآن ، ولا داعي لأن يكشفوا أوراقهم أمامه .... ثم استطرد قائلًا: اترك الأمر لي بجلسة الاستماع ، وسوف ترى كيف سأقلب المنضدة عليهم وأحرجهم ، ولو وصل بي الأمر إلى الاستقالة من منصبي فسأفعلها فورا!!!

لزم الثعلب الصمت .. كما لزم مكانه أيضا بجوار الطاووس ، بعد أن شلته المفاجأة ، فلم يقو على الحركة .. فهو مع إدراكه التام بأن الطاووس لن يفعل حرفًا مما قال ، كان مندهشًا أشد الاندهاش بقدرة الطاووس على الخداع والكذب إلى هذه الدرجة ....

* * *

فوجئ الثعلب عند دخوله القاعة البيضاوية بضوضاء شديدة .. عشرات بل المئات من الحيوانات والطيور والحشرات . تقفز ، هنا وهناك ، وتصدر أصواتًا غريبة عالية ، وكلاب تعوي في الأركان بلا توقف.. وأخرى تزمجر .. وثالثة تكشر عن أنيابها للآخرين .. عشرات الجرذان احتلت الصفوف الأولى والأمامية ، وتزاحموا فيها كأسماك السردين في علبة من الصفيح .

أدهش الثعلب وضايقه في آنٍ واحد كم التصفيق والتهليل بمناسبة ودون مناسبة.. وأقلقه وأفزعه أن الأغلبية تقول ما لا تعلم ، وتفتي فيما لا تعرف ، وتتدخل في أمور فنية قد يتمهل بشأنها المتخصصون ويفكرون في الأمر كثيرًا، قبل أن يدلوا بدلوهم فيها.. كما شعر باشمئزاز غريب ؛ لأنهم يهاجمون بعضهم في ضراوة ، ثم يصفقون لمن يهاجمونه مرة ثانية في الموضوع ذاته بحرارة ، وكأنهم مبرمجون على الغوغائية والنفاق ..

وأخيرًا تنبه ولفت نظره أنهم يتحركون بإشارة من كبيرهم .. فالتفت الثعلب إليه كي يراقبه كعادته.. فأخذته المفاجأة ، وكاد يسقط مغشيًا عليه من هولها ..

كان كبيرهم هو الديناصور ، فهو أحد أعضاء مجلس الحكماء !!

الديناصور الذي يعيث في الغابة فسادًا وفوضى وضوضاء ..يقضي على الأخضر واليابس.. يصبح اليوم من الحكماء ..ويعرض موضوع بيع المزرعة لنفسه على مجلسهم ، ويناقشه ويعطي صوته لصالحه !! كان الديناصور يجلس في منتصف القاعة إلى اليسار قليلًا .. هادئًا ، لا تفارق الابتسامة الصفراء وجهه أبدًا .. حوله مجموعة من الضباع تأتمر بأمره ..لا بل بإشارة بسيطة من عينيه ، أو بإيماءة صغيرة برأسه.. كان يحرك الحضور كعرائس خشبية ، فتارة تصفق وتارة تضحك ، وتارة ثالثة تهاجم بضراوة..

اعتدل الثعلب في جلسته ، وهو يتصبب عرقًا من المفاجأة ، وتحدث مع الطاووس فيما رآه ، فلم يعره اهتمامًا ...كان الطاووس منشغلًا بتبادل الابتسامات والتحيات مع القرود والجرذان بلا توقف ..

ذهب الثعلب ببصره إلى حيث كان يجلس الحكماء السبعة قديمًا ..فوجد المكان قد أدخل عليه تعديل ، فصار لا يتسع إلا لواحد فقط .. كان يشغله الدب القطبي ..والذي كان - حتى وقت قريب - يتمتع بسمعة طيبة ، لم يلوثها ، إلا اقترابه من الضباع ومهادنتهم لضمان بقائه في منصبه..!

مضى الثعلب يتأمله .. كان يضحك ويتحدث مع الآخرين ، ويدون ملاحظات ، ويأمر وينهى ، ويتودد للضباع ويتزلف للديناصور ، ثم يهاجم الحشرات بضراوة وحدة .. فينتزع تصفيقًا حادًا من القرود ..ثم يصالحهم

بعدها ببرهة قصيرة ، فتلتهب أيدي الجرذان من التصفيق له مرة أخرى .. كان يناور ويجاور ، بينما هو في حقيقته مخادع .. والجميع سعداء بمراقبته ، بل كاد الثعلب يجزم أنهم انشغلوا بحركاته وكلماته وطريقته المسرحية ، أكثر من انشغالهم بأمور غابتهم ... وبات المشهد أقرب لدب يؤدي فقرة في سيرك شعبي ، لا حكيم ، يدير مجلسًا لأصحاب الفكر والعلماء والصفوة..

أطلق الثعلب زفرة أسى طويلة.. أيقظت عجلًا نائمًا بجواره ، فبدا متأففًا، وكأنما استيقظ قبل ميعاده..!!

ظل الحال على ما هو عليه ساعة أو يزيد ، ضاق فيها الثعلب بكل ما حوله من فقرات ، بدت له مملة وسخيفة من كثرة تكرار مشاهدها على مدار تلك الساعة.. إلى أن طلب الديناصور الكلمة ، فأعطاها له الدب القطبي في خنوع غير مبرر... تحدث الديناصور ، وأفاض عن فوائد بيع المزرعة والرخاء ، الذي سيعم وتجربة الغابات الأخرى ، التي باعت مزارعها ، وفرص العمل التي سيوفرها البيع وعائد الاستثمار ..إلى آخر هذه العبارات الإنشائية التي مل الجميع من سماعها .

أُعطيت الكلمة بعد ذلك للطاووس ، فبدأ حديثه بشكر الدب القطبي ، ثم توجه بالشكر للديناصور وضباعه الذين وصفهم بالوطنيين المخلصين ! ثم أفاض في توجيه الشكر للديناصور مرة أخرى ، ثم زاد في شكره ..فتحول الشكر إلى نفاق ثم بات النفاق مذلةً .. لم تلبث أن تحولت إلى خنوع وخضوع غريب في تدنٍ غير مسبوق.. سرعان ما انقلب فجأة إلى خوف ، ولاحظ من حوله أن الطاووس بدأ يرتعش وينتفض .. مما أثار انتباه الضباع ، فانتصبت آذانهم وتقوست ظهورهم ، وكشروا عن أنيابهم ، وسال لعابهم

من بينها بغزارة استعدادا للانقضاض على الطاووس..بعد أن شعروا بخوفه واستسلامه... فانتهزوا الفرصة ، وبدأ بعضهم في مناوشته ، وشرع البعض الآخر في التطاول عليه بلا هوادة .. وتمكن أحدهم من انتزاع بعض ريشه الملون.. وطاله آخرون بأظافرهم ..فتراجع الطاووس في خوف شديد ، وانكمش في مقعده ..

جذب الثعلب الطاووس من جناحه ، فأبعده عنهم حتى لا يجهزوا عليه .. وكشر لهم عن أنيابه.. فهو أولًا وأخيرًا حيوان مفترس أيضًا ، حتى ولو كان يهاجمهم بمفرده .. ولكنها غريزة البقاء التي لا تزول أبدًا ..

وجه الثعلب حديثه للديناصور ، طالبًا منه أن يأمر ضباعه بالتوقف ، فاستجاب له في برود ، مصحوبًا بالابتسامة الصفراء ذاتها ، وكأنما يتحداه ..

أدار الثعلب ظهره للديناصور وأتباعه ، ووجه حديثه للدب القطبي ، في انفعال ، مناشدًا إياه أن يتدخل هو وحكماء الغابة لإيقاف هذه المهزلة .. وأن يتركوا المزرعة وشأنها.. فبيعها أشبه من يذبح دجاجة تبيض ذهبًا لينتفع بلحمها..

صفق له بعض الحيوانات على استحياء تصفيقًا متقطعًا ، على خلاف التصفيق ، الذي ناله الديناصور ، وكان يرج القاعة ويهزها هزًا شديدًا ..

استمر الثعلب في حديثه ، بعيدًا عن الشعارات والتعبيرات الإنشائية.. كان يخاطب ضمير الحاضرين ؛ ليقنعهم بمشاعره وأحاسيسه ، التي كان يثق في صدقها ، وأنها نابعة من غيرته على غابته وممتلكاتها ، وكان يعلم أن تلك أفضل وسيلة لإقناع الآخر .. نجح فيما أراد أن ينقله للحضور من قلق

على مستقبل الغابة ، ومساوئ بيع المزرعة ، ثم جلس في هدوء يترقب نتيجة المساجلة بينه وبين الديناصور ..

كان لديه إحساس بالتفوق ، رغم أن الشواهد لا تبدو كذلك .. ولكنها حاسته التي نادرًا ما تخيب..

فجأة شعر بيد تربت على كتفه ، فالتفت إلى صاحبها ، فإذا به الأسد مشجعًا إياه بابتسامة ثقة وفخر .. لم يصدق الثعلب نفسه .. فرك عينيه ، وقال بصوت متحشرج من الانفعال ممزوجًا بالفرحة ، موجهًا حديثه للأسد: هل شاهدت تلك المهزلة ؟! هل ترى ما يحدث هنا ؟!

قال الأسد في حزم : لا تخف ، أنت على حق ، والجميع معك حتى هؤلاء الجرذان ، الذين تراهم من حولك حتى لتحسب من كثرتهم أن الغابة باتت قاصرة عليهم .. فهم معك ، ولكنهم خائفون مرتعشون.. إنها طبيعتهم ؛ لذا أتوا بهم هنا ، وعليك أن تستغل هذا الموقف حتى النهاية لصالحك.. وجه حديثك للدب القطبي .. فقط لا تدخل في مهاترات مع الآخرين ، فتشتت تركيزك وتضيع جهودك..

ذكره الأسد دائمًا بمواقفه القديمة وحفاظه على الغابة.. ثم قال له : أيقظ الأسد الذي بداخلك وسوف يستجيب لك ..

قطع الطاووس حديث الأسد في غوغائية كالمعتاد ، طالبًا منه أن يسمح له بالحديث مرة أخرى ، فهو الذي يدير المزرعة ، وأدرى بشئونها ، وأقدر على حمايتها من الثعلب أو أي حيوان آخر ..

نظر إليه الأسد في استعلاء ، ولم يعلق ، وعاود حديثه مع الثعلب ، وكأن الطاووس غير موجود ..فانشغل الأخير بألوان ريشه ، بعد أن وصلته الرسالة واضحة من الأسد بأن يصمت ؛ لأنه لم يقل خيرًا أبدًا .

كان الديناصور ما زال يعقب على كلام الثعلب ، ورغم أنه كان تعقيبًا ضعيفًا غير مرتب ، بدا فيه الديناصور متلعثمًا مرتبكًا ، إلا أنه كان ينال استحسانًا مزيفًا على وجوه الحاضرين ..فانتهز الثعلب الفرصة ، وقاطع الديناصور فجأة في حدة ، أزالت ابتسامة النفاق من على الوجوه وجعلتها تنتبه ..

طلب الثعلب من الدب القطبي الاحتكام لرأي السبعة الكبار ، والتصويت على بيع المزرعة ؛ فهي من الأمور الحيوية المستحقة للتصويت ، حسبما وصفها الديناصور ، عندما طلب عرضها على مجلس الحكماء ..

تردد الدب قليلًا ؛ فالتصويت يعني هزيمة الديناصور؛ فالسبعة الكبار لا سلطان للدب عليهم.. ولم ينل منهم الديناصور بعد..! وظل يجول ببصره بين الديناصور وضباعه ؛ لعل واحدًا منهم يقول له شيئًا أو يومئ إليه بإشارة تثنيه ، عن إيقاظ الأسد بداخله فلم يستجب له أحد ..تركوه وحده يواجه الموقف ونظرات الوعيد تملأ أعينهم الحمراء .. أسقط في يده ، فليس أمامه الآن إلا أن يوقظ الأسد الكامن في أعماقه فحاول .. ولكنه لم يقو على ذلك ، فالتصاقه بالضباع أتى على ما تبقى بداخله من أسد..!

سادت لحظات من الصمت والجميع في حالة ترقب.

التفت الجميع على صوت زئير قوي ، رجَّ أركان القاعة .. كان الأسد.. وقد وقف شامخًا مهيبًا بصوته الجهوري .. صمت الجميع احترامًا ..أما

الديناصور فقد ازداد انكماشًا في مقعده ، وانزوت الجرذان في الأركان تبحث عن مأوى .. ووضعت الكلاب ذيولها بين أفخاذها خنوعًا ، وأومأت الضباع برقبتها إلى أسفل خضوعًا وخوفًا.. وبات الأسد في المشهد بمفرده، والجميع من حوله أطيافًا غير واضحة ، وكأنهم واقفون في صورة مهتزة بخلفية المشهد..

صال الأسد وجال أمام الحكماء السبعة.. فنَّد مزاعم وادعاءات الديناصور ورفاقه..وكشف وجههم القبيح ، وأزاح قناع الأسد المزيف ، الذي كانوا يتسترون خلفه .. حتى انتهى من حديثه ، فجلس في كبرياء ، منتظرًا رأي الحكماء في ترقب.. متوقعًا في قرارة نفسه أن يؤيدوه ولم تخب توقعاته.. وصفق الجميع في حرارة غير مصطنعة ..ولكن تلك المرة كان التصفيق « من نصيب الأسد » .

* * *

13

حوار مع الأسد

غادر الجميع مجلس الحكماء ..وكان المشهد يبدو غريبًا بعض الشيء .. غير متناسب أو متوافق مع الأحداث ، التي مازالت ساخنةً لم تفتر بعد ، وشهدتها جنبات القاعة البيضاوية بالمجلس .. فالقرود تقفز وتضحك ، والخنازير تبدو كئيبة كعادتها ، والعجول تتثاءب بعد يوم طويل ونوم متقطع بسبب الأحداث الساخنة !!! والحمير تفكر في المرعى بعد عناء الجلسة.. وكأنه كان يومًا عاديًا ..أمر يبعث على اليأس والأسى في آنٍ واحد ..

أما الطاووس فقد خرج وحيدًا يردد كلمات غير مفهومة بعد ما فقد الكثير من الكاريزما لصالح الأسد بعد مشهد النهاية واستقرار المزرعة دون بيع .. بينما سار الثعلب خلفهما ، وعلى وجهه سعادة بالغة بانتصار تحقق ، سيظل دائمًا يفخر بأنه شارك فيه ولو بقدر قليل ..

عندما عاد الثعلب لمقر عمله ، جلس يرتب أفكاره ويستعيد كل ما حدث حتى عودة الأسد ، وكان لديه تساؤل ملح يظل دائمًا عليه برأسه لا يجد له جوابًا مقنعًا ..غادر غرفته ، واتجه إلى حيث يوجد الحصان ، كان في حاجة لمن يثق في الحديث معه .. وما أن جلس على أريكة صغيرة بحجرة الحصان، حتى بادره بالسؤال الملح في ذهنه : لماذا نقتل الأسد بداخلنا بينما نحتاجه

دائمًا..؟! بل إننا في أحيان كثيرة تضيع منا الفرصة ، وقد لا تعود مرة أخرى ؛ بسبب غياب الأسد ، بينما نكون الذين تسببنا في غيابه بأفعالنا وتصرفاتنا منذ البداية .. ثم قفز إلى ذهنه هاجس غريب فجأة ..

هل يشاركنا الأسد في تلك الأفعال ، مثلما قال له الحصان من قبل ؟!

نظر الثعلب إلى الحصان وكله تساؤل .. فقام الأخير من خلف مكتبه، وسار بتمهل في أرجاء الغرفة ، مصوبا بصره للثعلب قائلًا: إذا كان لديك سؤال يحيرك فلدى مثله يؤرقني.. هل يتورط الأسد معنا في عمليات القتل الجماعي ، التي نقوم بها لاغتيال الأسود التي بداخلنا ؟!

لم يكن الثعلب قد سلك هذا المنهج في التفكير من قبل ، فسأله: كيف يقوم الأسد بذلك الفعل المشين؟!

جاءت الإجابة فورًا من الحصان ، وكأنها كانت فكرة حبيسة في عقله : إن الأسد يفسد من بطانته.. ويزول سلطانه عندما يقوى نفوذها.. وينزوي الأسد عندما تباشر تلك البطانة مهام الأسد الرئيسية ..

ويموت الأسد بعد ذلك موتًا بطيئًا مع مرور الزمن ؛ حتى تختار البطانة واحدًا منها ؛ ليحل محله ، بعد أن رأت فيه عن قرب نقاط ضعفه..التي كان فيها مقتله..

عاد الثعلب يسأل وكأنه لا يريد أن يصدق ما يقوله الحصان: وهل الأسد ضعيف ..هل له نقاط ضعف مثلنا ؟

جاءت الإجابة تلك المرة من الحصان أسرع من سابقتها : نعم الأسد قد يضعف أمام نزواته أو شهواته ..ولكنه مخير في ذلك لا مسير ؛ فهو الذي يعطي الضوء الأخضر لبطانته ، كي تقترب منه إلى مسافة لصيقة به .. هو

الذي يجعلها تتخطى الحدود ، وتخترق الحواجز بين كونهم مرؤوسين ، وأن يكونوا أصحاب حظوة وأصدقاء مقربين ..

نحن جميعًا الذين نختار أصدقاءنا .. نقرب هذا ونبعد ذاك ، والبعض ممن يقتربون منا يظهرون لنا بمظهر مختلف فنتخدع فيهم .. نظن أنهم نور لطريقنا ، فنصبح كالفراش الذي يندفع نحو النار فيكتب نهايته بيده ؛ بسبب تهوره ورعونته .. كم من أسود اختارت لها بطانة فاسدة ، وأصرت عليها ، ولم تغيرها.. رغم أن رائحتها قد فاحت ، وأزكمت أنوفًا كثيرة ، ربما كانت أنف الأسد أولها ..

كل ذلك يصيب الأسد نفسه في مقتل ومع تكراره يضعف ويمرض ثم يموت .. وإذا كانت هذه هي حال القدوة ، فما بالك بالمريدين والأتباع .. لن تقوم لأسودهم قائمة ..سيندفعون وراء طموحاتهم وشهواتهم ، بلا وازع من دين أو ضمير.. وسيجدون دائمًا تبريرات لما يفعلون ، أبسطها الظروف القاسية ، التي نعيشها ، وسيقولون لأنفسهم إذا لم أفعل ذلك سيفعله غيري وسيفترسني الآخرون..

ابتسم الثعلب في مرارة من فكرة فساد بطانة الأسد ، وتأثيرها القوي على عرينه وعرشه ومشاركته فيها ، حتى ولو كان ذلك بسلبيته ، وهزّ رأسه يمينًا ويسارًا ، وكأنه ينفض الفكرة عن رأسه قائلًا: ولكن اعلم جيدا أن الحاكم الذي يفسد من بطانته على هذا النحو ، لم يكن أسدًا حقيقيًا وقت اختيارنا له، ونكون نحن الذين قد انخدعنا به فالأسد لا يفسد أبدًا..

أطرق الثعلب يفكر ..ويسأل نفسه ، ولكن ماذا عن رعية الأسد الذين يرونه قدوة فيضعفون ، ويلين الأسد بداخلهم ..لماذا لا يفكر فيهم الأسد ، مثلما يؤمنون هم بقدرته على مساعدتهم ..لماذا لا يتخلى عن شهواته ويغير

بطانته ، عندما تظهر عليها بوادر الفساد ؛ من أجل مساعدة من يحبونه بصدق، ويسيرون خلفه ويتمنون بقاءه واستقراره على عرش الغابة..

ويبدو أن الحصان قد أدرك ما جال بخاطر الثعلب ، فقد لمحه وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ، وكأن لسان حاله يرد على الثعلب بأن فساد الأسد من بطانته وارد الحدوث ، بينما هو لا يريد أن يقتنع..!

أعيت الثعلب الحيلة ، فلم يجبه أحد عن أسئلته بما يريحه .. حتى الأسد نفسه لن يسمح له بالحديث عن بطانته ، فهو يعتبرهم من دعائم عرينه ومظاهر قوته.. وحتى لو سمح له بالحديث عنهم ، فلن يعترف بفسادهم ، فلو فعل فمعناها ببساطة أنه سكت عنهم لفترة سابقة ، ومن الممكن أن يتبادر للذهن أنه فاسد مثلهم ، وهو ما لن يقوله له الأسد أبدًا.. ومع ذلك فالثعلب عنيد أحيانًا لدرجة الغباء ، فقد صمم بينه وبين نفسه أن يلتقي الأسد ، ويدير معه حوارًا حتى ولو كان الأخير.. فقد كان شغوفًا أن يتأكد منه : هل تفسد الأسود حتى تموت ، أم أنها تعيش أبدًا.. ؟؟!!

* * *

وصل الثعلب إلى مقر العرين قرب الصباح.. كان الهدوء يحيط بالمكان، وشعاع النور الخافت يخترقه بهوادة ولين ..ويضفي عليه طابعًا رومانسيًّا، ساعد على إحساس الثعلب به بعض من نسمات رياح خفيفة ، كانت تداعب أغصان الأشجار المحيطة بالعرين ..مع صوت العصافير ، والتي عادت إلى غصونها مع عودة الأسد ، وكأنها تعلن عن ترحيبها بقدومه .. رغم أن العرين مقر حكم رسمي للغابة كلها .. لا مكان للرومانسية فيه على الإطلاق .

في هدوء شديد ، جلس الثعلب وأرهف السمع .. كان يشتاق بشدة لحوار آخر طويل مع الأسد.. كان يفتقد القدوة والمثل الأعلى .. يفتقد الرفيق الحقيقي في حياته بكل جوانبها .. كان ولا يزال يشعر بالوحدة والغربة ، والأغرب أن هذا الإحساس يتزايد وسط الآخرين ، لا بعيدًا عنهم .. وكأن العزلة هي الدواء من داء الاختلاط بالضباع وأشباه الأسود .. كان الثعلب دائمًا في حالة حوار داخلي ، وشاردًا أغلب الوقت .. كان يميل من داخله إلى الوحدة ، ويفضلها على الاختلاط بالآخرين ..

نظر إليه الأسد نظرة حانية .. فقد كان يشعر بما يدور بداخله من أسى ومرارة ، وبصوت رخيم وقور يبعث على الطمأنينة والثقة فيمن يصدر عنه قال الأسد : سأجيبك يا ثعلب عن سؤالك في اختصار .. لقد سألتني : هل يموت الأسد ؟ ورغم أنني قلت لك من قبل إن الأسود لا تموت . إلا أنني اليوم أكاد أرى في عينيك أنك تريد أن تسمع إجابة بنعم ، فأجبني أولًا عن سؤالي ، قبل أن أجيبك عن سؤالك : هل أنا مخطئ في إحساسي؟

الثعلب : لا ، على الإطلاق .. بل أكثر من ذلك أنا مندهش من فراستك، رغم أنني أثق بقدراتك ، ولكن كيف وصلك ما بداخلي بهذه الدقة ؟! أنا فعلًا أريد إجابة بنعم ؛ كي أستريح من عناء البحث عن الأسد الحقيقي ، الذي بداخل الآخرين وبداخلي أنا أيضًا.. أريد أن أكف عن استثارة همم الحيوانات وإخراج الأسد الكامن بداخلهم ويفعلونها هم بمفردهم .. أريد أن أتوقف وأستريح ..لا أبالغ إذا قلت إنني أصبحت أحيانا أتمنى أن أموت، على أن أرى غابتي يحكمها قرد أو فأر ، ربما يحلو له أن يغير اسم العرين إلى «جحر » .. انسابت دموع ساخنة على وجنتي الثعلب ، وهو يتحدث من

فرط انفعاله .. فلم يمنعها فسالت بقيتها ، وكأنها كانت حبيسة ، وما لبثت أن وجدت طريقها إلى الخروج....

الأسد : أنت تريد الإجابة بنعم من كثرة ما شاهدت في وقت قصير ، وأحداث كثيرة متلاحقة كانت جميعها أكبر من استيعابك لها ، ومن قدرتك على تحملها..

إن الإجابة بنعم هنا أشبه بالدواء المسكن للألم .. ينسيك الوجع إلى حين، ويعود إليك بعد ذلك أشرس مما كان.. مثله مثل المخدر يلهيك عن التفكير في همومك ومشاكلك ، بينما يزيدها عددًا في كل مرة ، تتعاطاه فيها دون أن تدري ..لكنني سأكون صادقًا معك ، لن أخذلك أو أخيب ظنك كعهدي معك دائمًا ..

الحقيقة ، أن الأسود لا تموت مثل بقية الحيوانات ، فهي كما اختلفت عنهم جميعًا في حياتها ، فصارت ملوكًا تحكم غابات الدنيا فقد اختلفت أيضًا في مماتها ..الأسود تنزوي أحيانًا ، ولكنها لا تختفي ..تتراجع ولكنها لا تتقهقر ..تضعف وتشيخ ..ولكنها لا تموت أبدًا.. ولكن لا تفهم حديثي بأنني الذي يجب أن أحكمك واقودك دائمًا ، بل الصحيح أن تختار أنت وعشيرتك من له مواصفات الأسد ، بغض النظر عمن يكون هذا الأسد ..

رد الثعلب مقاطعًا بحدة : هل تنزوي الأسود وتتراجع بسبب بطانتها ؛ الفاسدة حتى يطويها النسيان.. وتعتمد على كاريزما ، فطرت عليها لتتذكر الحيوانات محاسن أعمالها ..؟!

قال الثعلب جملته الأخيرة في تحد واضح مشوب بنبرة تهكمية..

قطب الأسد جبينه وانتفض ، وكأنه يخوض نزالًا بدنيًا مرهقًا ، يستعد فيه لتوجيه عدة ضربات متتالية ساحقة إلى خصمه ، وقال : يجب أن يحكم الغابة أسد ، ولا يحكمها غير من له صفات الأسد .. والأسد الحقيقي بداخلك وداخلي ، وداخل أي حيوان له صفات الشجاعة والإقدام ..العدل والمساواة ..الجرأة وعدم التردد ..الحسم والحزم دون قسوة أو ظلم .. الرحمة بغير تهاون أو تقصير ..

أنا معك إن كاريزما الأسد قد تعمي العيون أحيانًا ، وتبهر كومضات خاطفة سرعان ما تزول.. فلم نعد كما كنا من قبل خمسين أو أربعين عامًا، ننبهر بالشكل والشعارات على حساب المضمون والعمل الحقيقي.. ولكن كاريزما الأسد الآن تكمن في قوة شخصيته في صفاته ، في تأثيره على الآخرين، في قدرته على تحقيق إنجاز حقيقي ..الأسد فكر وقوة شخصية وأسلوب إدارة .. وقدرة على اتخاذ القرار الصحيح.. مضمون حقيقي عميق، لا شكل مبهر يخطف الأبصار ، ثم تكون النتائج على غير المتوقع دائمًا، فتكون الصدمة وخيبة الآمال من نصيب من بايعوه واختاروه، وساروا خلفه ، مهللين مصفقين ..

أما موضوع البطانة الفاسدة ، فهو أحيانًا قد يحدث ، ولكن لا يكون الأسد متعمدًا له بقدر ما يكون قد أصابه يأس من آخرين حوله ، فلجأ إلى بطانة لم يكن يعلم أنها ستفسد بقربها منه ..!! وإذا ما ظهرت بوادر فساد بطانة أسد ، فعليه أن يعزلها فورًا أو أن يعتزل هو.. هل فهمت ؟؟

الثعلب مقاطعًا بحدة أكبر مع مسحة من ابتسامة استنكار ، بدأت تكسو وجهه : ولكن أحيانًا الأسود تفتن مرؤوسيها ورعاياها ..ثم يأتي وقت

يتقلص دورها وتنزوي ، فتكون صدمة الانزواء والاختفاء إلى أن يأتي أسد جديد.. فإذا لم يظهر تحولت الصدمة إلى مأساة. . وإذا ظهر أشباه الأسود بدلًا من الأسود التي عزلناها وسادوا الغابة وحكموها ..تحولت المأساة إلى فجيعة، والتاريخ مليء بالدروس ولكن لا أحد يتعظ .. ونحن انخدعنا كثيرًا كما تعلم .. ومازلنا ..!!

* * *

والآن أريدك أن تجيبني عن سؤالي : هل كاريزما الأسد تظل تعمل إلى حين ثم يموت الأسد ؟؟ هل لكل منها فترة وميض ، تطول أو تقصر ، ولكنها إلى زوال وتبقى ذكرى الأسد حتى يطويها النسيان ، ويأتي أسد غيره يكمل المسيرة ، ويصحح بعض الأوضاع التي تكون قد شاخت ، فانحنت وتحتاج إلى من يعتني بها ، ويبعث فيها الروح والحياة ؛ حتى يشتد عودها وتصلب من جديد ؟!!

وإن لم يأت أسد جديد ، ماذا نحن فاعلون ..أجبني عن تساؤلاتي..

أجاب الأسد في هدوء : أنت مخطئ ، وذهنك مشتت وأفكارك غير مرتبة من فرط انفعالك وتوترك ؛ فالتاريخ لم ولن ينسى الأسود يا بني .. فهي لا تموت أبدًا .. كل الأبطال ممن مروا بتاريخنا كانوا أسودًا ، وأنت عرفتهم من تاريخهم ، ولو كان كلامك صحيحًا ما كنا سمعنا بهم وعنهم أبدًا ..وكل منهم كان يؤدي دوره كأسد ، فلم يخذل رعيته ولم يخذلوه ..

الأسد الحقيقي ، لا يموت أبدًا ؛ لأنه بداخلك ، وأنت تختاره لا يفرض عليك أبدًا.. فالأسد الحقيقي هو الذي تأتي به جموع الحيوانات.. لا أن يكون

خرتيتًا أو ضبعًا ، يفرض عليهم على أنه أسد.. فلا تكل ولا تمل ..لا تيأس وتحبط ، فتهبط عزيمتك وتفتر همتك ؛ فتنساق وراء الدهماء والسوقة ، فيهبطون بك إلى عصر الدهموس ، ويجرونك إلى زمن الضباع ، ويعودون بك إلى عصور الجهل والتخلف ، فتموت ، ولا يحتمل ما بداخلك من أسد حقيقي عهود الظلام ، وهو الذي لا يحيا إلا في عصور التنوير ..

انهض واستكمل ما بدأت من حيث توقفت ، أو ابدأ من جديد ، ولا تعطي لتيار التخلف الفرصة أبدًا لأن يجرفك.. فقط راقبه بحذر وتعلم من أخطائه .. انتقده وانبذه وقاومه دائمًا وأبدًا ..واجعل الأسد الذي بداخلك في اتجاه واحد خروج فقط .. لا تسمح له أبدًا بالسير عكس الاتجاه..!

ثق في قدراتك واقنع بما أتاك وأطلق لطموحاتك العنان محاطة بسياج من إيمان وإخلاص في عملك وضمير يقظ ، يحاسبك في كل خطوة قبل أن تخطوها .. وانحز دائمًا وأبدًا لمبادئك إذا ما تعارضت مع طموحك ، حتى ولو لم يكن لديك غطاء اقتصادي ، يعينك على تحمل ذلك.. وتأكد أن كل من بداخله أسد يراقبه الآخرون ، ممن حرموا منه أو مات منهم بأفعالهم وإهمالهم لأنفسهم ، سواء عن جهل أو قصدوا ذلك فضلوا الطريق.. هؤلاء دائمًا يراقبونك ، وقد يتمنون سقوطك لبرهة .. ومع صمودك وإصرارك على الاستمرار والتصحيح ، سيسيرون خلفك وسيسعون جاهدين لتغيير أنفسهم ، وإن لم يستطيعوا ، سيكتفون بالأسد الذي بداخلك .. وهي اللحظة التي إن وصلت إليها سترضي غرورك ، وتعمل جاهدًا على الحفاظ عليها ما حييت ؛ من أجلك ، ومن أجل من أصبحوا يسيرون وراءك ؛ فيحفظ لك التاريخ ما فعلت ويخلد اسمك وأفعالك إلى الأبد ..

هل فهمت لماذا لا يموت الأسد ؟

الثعلب متوترًا : إلى حد ما.. ولكن حديثك اليوم أشبه بنصائح مكررة .. أنت تتحدث كثيرًا عن ضرورة إيماني واعتقادي ، فيما أعمل وفيمن أعتبره قدوة .. وطلبت مني الصمود والاستمرار ، ونسيت أو تناسيت في غمرة حماسك ، أو ربما متعمدًا لكي تكتمل صورة الخطيب ، التي أنت عليها الآن .. إنني فقدت كل مقومات الأسد بداخلي ، وفاقد الشيء لا يعطيه..

أنا يائس ومحبط وشبه محطم ، الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ .. وأحوال الغابة في تردٍّ شديد ، والغريب أننا نفعل ذلك فيها بأيدينا ، دون أن يطلب منا أحد هذا الأمر .. ولو كان ألد أعدائنا هم الذين يقودون غابتنا ما فعلوا فيها ما فعلنا .. فهل تحالفنا على الشر والأذى إلى هذه الدرجة ..

ثم منذ متى ، وأنت ترتدي رداء الواعظ ، وهو زمن ولى وانقضى .. الآن زمن الفعل ..زمن العمل.. زمن التقدم والعلم .. لا وقت الشعارات والخطب التي تلهب المشاعر .. أنا أصدقك ومقتنع بما تقول ، ولكني يائس إلى أقصى حد ، أنت نفسك أخطأت في سنواتك الأخيرة ، وساعدت الضباع على النيل منك .. ألا تتذكر ؟!

أجاب الأسد وكأنه لم يسمع الجملة الأخيرة : وهل صمتي أو تجاهلك سيزيل يأسك من داخلك ؟!

الثعلب في خجل : لا .. فأنا كنت أحتاج إلى الحديث مع أسد..على الأقل أشعر الآن أن هناك من يقف بجانبي .. من يؤنس وحدتي .. من يعيدني من غربتي في نفسي .. في وطني .. في غابتي ، بعد أن أصبحت أشعر بالوحدة

أكثر من أي وقت مضى .. وأخشى يومًا ، أفقد فيه القدرة على التواصل مع الآخرين..

الأسد: إذن أنا على حق.. أنت تحتاج إلى أسد ، سواء كان بداخلك أو بداخل غيرك .. وكلنا مثلك .. نحتاج لمن يأخذ بيدنا لمن ينصحنا لمن يدلنا على الطريق الصحيح.. لمن يقول لنا الحق .. لمن ينبهنا لمن يصدُقنا القول حتى ولو لم يكن يحسنه.. نحن نحتاج إلى من يدق لنا هذا الناقوس دومًا ، حتى لو كنا لا نحب أن نسمعه ؛ فإننا نشتاق إليه ونفتقده ..

أنا أشعر بك تمامًا وبما يدور بداخلك .. أعلم أنك تتمزق لما آل إليه حال غابتنا .. لقد ساد العنف مجتمع الغابة ، وتدهورت القيم الاجتماعية ، وزاد الاغتراب .. ثلاث مصائب حلت بغابتنا ، ربما أكون أنا قد تسببت فيها في السنوات الأخيرة ، حسبما تقول.. ولذا فقد آثرت الانسحاب في هدوء ؛ على أمل أن تختار وعشيرتك أسدًا جديدًا يحاول إصلاح ما أفسدته الضباع وما أكثرها.. خذ عندك بعض الأمثلة .. لقد تدهورت قيمة العمل لأقصى درجة، فالغالبية تريد أن تكسب وتحصل على حوافز دون عمل حقيقي .. ولا أبالغ إن قلت لك إنني رأيت من يريد مكافأة على عمله العادي الذي يقوم به ، والذي لا يتقنه في الوقت نفسه ! وهي كما ترى أمور جسام.. يكفي أمر واحد منها لانهيار غابة فما بالك بثلاثة ؟

الثعلب : ومن أين يأتي إلينا العنف بهذه الصورة المخيفة ؟

الأسد : من أنفسنا ولأسباب كثيرة ، خلاصتها اليأس الذي يؤدي إلى التطرف في كل شيء ..في السلوك وفي الأفكار وفي المشاعر .. وطبيعي أن يكون العنف نتيجة منطقية لذلك ..لقد فقدنا القدرة على الحوار.. على المواجهة ...على المناقشة الموضوعية ..على الاستماع للآخر ..

أصبح أسهل ما نفعله أن نتطاول على هذا الآخر ، وكأن سحقه هو مهمتنا وغايتنا.. أضف إلى ذلك سيادة روح القلق والتوتر ، أغلب الوقت، مع إحساس شبه جماعي بالاغتراب الاجتماعي.. بأن يتملكك إحساس ويسيطر عليك شعور قوي ، بأنك لا ولن تستطيع السيطرة على مصيرك ، أو أنك لا تملك زمام أمورك.

الثعلب : ربما يكون ما تقوله صحيحًا ، ولكني أشعر بأن هناك أمورًا أخطر... لقد غابت سيادة القانون وأصبحت شعارًا قديمًا باليًا ، لا يتذكره أحد الآن ..حتى الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية ، لا نحصل عليهما مجتمعتين أو مكتملتين.. دائما ما نختار إحداها.. إما العدل الاجتماعي ، أو الحرية السياسية .. وفي النهاية لا نحصل على أي منها مكتملة ..

الأسد : معك حق ، ولكن أيضًا نحن الذين نفهم الحرية خطأ .. نفهمها على أنها فوضى ، أو أنك حر .. تقول ما شئت في أي وقت ، وفي أي موضوع، دون سند يؤيدك ، فيتحول الأمر من نقد إلى سباب .. ومعك شماعة جاهزة لتعليق أخطائك ، اسمها الحرية والنقد والشفافية والديموقراطية .. وللأسف كل هؤلاء لا علاقة لهم بها.. هناك خيط رفيع يفصل بينها ، ولكننا نتجاوزه عمدًا أحيانا ، وفي أحيان أخرى عن غفلة ..

إن غياب العدالة الاجتماعية وانعدام الحرية السياسية أحد أسباب التدهور، الذي تعيشه غابتنا الآن.. هما البيئة الخصبة لظهور الضباع والثعابين، وأفراس النهر ، والكلاب والقرود ، وما على شاكلتهم .. ولكن الأخطر من وجهة نظري هو غياب النقد الذاتي .. هذا هو الذي نفتقده فعلًا ، ولم نتعلمه حتى الآن .. نحن ننتقد الآخرين وبشدة وأحيانًا كثيرة بقسوة .. ونجد متعة وراحة نفسية في ذلك ..كما يحلو لنا أن نسفه عمل الآخرين ، ونسخر منهم ،

بل نغالي حتى نصل إلى الشماتة ، فيما قد يصيبهم من مصائب.. وفي معظم الأحيان نتطاول عليهم دون مبرر موضوعي ، وكل ما نفعله نسميه نقدًا..!!

بينما لو أننا كنا نمارس النقد الذاتي لأنفسنا ، لاختلف الحال ، ولتوقفنا كثيرًا قبل أن نتفوه بكلمة جارحة ضد هؤلاء الآخرين .. ومن المؤكد أننا كنا سنتقدم خطوات كبيرة إلى الأمام ، في وقت قصير .. إن هذا هو الفارق بيننا وبين غابات أخرى ، يمارس مسئولوها النقد الذاتي لأنفسهم .. فيعرفون متى أخطأوا ، ولماذا أخطأوا ولديهم الشجاعة لأن يقولوا ذلك ، ولديهم أيضًا ثقافة الاعتذار وجرأة ترك المنصب للإحساس بالمسئولية . . . ولا تنس أنهم يعملون في إطار من شفافية حقيقة ..

هذا الأمر ستجده عندما يقودك أسد.. وهو الأمر نفسه أيضًا الذي ستفتقده عندما يغيب عنك الأسد ..

أنا أعلم أنني تحدثت كثيرًا ، ولكنني على الأقل نجحت في أن أجعلك تشعر بنفسك ..تبكي.. تتحدث .. تصرخ .. تثور .. بدلًا من أن تكون يائسًا سلبيًا محبطًا.. هنا تكمن كاريزما الأسد الحقيقية في أنه لا يموت أبدًا ..هل أدركت هذه المرة ؟!

الثعلب وقد غطت وجهه ابتسامة ثقة : نعم أدركت..

ثم هب واقفا محييًا الأسد في حرارة ، وغادر العرين في خطى متثاقلة ، وكأنه كان لا يريد أن يبارحه .. ولم يكن يدري للأسف ماذا يخبئ له القدر من مفاجآت.

* * *

14

المحاكمة

خرج الثعلب من العرين ، والظلام يلف المكان في كآبة غير مبررة.. فرغم حديثه مع الأسد ، كان يشعر بانقباض غريب ، ربما تكون بوادر مرض الاكتئاب.. كان غارقًا في الأفكار ، التي تتزاحم وتقفز في رأسه كفئران كثيرة ، محبوسة في قفص ضيق صغير .. لا يعرف من أين يبدأ ، ولا كيف يستمر ..

كان الثعلب يشعر أنه كمن تلقى جرعة علاج زائدة ، قد تضره أكثر مما تعجل بشفائه ... مزيج من الأسى والشجن والحزن والألم.. وأحيانًا بصيص من الأمل لغد أفضل .. أعجبته فكرة النقد الذاتي ، وقرر أن يمارسها بجدية لا بحماس في البداية ، ثم يعقبه فتور عظيم .. مثل كل شأن من شئوننا..

توجه إلى مكتبه بإدارة المزرعة على أطراف الغابة ، وما إن وصل ، وكاد يعبر البوابة الرئيسية الصغيرة ، حتى استقبله ذكر نعام ضخم .. كانت تربطه به صداقة على مدار سنوات عمله بالمكان .. صافحه ذكر النعام ، وعلى وجهه ابتسامة رقيقة ، وهو يتقدم نحوه نافشًا ريشه.. لاحظ الثعلب معها أنه يتعمد أن يضع جسمه كله أمامه ، وكأنه يستوقفه ويمنعه من دخول المزرعة ؛ مما أجبر الثعلب بالفعل على التوقف ، ونظر إليه في انتظار الإجابة عن تساؤل مكتوم من جراء تصرف ذكر النعام ..

فهم الأخير على الفور من قسمات الثعلب أن الرسالة وصلت ، فكان مباشرًا .. إذ أخبره أن مكتبه قد أغلق ، وأنت جميع أعماله قد أسندت صباح اليوم إلى ضفدع صغير ، كان يعمل في مستنقع قريب من المزرعة ، والتقى به الطاووس مؤخرًا وأعجب به وبفصاحته ، فأسند إليه جميع مهامك !!

تعجب الثعلب ..فمن هول الصدمة لم يستطع أن يقطب جبينه أو يحرك عضلات وجهه أكثر من ذلك ؛ حتى يعبر عن عميق اندهاشه وغضبه ، وظل يحملق في وجه الطائر ، الذي أمامه في ذهول لعله يخبره بأنه كان يمزح معه ..إلا أن ذكر النعام لم يحرك ساكنًا .. وأمام نظرة الأسى في عيني الثعلب، قال ذكر النعام بصوت حزين ، بعد أن طوى ريشه ، وهو يدير وجهه باتجاه مدخل المزرعة : أنا أردت فقط أن أُهون عليك الأمر ؛ حتى لا تسمعه من غيري ، وقد يكون شامتًا فيك ..وإنما إن كنت تريد الدخول فتفضل ، فلا أستطيع أن أمنعك أبدًا ..

خرج صوت الثعلب من أعماقه متحشرجًا ، وكأنه كان يفكر بصوت عال، لا يسأل فقال : وماذا أفعل الآن ؟ تحمس ذكر النعام للإجابة ، وقال في حماسة : ادفن رأسك في الرمال مؤقتًا ؛ حتى لا يراك الآخرون على هذا الحال!! قالها ثم تركه وانصرف..

ظل الثعلب واقفًا في مكانه ، مترددًا ما بين صعوده لمكتبه ، وإيثار السلامة والانصراف .. لم تطل حيرته كثيرًا ، فلقد قطع تردده ظهور الطاووس فجأة أمامه ، وخلفه مجموعة كبيرة من طيور الزينة ، تحلق فوق موكبه .. لاحظ الثعلب أن ألوانها تبدو باهتة ، عما هو معتاد بالنسبة لفصيلتها ، كما أن بعضها كان متكررًا ؛ فقال لنفسه يبدو أن الطاووس يختارها بعناية ؛ حتى لا تلفت

أنظار الآخرين إليها فيركزون عليه أكثر .. بدأ يتأهب للقاء الطاووس ، الذي رسم ابتسامة على وجهه من بعيد ، عندما وقعت عيناه على الثعلب بمدخل المزرعة.

* * *

صافحه الطاووس بحرارة شديدة ، على غير المعتاد ، وقال له في حدته المعهودة : لقد أتينا بضفدع عظيم من إحدى المستنقعات القريبة من المزرعة؛ ليتولى عملك مؤقتًا ، وهو على دراية كبيرة بشئون عملنا لقربه منا ، وهذا بالطبع لحين أن نجد ثعلبًا عظيمًا مثلك وفي كفاءتك ، أو أن ترشح لنا أحدًا بمعرفتك .. ثم وضع يده على كتف الثعلب ، وقال : كما وأننا نهنئك على منصبك الجديد .. لقد أخبرني كبير الضباع أمس أنه قد تم إعادتك إلى وظيفتك بالجزيرة المركزية ، ولقد طلب مني أن أجعلك متفرغًا تمامًا لهذا العمل ، وهو الذي رشح لي هذا الضفدع الجديد ..

تنبه الثعلب لحركة أسفله ، ولاحظ أن الضفدع يسير بين قدمي الطاووس، ويقفز فرحًا مع أنه لا يكاد يُرى بالعين المجردة من فرط ضآلته ..

اختتم الطاووس حديثه بابتسامة صفراء للثعلب ، لحقتها ابتسامات مماثلة لطيور الزينة المحلقة فوقه ، ثم انصرف الطاووس ، في عجالة ، داهسًا الضفدع الصغير في طريقه ، دون أن يدري.. فقضى على مستقبله قبل أن يبدأ حاضره بالمزرعة !

بينما كانت طيور الزينة تحلق فوق الطاووس ، في دوائر ، وكأنها في استعراض !!!

ظل الثعلب على حاله ، وكأنه قد تسمر في هذا المكان منذ أن وطأه بقدميه منذ بضع دقائق.. لم يكن مصدقًا ما قاله الطاووس على الإطلاق ، ولم يكن متقبلًا أن يتم إنهاء عمله بهذه الصورة المهينة للمرة الثانية ، وكأنه يلقى جزاء سِنِمَّـار دائمًا .. شعر بأن قدميه لا تقويان على حمله ، فارتكن إلى الدرج كحيوان مسن ضعيف ، أحنى الزمن ظهره ، ثم أراح جسده بالاستلقاء فجأة ، بعد أن كان يرتكز بكلتا يديه على الدرج حتى لا يسقط .

جلس الثعلب يفكر ، ولكن في شرود غريب ، فكان كمن يبدو مشغولًا بالتفكير بينما ذهنه فارغ .. كانت أفكاره مشوشة متداخلة لا يعرف من أين يبدأ ، بل كان لا يستطيع أن يقف على بداية المشكلة ؛ حتى يجد لها حلًا ، وكأنما المصائب أتت مجتمعة وانصبت على رأسه في وقت واحد ، فباغتته وشلت حركته تمامًا..

كان الإحساس الأقرب إليه في تلك اللحظة هو إحساس بالعجز الشديد، فاستسلم له في هدوء ، دون أدنى مقاومة .. قطع الصمت الذي كان يغلف وحدته رنين هاتفه .. تفحص الرقم الذي ظهر له .. كان يعرفه ، ولكن لم يستطع تذكره .. فقرر على هدى هذا الشعور أن يستقبل المكالمة ..

على الطرف الآخر ، سمع صوتًا خشنًا متحشرجًا أشبه بالزمجرة ، ووجد صعوبة كبيرة في البداية في تذكره أو التعرف عليه .. أخيرًا عرفه كان أحد معاوني كبير الضباع المعروف بالضبع المرقط ، ومع تذكر الاسم .. قفز إلى ذهنه الشكل مثلما يحدث لنا دائمًا..!

كان ضخم الحجم ذا لون أصفر ، يميل إلى أن يكون أجرب نوعًا ما من كثرة تعرضه لشمس البراري ، التي كان يعيش فيها ، قبل أن يحتضنه كبير

الضباع ويقربه منه ويجعله من بطانته .. ويا لها من بطانة وكانت تنتشر ، بجسد هذا الضبع ، بعض البقع السوداء المميزة لفصيلته .. كان هذا الضبع أحد الذين أمضوا سنوات طويلة بإدارة التحقيقات بالغابة ، ولا يزال يعمل بها كان فظًا عنيفًا ، اشتهر بالقسوة في المعاملة دائمًا وبالظلم ، إذا ما أمره كبير الضباع بذلك !!!

أجاب الثعلب محدثه بهدوء قائلًا : نعم ..ردًا على سؤاله بهل هو الثعلب الذي يتلقى المحادثة .. وفي عبارات مقتضبة ، ودون أدنى تفاصيل ، حدد له الضبع المرقط موعدًا بعد ساعة من الآن بالإدارة لأمر عاجل ، لا يحتمل التأخير ، ثم أنهى المحادثة ؛ مؤكدًا عليه أنه في انتظاره بمفرده ..

ولم ينتظر من الثعلب جوابًا أو حتى يستمع منه إلى سؤال.. وبدا المشهد بعد تلك المحادثة أقرب إلى المأساة ، فقد كان الثعلب يبدو ، وكأنه مريض نفسي ، ممن تراهم هائمين على وجوههم بالطرقات ، يحدثون أنفسهم بعبارات غير مفهومة .. فقد ظل ممسكًا بهاتفه ، رافعًا يده به إلى أعلى أمام عينيه المفتوحتين في بلاهة ، وقد ارتسمت على وجهه أمارات التعجب ، فاغرًا فاه في دهشة ، فبدا يشبه من تعرض لصدمة كهربية .. ثم راح يتمتم بعبارات بصوت خفيض غير مسموع ، وكان ذلك من حسن حظه ؛ فهي مما يعاقب عليه القانون في مثل هذه الأحوال ، حتى ولو كانت تمثل سبًا في حق ضبع ، لا يمكن أن ينال مدحًا في أي زمان من الأزمنة ..!

وظل الثعلب على هذا الوضع ، حتى قاربت مهلة الساعة ، التي منحها له الضبع المرقط على الانتهاء .. فهب من مكانه واقفًا ليواجه مصيره المجهول .

* * *

مبنى إدارة التحقيقات بالغابة من الأماكن البغيضة على نفسه ، سواء من حيث التكوين المعماري أو حتى العاملين به ، أو طبيعة العمل نفسه.. حتى في أزهى عصور الأسد ، كان لا يحب هذا المكان .. في الماضي ، كان يتولى تلك الإدارة نمر إفريقي ضخم الحجم بصورة ملحوظة ، برتقالي اللون ، ذو خطوط سوداء داكنة على جسده ، يعاونه في الإدارة والتحقيقات مجموعة من الضباع والفهود ، وكانت الأخيرة تتولى التحقيقات وجميع الجوانب الفنية ، بينما تُركت الأمور الإدارية للضباع..

وعندما تولى كبير الضباع مقاليد الأمور ، في أواخر عصر الخرتيت ، انقلب الوضع فصارت الضباع تتولى الأمور الفنية ، بينما تركت الأمور الإدارية للجرذان!!! وأصبح من المتعارف عليه في زمن الضباع أن من يدخل هذا المكان لا يخرج منه ، كما دخله أبدًا .. لابد وأن يصيبه مكروه ما.. على أقل تقدير جرح غائر في النفس ، لا يداويه الزمن ، ولا يعالجه مرور السنين.

وصل الثعلب متأخرًا عن موعده قليلًا على غير عادته ، ربما لأنه كان مهزوزًا متوترًا .. ومن فرط قلقه لعدم فهمه ما يجري له من أحداث متلاحقة متتابعة ، كاد يتعثر أكثر من مرة ، أثناء دخوله مبنى الإدارة الكئيب .. استفسر عند دخوله من ضبع صغير عن مكتب رئيس الإدارة ، فأشار له بأن يستمر في السير حتى نهاية الممر الطويل المظلم ..!

مضى الثعلب في طريقه بخطوات متثاقلة ، كانت متعرجة في أحيان كثيرة ، كان أثناء سيره ، وكأنه يرى شريط الأحداث الأخيرة يمر من أمام عينيه ، ولكن بحروف صغيرة ، ترهق من يحاول قراءتها مثلما يحدث لك ، عندما تتابع شريط الأخبار العاجلة أمام جهاز التليفزيون..!

وصل الثعلب إلى نهاية الممر .. كان باب الحجرة خشبيًا قديمًا مرتفعًا إلى قُرب السقف وجد حمارًا وحشيًا جالسًا فيما يبدو لحراسة الحجرة ، فطلب منه أن يخبر سيده الضبع المرقط بأن الثعلب قد وصل ..

أشار له الحمار الوحشي ، في برود وصلف ، وهو جالس في تراخ بأن يدخل ، فالضبع المرقط في انتظاره ، وأنه هو الذي قد تأخر عن موعده ، فنظر إليه الثعلب شزرًا ، فكيف يجرؤ حمار حتى ولو كان وحشيًا أن يحدثه بهذه الصورة ..إلا أن الأخير أشاح بوجهه بعيدًا منشغلًا بالجريدة ، التي يقرؤها متجاهلًا الثعلب تمامًا..

ابتلع الثعلب الإهانة ، وفتح الباب في هدوء ، ثم دخل الحجرة ببطء .. كانت واسعة جدًا .. شبه خالية من الأثاث أركانها الثلاثة ، تنبعث منها إضاءة خافتة ، بينما يستقر الضبع المرقط في ركنها الرابع ، فلا تقع عيناك عليه لأول وهلة عند دخولك ، وكأنه يتعمد أن يفاجئك ..

أشار له الضبع المرقط بأن يجلس ، وما إن جلس .. حتى باغته على الفور بسؤال مباشر وبلهجة ، لا تخلو من حدة : ماذا قصدت بما كتبته ؟

كان السؤال مفاجئًا ومباغتًا بالفعل .. لم يجب الثعلب على الفور كعادته، وإنما حاول أن يتماسك قليلًا .. وقبل أن يسأل السؤال المنطقي عن « ما هو الذي كتبه» ، واستدعى استدعاءه إلى هنا ، حتى أردف الضبع قائلًا : لقد فتشنا بيتك اليوم ، وعثرنا به على أوراق بخط اليد بعنوان مذكرات ثعلب .. سنوات في حكم الغابة .. تتضمن وصفًا ونقدًا لحال الغابة ، منذ أن تولى الخرتيت قيادتها حتى حكمها كبير الضباع ..

* * *

كادت المفاجأة تشل الثعلب .. لماذا فتشوا بيته ، وما هي تهمته حتى يؤذن بالتفتيش .. ثم لماذا أسقط الضبع من حديثه أن الأسد قد عاد ملكًا للغابة ، ولماذا توقف عند مرحلة حكم كبير الضباع؟!

شعر لوهلة بسيطة أن دوارًا خفيفًا قد لحق به ، وخيل له أنه يرى الضبع مزدوجًا ففرك عينيه عدة مرات ..ثم استأذن الضبع ليطلب له فنجانًا من القهوة ، وأن يسمح له بتدخين سيجارة ، لعلها تعينه على ما هو فيه ..

رفض الضبع في حدة وفظاظة قائلًا : نحن لا نستضيفك هنا ، لنجري معك حوارًا ، حتى تطلب أن تشرب فنجانًا من القهوة وتُدخن ، ثم تنفث دخان سيجارتك ، وتضع ساقًا على ساق ، وتفكر قبل أن تُجيب .. نحن هنا نستجوبك ونحقق معك ..أنت متهم بازدراء وتحقير قيادات الغابة ، وعليك أن ترد بإجابات واضحة ، لا مكر فيها أو خداع واحذر أن تأخذ وقتك في التفكير .. أجب الآن وفورًا ، ولا تحاول الكذب فلدينا من الوسائل ما يجعل لسانك ينطلق بالحديث بلا توقف ، فلا تجبرنا على استخدامها معك احترامًا لنفسك ولمكانتك بالغابة ..

استنفرت حدة الضبع وتهديداته القوة الكامنة بداخل الثعلب ، وبدأ يستدعي الأسد القابع بداخله ؛ ليخرج ، فرد بالحدة نفسها متعمدًا أن يكون صوته عاليًا أشبه بالزئير: إنني أُريد أن أتحدث إلى الأسد فورًا .. لن أُجيب عن أي أسئلة إلا بموافقته على ما يجري لي هنا ، وأريد أن أسمع منه ذلك ..

قالها ثم وضع ساقًا على ساق في تحد.

ابتسم الضبع في خسة ووضاعة ، وغادر مقعده في بطء متعمد .. حتى استقر على حافة المكتب قائلًا : يا عزيزي ، أنت تبدو مغيبًا ، فيما يبدو الأسد

الآن يملك ولا يحكم .. لقد عاد لمهمة معينة وقت بيع المزرعة ، ولم ينفذ ما طلب منه بالموافقة على بيعها ، بل بالعكس كان سببًا في إيقاف البيع ، وبعدها تم اعتباره رمزًا شرفيًا للغابة.. وما زال كبير الضباع هو الذي يحكم فعليًا ، وبالتالي .. لن ينفعك الأسد ولا غيره ، فيما أنت فيه الآن..

كما أنني نسيت أن أخبرك أنك رهن الاعتقال بأمر من كبير الضباع ، وقد رأينا عدم استخدام القوة في تنفيذه ؛ لأننا نعلم أنك عاقل ومتزن ، وسوف تأتي من تلقاء نفسك عند استدعائك ، وسوف تشرح لنا بإرادتك الحرة طبعًا نواياك وأفكارك ، التي دونتها في مذكراتك .. والتي تأكدنا أيضًا من أنها دونت بخط يدك .. وكما ترى فإن وجودك هنا قانوني والأسد ، الذي تتحمس له دائمًا كان يطبق القانون على الجميع ، أم أن لك رأيًا مخالفًا لما أقوله ..

صمت الثعلب ، وقد عاد إليه ذهوله مرة أخرى .. فاستطرد الضبع المرقط: والآن أجب عن أسئلتي ، قبل أن ينفد صبري وأجهز عليك..

حملت نبرة صوت الضبع المزيد من التهديد والوعيد ، ويبدو أنه كان جادًا فيما يقوله ، أو على الأقل فإن لديه الصلاحيات لأن ينكل بالثعلب لأقصى درجة ..

لمعت عينا الثعلب ، وقال لنفسه : إذا لم يكن أسد الغابة سينفعني .. فما زال لديَّ أسد أقوى بداخلي ، وحان وقت خروجه ، وإلا فليمت إلى الأبد إن لم يخرج الآن ..

عاد الثعلب برأسه إلى الوراء ، ثم اعتدل وجلس على شكل زاوية قائمة، مستندًا بيديه إلى مسندي مقعده ، وقال في ثقة وثبات: نعم.. أنا كتبت وصفًا

لحال الغابة ، منذ أن ابتليت بالخرتيت .. حتى أفرزت لنا كبيركم ضبعًا كئيبًا فاسدًا ، أتى بأمثالك لقيادة هذا المكان ، وأتى بمن هم دونك ليتولوا مسئوليات أكبر وأخطر .. لقد أشفقت على غابتي من أن يسودها أمثالكم من أشباه الأسود .. بينما تلين الأشبال وتضعف في أطوار نموها الأولى ؛ حتى تشيخ مبكرًا وتموت كمدًا وحسرة على غابتها ومملكتها ، التي هي أولى بها منكم .. فعلى الأقل هي فطرت بغريزتها على القيادة ، وتولي مقاليد الأمور .. بينما أنت وأشباهك لا تقوون حتى على مجرد اتخاذ قرار بالتبول ، قبل أن تستأذنوا من رئيسكم ..

نعم .. أنا كتبت ما رأيت وما عايشت من تزييف للواقع ، وقلب للحقائق، وتضليل للرأي العام بالغابة.

نعم .. أنا كتبت عن البطولات الوهمية ، التي روج فيها الخرتيت وكبير الضباع والطاووس ، ومن على شاكلتهم.. أنهم قاموا بها ، بينما هي لم تحدث إلا في خيال منافقيهم ، الذين صاغوها لهم .

نعم.. أنا سطرت بيدي نقدًا لمن سميتهم الأسود الكرتونية ، التي ملأت غابتنا ، بدءًا بفرس النهر ومرورًا بطاووس العرش ، وانتهاءً بجرو صغير ، صار كلبًا .. حتى القردة أصبح لها طموح في مناصب قيادية من كثرة تهليلها لعديمي الموهبة من أمثال رؤسائك .. فقد أصبحت طامعة في غابتنا من كثرة ما صنّعت من أشباه أسود ، وغلفت صناعتها بضجة إعلامية دون مضمون حقيقي ؛ حتى تضل جموع الحيوانات وتخدع فتحسبها أسودًا ..

لقد أغرقت القردة غابتنا بتلك الأسود الرديئة ، فهيأ لها خيالها المريض - بما صنعت من أسود إعلامية صدقتها الحيوانات - أن تقول لنفسها ولم لا ؟ لماذا ، لا نتصدر نحن معشر القردة المشهد ، ولو لفترة مثل غيرنا ، ممن

أتت بهم الصدفة المحضة لمناصب قيادية لمجرد أنهم بطانة لذوي النفوذ.. أعلم أن القردة تفكر بجدية في هذا الأمر ، فهي من صنعت أسودكم وأقنعتنا بها، ويرون الآن أنهم الأولى والأحق بقيادة القطيع من غيرهم .. هذا هو الخطر الحقيقي .. نحن نهرول إلى منعطف شديد الانحدار ، دون أن ندري.. بينما أنتم واهمون بأننا نتقدم ، ما دمنا نتحرك إلى الأمام .. هل تعي ما أقول ؟؟

نعم .. أنا دونت في مذكراتي ما آل إليه حال مجلس الحكماء ، فبات يشبه فقرة مهرجي السيرك ، ولكنها الآن تُبكي لا تُضحك ، فهي كالكوميديا السوداء ..

نعم .. أنا دونت مذكراتي بخط يدي ، ولكنني لم أقصد إهانة أحد أو النيل من آخر .. أنا حتى لم أطمح إلى تغيير أو تبديل ، فلم أكن أنوي نشرها، وإنما إلحاح عشيرتي وفصيلتي هو الذي قد يدفعني إلى ذلك يومًا ما.. أنا لم أقصد إلا أن أعبر عما جال بخاطري من مشاعر .. ووجدت أن وسيلتي الأنسب في التعبير هي الكتابة فكتبت .. فهل تصادرون فكري ؟! هل تملك أن تحبس أفكاري في رأسي ؟

قد تستطيع إيذائي أو فصلي من عملي أو حبسي ، أو حتى قتلي ، ولكنك لا تستطيع أن تسلبني عقلي أبدًا ، وهو ما سوف أبدأ به من جديد ، مثلما فعلت عندما تركت الجزيرة المركزية مجبرًا ، ومثلما سأفعل الآن ، بعد أن تركتني قيادات المزرعة مجبرة ..!

نعم .. أنا كتبت ، ولكنني اخترت الرمز أسلوبًا لكتابتي .. فلم أذكر أيًا منكم بالاسم أو بالإشارة إلى منصبه ، ولا يهمني أن أفعل ذلك فصوَّرتكم في مذكراتي كبشر بكل العيوب والنواقص والصفات الرديئة ، التي يذخر بها عالم الإنسان!!

أنا لم أقصد واحدًا منكم بعينه ، وإنما كتبت ما يصلح لأن يكون في أي مكان ، في الأرض .. في غابتنا أو في أي غابة أخرى مماثلة..

اعلم أيها الضبع المرقط أن قرار إعادتكم للأسد في منصب شرفي ، لن ينال منه أبدًا.. بل على العكس هذا الأمر سيجعل كل حيوان في الغابة يتذكره ويستدعي الأسد ، الذي بداخله ليذكره بملك الغابة قدوته الأولى والأخيرة ، والذي تحاولون القضاء عليه كلما ظهر .. واعلم أيضًا أيها الضبع أنكم لم تفعلوا ذلك بالأسد بإرادتكم ، بل أنتم مجبرون عليه .. أنتم لم ولن تستطيعوا قتل الأسد ولو بعد حين .. فأعدتموه في منصب شرفي ، واهمين أنكم تسدلون عليه الستار ، ولكن سيخيب ظنكم ، وسيظل الأسد شامخًا مهيبًا حتى من خلف الستار .. سيعكس النور ظله ، وسيصبح خياله ضخمًا كبيرًا في عيون الحيوانات وستسير خلفه ، حتى ولوكانت لا تراه فهو بداخلها ، تشعر به تستدعيه وقت الحاجة ، وتجعله يحركها دائمًا فالأسد الذي بداخلنا لن يموت أبدًا ..

اسمعني أيها الضبع الكئيب أنا لا أهابك ولا أخاف بطشك ، واعلم جيدًا أنك قادر على أن تفعلها ، وقد تُنكل بي ..ولكنني أحذرك من أمر أخير .. «التاريخ».. تذكر دائمًا هذه الكلمة.. فالتاريخ لا يرحم أبدًا مهما مرت السنين .

* * *

أُسقط في يد الضبع المرقط ، فلم يدر ماذا يفعل .. فلم يكن يتوقع إجابة الثعلب على الإطلاق .. كانت كل التقارير والتوقعات تشير إلى أنه سينكر ما كتبه ، أو على الأقل سيقلب الأمور ، ويحاول المراوغة والمهادنة للخروج بأقل الخسائر ..أو كما أخبره مرؤوسوه من الضباع أنه سيلتزم الصمت أملًا في تأييد جموع الحيوانات المهمشة ، أو طمعًا في تدخل منظمات مدنية ؛ لموازرته بهدف الفوز باهتمام إعلامي ، قد يغير مسار القضية لصالحه..

بدا الضبع ضئيلًا منكمشًا في مقعده ، بينما كان الثعلب شامخًا ثابتًا ، وظل مصوبًا سهام نظراته بحدة في وجه الضبع ، وكأنه على وشك افتراسه ، بعد أن طرحه أرضا بإجاباته ، فأصبح الضبع بلا حول ولا قوة ..

نظر الضبع المرقط في ساعته ، ثم رفع سماعة الهاتف ، وأجرى حديثًا هاتفيًا مع كبير الضباع ، نقل إليه فيه ما دار مع الثعلب .. ثم استمع قليلًا .. وتمتم بعبارات ، لم يستطع الثعلب أن يلتقطها رغم كبر حجم أذنيه .. ثم أغلق الضبع الهاتف ، وابتسم في خجل وهو يتصبب عرقًا ، بينما الثعلب ينظر إليه في احتقار شديد ، وظل الصمت سائدًا بينهما لفترة ، حاول خلالها الضبع تغيير مجرى الحديث إلى أمور عامة ؛ لتخفيف حدة التوتر ، فلم يجد أيضًا إلا الصمت جوابًا لدى الثعلب ..

مرت دقائق قليلة ، بدت وكأنها ساعات طوال من الانتظار ، حتى دق جرس الهاتف بمكتب الضبع الذي التقط السماعة في لهفة ، وهو يلهث ، ويكاد يسيل لعابه من بين فكيه القويين .. واستمع لبرهة ، ثم ردد العبارة الشهيرة التي تفيد استجابته لأوامر محدثه ، ثم وضع السماعة في مكانها بهدوء شديد ، بعد أن تأكد من أن محدثه قد أغلقها أولًا ..

دفن الضبع رأسه بين أوراقه ، وأمسك قلمًا دوَّن به العبارة التالية :

« يتم تأجيل المحاكمة لأجل غير مسمى »

وتعمد أن يرفع صوته ناطقًا بما يكتبه حتى يسمع الثعلب ما دوَّنه ، دون حتى أن ينظر إليه وكأنه يتوارى منه خجلًا ..

سأله الثعلب في حدة : هل يمكنني أن أنصرف الآن ؟؟

أجاب الضبع في تلعثم : نعم .. نعم .. دون شك ..

ابتلع الثعلب ريقه بصعوبة ، عدة مرات ، بعد أن تنفس الصعداء ، وغادر الغرفة دون أن يغلق بابها خلفه ، ثم نظر إلى الحمار الوحشي باستعلاء .. فهب الأخير واقفًا ، فأمره الثعلب أن يغلق الباب ، ويأتي بمشروب مهدئ لسيده!! ثم مضى في خطوات مسرعة واثقة ، قاطعًا الممر الطويل ، الذي كان النور يتسرب إليه من بوابة الخروج الرئيسية ، وكانت البوابة تبدو من بعيد كطاقة مضيئة ، تشير إلى انتهاء الممر الكئيب .. كان قلبه يرقص فرحًا بين ضلوعه ، وهو لا يكاد يصدق أنه قد نجا ، ولو مؤقتًا ، مما دبر له من الضباع وكبيرهم .

* * *

ظل سائرًا على غير هدى ، لا يعرف إلى أين تقوده قدماه .. كانت الأفكار تتزاحم في رأسه ، ويحاول أن يطردها ، فتعود مرة أخرى بإلحاح أشد ..استغرقه التفكير تمامًا في مستقبله ، وما جرى له وما حدث للأسد ، وكبير الضباع الذي عاد مرة أخرى ، ومحاكمته التي وإن أُجلت .. إلا أنها لا تزال سيفا مسلطًا على رقبته ، إلى أن أفاق من أفكاره المتزاحمة ، فوجد نفسه على أطراف الغابة ..

اعتلى الثعلب ربوة ، كانت أمامه ، فبدت له الغابة من أسفلها متلألئة من بعيد ، ولفحت نسمة هواء بارد لطيفة وجنتيه العريضتين ، فأغمض عينيه استجابة لها.. ثم استلقى على العشب ، وأغمض جفونه ببطء شديد ، وكأنه يحتضن غابته في صورتها البهية.. فهي آخر ما رأت عيناه .

* * *

15

على أطراف الغابة

كانت الأحداث متلاحقة .. ففي اليوم التالي مباشرةً ، استدعاه كبير الضباع لمكتبه..

انتظر ساعات طويلة حتى يسمح له باللقاء ، ولكن دون جدوى .. وبينما هو جالس يكاد القلق والتوتر يفتكان به .. جاءه ضبع يعمل بالمراسم الملكية، أبلغه أن كبير الضباع لن يتمكن من لقائه .. وسلمه مظروفًا مغلقًا ، وأخبره أنه قد صدر قرار بنقله إلى أطراف الغابة ، مقابل عدم إحالته للمحاكمة بسبب مذكراته . . وأنه يتعين عليه قبول هذا المنصب ، بدلًا من أن يظهر بصورة المتمرد ، الذي يرفض أن يساهم في خدمة غابته ، لمجرد أنه لا يعمل في الجزيرة المركزية ..ولم يتركه إلا بعد أن وقع له بالموافقة ، فقد كانت لهجة الضبع تحمل كثيرا من التهديد والوعيد ، في حالة عدم قبوله هذا العرض الإجباري ..!

كانت موافقة الثعلب على مضض ورغمًا عنه ، ولم يعر ضبع المراسم هذا الأمر التفاتًا .. فتح الثعلب المظروف ، الذي في يده في هدوء ، وظل يطالع قرار فصله من المزرعة والحزن يكاد يعتصر قلبه .. فقد شعر ، وكأنه يقرأ نعيه، وهو لا يزال على قيد الحياة !

* * *

تسلّم الثعلب عمله الجديد بأطراف الغابة.. منطقة نائية صحراوية قاحلة، ينذُر فيها الزرع والماء تتناثر فيها بعض نباتات الصبار .. الشمس قاسية جدًّا في الصباح ، والبرودة لا تُحتمل في المساء عدد الحيوانات بها ضئيل للغاية ، ولا أحد يهتم بهم ؛ باعتبار أن من يذهب إلى هناك ، لابد وأن يكون أحد أمرين لا ثالث لهما ، الأول : أن يكون قد وُلد هناك ، الثاني أنه نُقل إلى هذا المكان ، عندما غضب عليه رؤساؤه .. ودار بذهنه كيف يعتبرون تلك المنطقة القاحلة جزءًا من الغابة ، فلا علاقة لها بالغابات على الإطلاق ، وإذا كانت تلك غابة .. فماذا تكون الصحراء إذًا .. ابتسم قائلاً لنفسه ، وفيما يُضيره الاسم : هل كان الأمر سيختلف إذا كان اسمها «بستانًا» ؟

يقود تلك المنطقة تمساح عجوز مخضرم ، تعاونه مجموعة من الزواحف، وبعض الأرانب البرية .. فالعمل قليل وعدد الفصائل أقل ، وتقريبًا لا مشاكل تُذكر ، لا لأن الحياة وردية ، ولكن لأن لا أحد يقوم بحلها ؛ فملّ الحيوانات من الشكوى ، وبات عدم الحل هو الحل الوحيد لمشاكلهم فقرروا التكيف مع الواقع ، ويبدو أنهم اتفقوا ضمنيًّا فيما بينهم على ذلك ، فلا أحد يتذمر ولا آخر يتضرر ، مثلما هو الحال في كل البقاع الفقيرة والنائية في العالم أجمع.

وصل الثعلب إلى قيادة المنطقة الصحراوية مع ساعات الصباح الأولى .. ولم تكن الشمس قد انتصفت بعد في السماء ، فكانت الحرارة مقبولة نوعًا ما، ومع ذلك كان الثعلب يشعر بسخونة الهواء ، كلما لفح وجهه أثناء السير.

منذ أن وطئت قدماه المنطقة الصحراوية ، قرر ألا يضيع وقته أبدًا ، فقد كان يخشى العزلة والوحدة ، ويعلم أنها قد تقتله إذا ما استسلم لها .. فعزم أن يشغل نفسه قدر ما يستطيع ، دون أن يُفكر في الماضي أو يبكي على لبن مسكوب .. فما جرى قد وقع بالفعل ، ولن يغيره البكاء ، وما حدث هو

الأسوأ على الإطلاق على الأقل حتى الآن .. وبالتالي ؛ حتى لا يكون القادم مأساة حقيقية ، فيجب عليه أن ينظر دائمًا إلى نصف الكوب المملوء ، ويتعامل مع الواقع ، وهو واقف على قدمين ثابتتين على أرض راسخة ، لا أن يكون محلقًا بأحلام خيالية من المؤكد أنها ستتبخر يومًا ما ، ووقتها سيسقط بصورة مؤلمة ربما لا يستطيع معها النهوض مرة أخرى أبدًا.

توجه على الفور إلى مقر القيادة ، فوجئ بأنه مبنى صغير من الطوب اللبن، مكون من طابق واحد ، تكاد تشعر أنه سيتهاوى ، إذا ما زاد عدد زائريه أو تعرض لرياح متوسطة غربية ، مثل التي يحلو لمقدم النشرة الجوية أن يكررها في غموض !!

دلف إلى المبنى متأملًا .. وجد على اليمين واليسار أربعة مكاتب إدارية، تشغلها سلاحف ، وتوجد غرفة التمساح في المواجهة كأغلب مباني الغابة القديمة ، بينما يتولى حراسة المبنى من الخارج ثعبان متوسط الحجم غير سام، فقد عرف الثعلب ، فيما بعد أن التمساح اشترط نزع سمومه ؛ لتعيينه بعد أن أقنع رؤساءه أن المكان لا يوجد به شيء يستحق الحراسة من الأصل !

كان التمساح يشغل منصب قائد المنطقة الصحراوية النائية الجنوبية ، ولم يكن قد وصل مكتبه بعد رغم أن الساعة قد قاربت الثانية عشرة ظهرًا ، فجلس الثعلب بمكتب إحدى السلاحف في انتظار قدومه. مضى يتجاذب مع السلحفاة أطراف الحديث ، من قبيل التعرف على المكان ، وقتل الوقت لحين حضور التمساح ، فأخذت السلحفاة تتحدث معه في أمور كثيرة ، وتحكي له مئات الوقائع والقصص وتجارب لا حصر لها ؛ فأبدى الثعلب دهشته لها بشدة؛ فقد كان يظنها كاذبة ، فلما استفسرت منه عن سبب دهشته البادية على وجهه، أجابها بأنه كان يتصور أن تلك المنطقة بلا عمل حقيقي، وأن الملل قد تمكن

منكم تمامًا ، ولكن الواضح من خلال حديثك أن هناك أحداثًا كثيرة متلاحقة، وهذا أمر يسعدني جدًّا ، فعملي السابق بإدارة المعلومات سوف يفيدكم جدًّا هنا، ويمكن أن نقوم بعمل .. ولم يكمل جملته فقد قاطعته السلحفاة ، وهي تبتسم قائلة في خجل شديد : إنني أحكي لك ما جرى من أحداث ، على مدار ثلاثمائة عام مضت ، هي مدة خدمتي في هذا المكان !!

انفجر الثعلب ضاحكًا بصوت عال ، وظل يضحك حتى دمعت عيناه من الضحك .. فمهما طالت حياته ، فلن يستطيع أن ينجز سوى مهمة واحدة، مما قامت به السلحفاة على مدار حياتها العملية..

تنامى إلى سمعه صوت ضجة في الخارج ، وكأنها آلة جر تحرث أرضًا خشبيةً !! ثم رأى أمام عينيه ما يشبه جذع شجرة ضخمًا جدًّا ، يتحرك في هدوء أمام الحجرة ، فتنبه إلى أنه في الأصل ينتظر تمساحًا لا حيوانًا آخر .. شاهد الجذع يتوقف ، ثم يستدير ، ويعود باتجاه مكتب السلحفاة فاعتدل في جلسته ، وهندم ملابسه.. سد التمساح باب الحجرة بجسمه الضخم ، وحياه في ودّ وترحاب ، فتوجه إليه الثعلب مصافحًا إياه بحرارة ، فدعاه التمساح إلى حجرته ، بعد أن رمق السلحفاة بنظرة قاسية لم يفهمها الثعلب في حينه ، تعليقًا على ردها عليه بأنها كانت تشرح للثعلب طبيعة العمل بالمكان ..!

جلس الثعلب يتأمل غرفة مكتب التمساح ، بينما كان الأخير مشغولًا في محاولة فتح أحد أدراج مكتبه ، الذي فيما يبدو قد استعصى عليه.

كانت الحجرة متواضعة للغاية تعلوها الأتربة ، وأثاثها قديم متهالك ، عفا عليه الزمن ، ولاحظ أن العنكبوت قد اختار ركنين من أركان الحجرة ، فجعلهما محلًّا لإقامة ، يبدو أنها بدأت منذ زمن بعيد .

لفت نظره أن مكتب التمساح خاو تمامًا على عروشه ، فلا ورقة ولا قلم ولا ملفات ، ولا أي شيء له علاقة بالعمل من قريب ، أو حتى من بعيد .. فقط لافتة خشبية قديمة محفور عليها اسم التمساح ، ووظيفته الطويلة جدًّا بحروف سوداء بارزة.

نجح التمساح أخيرًا في التغلب على درج مكتبه ، فابتسم ابتسامة النصر ، وكأنه اصطاد فريسة بعد عناء .. ومد يده القصيرة إلى داخل الدرج ، وعبث بها يمينًا ويسارًا ثم أخرج كمية كبيرة من الطعام ، ألقاها دفعة واحدة بين فكيه ، وجلس يستمتع بمضغها ، وهو ينظر إلى الثعلب ببرود ..

بدا الثعلب يشعر بالخطر ، فالمكان غير مشجع على الإطلاق .. لا على الإبداع حسبما كان يأمل ، ولا على العمل من الأساس .. وإذا كان القائد بهذه الصورة ، فما حال المرؤوسين ؛ خاصة أنه قد رأى عينة منهم هذا الصباح ..

وقفز إلى ذهنه تساؤل ملح : لماذا يُعاقب المغضوب عليهم دائمًا بالنقل إلى أماكن نائية ، إذا كانت بلا عمل حقيقي ، كما هو الحال هنا ، أو لا تناسب قدراتهم ومواهبهم وهو ما ينطبق عليه أيضًا ؟ ما الفائدة التي ستعود على الغابة ، أو على تلك المنطقة النائية ، أو على أي حيوان فيها من وجود الثعلب، وكم ستتكلف الغابة من أجل انتقاله ومعيشته بتلك المنطقة النائية ..

ما جدوى وجود ثعلب وسط زواحف ، بلا أي عمل أو وظيفة حقيقية؛ فتخصصه غير موجود هنا ، بل عندما أشار إليه أثناء حديثه مع التمساح ، فتح الأخير فكيه في دهشة ، فخاف أن يكرره ؛ حتى لا يظن التمساح أنه يسخر منه ..

* * *

كان الثعلب يرى أن الغابة تعاقب نفسها بقرارات النقل إلى المناطق النائية، بقدر يفوق كثيرًا ما تقصده من عقاب لمن ينقل إلى تلك المناطق ، فهو على أي حال سوف يستريح من عناء العمل .. لدينا أخطاء شائعة كثيرة في مفاهيم عديدة ، لم نستطع أن نغيرها ، أو حتى نحركها من مكانها قيد أنملة .

على سبيل المثال ماهو فيه الآن خطأ شائع ، اعتدناه بنقل المتخصص إلى مكان ناءٍ ، لا يوجد به تخصصه أو حتى عمل مناسب له ، ونعتبر ذلك هو العقاب.. دون أن نبحث أو نتحرى الدقة ، قبل اتخاذ هذا القرار!! وإنما هي سياسة القطيع كالمعتاد ننقل أولًا ، ثم نبحث الأمر بعد ذلك.

ومع مرور الوقت يتحول الخطأ الشائع إلى صحيح ثابت لدينا ، ولدى من ينقل عنا.. فما أن يقول مسئول مقولة معينة ، يتبعه فيها كثيرون ، دون تدقيق ، لما قاله لهم لمجرد أن هذا المسئول مفترض فيه العلم بما ينطق .. وهنا مكمن الخطر ؛ لأن النقل عن مسئول يحمل قدرًا كبيرًا من المصداقية، التي تترسخ في أذهان المتلقين ؛ خاصة إذا كان المسئول متخصصًا .. وتكرار الخطأ الشائع يجعله حقيقة تحتاج إلى سنوات طويلة لتغييرها.. وما بين إفراغ ما رسخ في عقول المتلقين للخطأ الشائع ، ثم تصحيح المفهوم الخاطئ بأذهانهم، و تثبيت المفهوم الجديد الصحيح لديهم عن قناعة ، ستجد أن الأمر ليس سهلًا على الإطلاق .. وأحيانًا بعد كل ذلك العناء يضيع جهدك هباء ، فالكثير منا لا يحب التغيير ، ويخاف منه ؛ عملًا بالمقولة الشهيرة « دع القديم على قدمه فلا تغيره » .

أمضى الثعلب بمكتب التمساح أكثر من ثلاث ساعات ، دون فائدة تذكر، أو عمل أي شيء مفيد ، إلا ذهابه إلى دورة المياه أربع مرات ، من جراء ما تناوله من مشروبات ساخنة وباردة .. ألحّ التمساح عليه في تناولها

باعتباره ضيفًا كريما نزل عليهم ، بينما كان التمساح يتحدث طوال الوقت في كلام فارغ ، لا طائل من ورائه ، ولم يكن يتوقف عن الكلام إلا لملء بطنه بالطعام كل فترة ..

وعندما ألحَّ الثعلب على التمساح أن يسلمه عمله الجديد ويعرف اختصاصاته، ومهامه المكلف بها .. ارتفعت ضحكات التمساح عالية ، حتى خاف منها عنكبوت الحجرة على خيوطه ، وقال التمساح في سخرية: ولماذا أنت متعجل هكذا؟.. أمامك شهر أو اثنان أو حتى ثلاثة ؛ لتتعرف على المكان ، ومثلها لتتعرف على زملائك .. وقد تحتاج للمزيد من الوقت ؛ حتى تستقر نفسيًا في وظيفتك وبيئتك الجديدة ، فلا تقلق على الإطلاق ولا تتعجل أبدًا ، فمن يأتي للعمل هنا لا يغادر المكان ، إلا عندما يموت ويدفن هنا.. فلا يوجد لدينا موظف سابق على مدار التاريخ .. ستظل تعمل معنا حتى ترحل عن دنيانا..

شعر الثعلب باكتئاب ، يتسرب إلى جسده من جراء ما سمعه ، وبدا له التمساح كلحّاد ، يحفر له قبرًا ، ثم يدفعه إليه دفعًا ويحكم إغلاقه من الخارج بعد ذلك ..

لم يكن الخلود في المكان في دائرة حساباته ، على الإطلاق ، تصور أنه سيمضي بعض الوقت كعقوبة على ما فعله ، أو إن شئت الدقة على ما يجهله .. فلم يكن حتى يعرف ماذا فعل حتى يُنكل به هكذا ، ودون أن يقول له أي حيوان الأسباب أو المبررات ..

ألح الثعلب على التمساح أن يسلمه عمله ، وقالها بنبرة حادة غاضبة نوعًا ما ؛ فقد ضاق بالجلوس لساعات طويلة مع تمساح لا يفعل شيئًا ، سوى المأكل والمشرب وتكرار توافه الأمور .. بينما الثعلب لا يطيق أن يجلس ساكنًا لبضع دقائق، دون عمل.

اعتدل التمساح في جلسته ، وقال ببرود: عملك ليس هنا يا عزيزي .. أنت ستعمل في الواحة ، وهي قريبة نوعًا ما من مقر القيادة هنا ، وسنلتقي بعد ذلك مرة كل عام ، تكون قد أعددت فيها تقريرًا عن حال الواحة ومواردها ، ومشاكلها إن وُجدت ، والحلول المقترحة لها من وجهة نظرك ، وإن لم تستطع كتابة التقرير خلال عام .. فسوف نؤجل الاجتماع للعام الذي يليه ، فلا تقلق .. نحن لن نتعجلك أبدًا في عملك وسنتعاون معك دائمًا ..فقط لا تفعل شيئًا قبل أن ترجع لي شخصيًا .

انتقلت البلاهة تلك المرة إلى وجه الثعلب من جراء ما يسمع ، ولولا أنه يرى التمساح أمامه ، لظن أنه مشهد في مسرحية هزلية ، وأن دوره فيها هو مدير الواحة الكسول ..!!

قرر الثعلب أن يواجه الواقع ، فلم يكن لديه خيار آخر ، فاستسلم وتهيأ للمغادرة ، مصافحًا التمساح .. وقبل أن يخرج من الحجرة ، سأل التمساح سؤالًا أخيرًا : هل لديك أية معلومات عن فصائل حيوانات الواحة وطبيعتهم..؟ أجابه التمساح في بلاهة مصطنعة تلك المرة : الحقيقة ، لا أعرف .. فأنا لم أذهب إلى الواحة ، منذ أن تسلّمت عملي هنا من عشرين عامًا !!

* * *

استغرق الوصول إلى الواحة ست ساعات كاملة ، تحت لهيب الشمس الحارقة. . حتى كاد الثعلب يشعر أنه ذاهب إلى المجهول ، من كثرة ما سار في صحراء شاسعة ممتدة إلى ما لا نهاية .. عندما لاحت له الواحة بنخيلها العالي في الأفق ، دبّ النشاط فجأة في جسده ، وانفرجت أساريره ، وصار يصيح فرحًا كالمجنون ، ومضى يركض في اتجاهها حتى بلغها لاهثًا في إعياء شديد.

على مدخل الواحة ، وجد الثعلب بغلًا هزيلًا.. كان نائمًا ، فلم يشأ الثعلب أن يوقظه ، فحتى هذه اللحظة لم يكن يعرف أنه حارس الواحة ، وظنه واحدًا من أهلها !!

وعندما دخلها ، وقف يتأمل جمال المنظر والمساحة الخضراء الشاسعة ، التي تتمتع بها تلك الواحة والجدول الرفيع الذي يخترقها من المنتصف ، وكأنه يشطرها إلى نصفين متساويين تمامًا.

تنبّه الثعلب إلى وخز بسيط في ظهره ، فالتفت .. فوجد قُنفذًا صغيرًا ، يُرحب به ويربت على ظهره مهنئًا إياه بسلامة الوصول ، ابتعد عنه شاكرًا له تحياته المؤلمة ! وقرر ألا يفعل شيئًا ؛ حتى يستريح ويصبح ذهنه صافيًا تمامًا.

سأل القنفذ ، وهو يشير إلى شجرة موفورة الأوراق كثيفة الأغصان، تحتها ظل عظيم : هل يمكن أن أنام هنا ؟ أجابه القنفذ في خجل : نعم يا سيدي ، ولكنك مدير الواحة ، وبيتك جاهز لاستقبالك و.....ولم يكمل القنفذ الجملة ، فقد كان الثعلب قد ألقى بجسده أسفل الشجرة ، مستظلًا بظلها ، وراح في نوم عميق .. بينما أبت صورة التمساح ، وهو يفتح له قبرًا ، أن تفارقه أبدًا..

* * *

في صباح اليوم التالي ، قرر الثعلب بصفته مديرًا للواحة أن يعقد اجتماعًا عاجلًا للعاملين بها ، وفصائل الحيوانات التي تعيش فيها ؛ ليتعرف عليهم ويستمع إليهم ، ووضع أجندة عمل ، وأهدافًا قريبة للتحقيق ، وأخرى بعيدة يخططون لها معًا ، ثم استدعى القنفذ وأخبره بموعد ، ومكان الاجتماع في المساء بالقرب من النهر ..

في الموعد المحدد، كان الثعلب يجلس على منصة مرتفعة قليلًا عن الأرض، وجلس القنفذ بجواره في هدوء .. بعد وقت قصير، بدأت الحيوانات تتوافد على المكان .. جمل عجوز ثم خمسة خراف، ثم أرنب بري، ثم قطيع من الجديان .. وعشرات السناجب تعجَّب الثعلب من وجودها بتلك البيئة الصحراوية قائلًا لنفسه، ربما أفهموها مثله أنها غابة .. وسلحفاة دخلت متباطئة، تتمتم غضبًا واحتجاجًا على إبلاغها بموعد اجتماع في نفس اليوم مما جعلها متوترة، عندما أسرعت حتى تلحق بموعدها !

جلست الحيوانات في صفين أمام الثعلب، منتظرين أن يبادر هو بالحديث إليهم، بينما ظل الثعلب ينظر إليهم تارة، ثم ينقل بصره إلى القنفذ، ثم ينظر إلى ساعته، وقد بدت على وجهه ملامح الضيق .. ومضى الوقت بطيئا؛ حتى فاض الكيل بالثعلب؛ فالتفت إلى القنفذ مؤنبًا إياه لعدم حضور الحيوانات بأكملها إلى الاجتماع، قائلًا له بصوت عال : لماذا لم تخبر الجميع؛ لكي يحضروا في موعدهم؟! ..

تعجب القنفذ ونظر إلى الثعلب، وهو يشير بيده إلى صفي الحيوانات المتراصين أمامه قائلًا : هؤلاء هم الجميع موظفو الواحة، وسكانها أمامك بالكامل منذ نصف ساعة.. ألا تراهم ؟!

كاد الثعلب يضحك لولا أنه كان يريد أن يحتفظ بوقاره أمامهم فقال، والضحك يكاد يفلت منه : هل هؤلاء هم كل قوة الواحة ؟!

هزّ القنفذ رأسه بالإيجاب .. فقد كان على وشك الانفجار هو الآخر، إذا تكلّم من جراء كتم ضحكاته .

تعالت بعض الأصوات المكتومة من الصف الأول ؛ حيث كان الخروف يحاول إخفاء ضحكاته .. إلا أن مؤخرته فضحته من كثرة اهتزازها ، من جراء كتمان الضحك ..

لم يستطع الثعلب المقاومة أكثر من ذلك ؛ خاصة أنهم كانوا ينظرون إليه في بلاهة غريبة .. فبدأ بابتسامة عريضة ، أعقبتها ضحكات متقطعة ، حتى أمسك ببطنه من شدة الضحك ، وشاركته جموع الحيوانات بالقوة نفسها .

تسبب هذا الموقف في إذابة جبل الجليد بينه وبينهم ، فصاروا أكثر ألفة ، وشعروا أنه واحد منهم لا مدير جديد عليهم ؛ خاصة أنهم لا حول لهم ولا قوة.. لاحظ الثعلب أن جميع الحيوانات التي أمامه – بلا استثناء – تُعاني من شحوب وهُزال شديدين.. فقال لنفسه هل هؤلاء هم الذين سوف يحققون أجندتي لتطوير الواحة .. يا الله هؤلاء لا يستطيعون أن يُطوروا أنفسهم ..لعن حظه العاثر ، واستمر يُحدث نفسه قائلًا: حقًا عندما تُدير الدنيا ظهرها لك فإنها لا تترك لك ثغرةً أبدًا..

عقد الثعلب الاجتماع ، وهو شبه مغلوب على أمره .. كان يتحدث إليهم بضيق شديد.. حدثهم عن نفسه كثيرًا ... عن عمله السابق مع الأسد ... عن تجربته بإدارة المعلومات ... عن التقنيات الحديثة ، المستخدمة الآن في هذا المجال ، ولكنه أخفى عنهم ، بمكره ، أنه مغضوب عليه من رؤسائه ، وأفهمهم أنه أتى إلى هنا بإرادته ؛ ليطبق أفكاره لتطوير الواحة .. كان يهدف إلى الحفاظ على صورته أمامهم ؛ حتى تظل له هيبة بينهم .

ما إن فرغ من حديثه ، نظر إليهم وجدهم لا يحركون ساكنًا ملامحهم متجمدة تمامًا .. لا يظهر عليهم أي انفعال سلبي أو إيجابي من جراء حديثه إليهم .. تأملهم الثعلب طويلًا ، ثم قال لهم حدثوني عن أنفسكم.. تلقى صمتًا لم يتحدث أي منهم ، بل لم يُبد أحدهم حتى مجرد الرغبة في الحديث ..

عاد الثعلب يستحثهم ويحفزهم ، فسألهم : قولوا لي ما هي مشاكلكم ؟

أجابوه جميعا ، في وقت واحد تقريبًا : نحن نتضور جوعًا.

نزلت العبارة كالصاعقة على رأس الثعلب .. كيف فاته ذلك ، لقد لاحظ هُزالهم عند توافدهم لحضور الاجتماع .. لماذا لم يهتم من البداية بهذا الأمر .. شعر بذنب عظيم وخزي من نفسه .. لقد أطال الحديث عن إنجازاته وعن الأسد ، وعن أسلوب العمل بالجزيرة المركزية والغابة.. إلخ .. خاف على صورته أمامهم وتجاهل صورتهم التي كانت واضحة أمامه..

كيف لهم أن يعملوا ويُنتجوا ويُطوروا وهم جوعى؟! .. من أين يتأتى لهم الصبر على مشاكلهم والجوع يقتلهم كل يوم؟!..كيف نحدثهم عن مشاكل الغابة وضرورة مشاركتهم في حلها ، ونقول لهم أنتم تُشاركون معنا في صنع القرار ، بينما هم لا يملكون قرار أنفسهم؟! كيف نحدثهم عن المشاكل ، وهم مشكلة أساسية في حد ذاتها؟!

دار بخلده أن الأسد لم يحدثه عن مشاكل تلك الواحة يومًا ، رغم أنه قد زارها مرتين هل لا يعرف؟!.. هل لم تكن كذلك في عهده؟!.. لا يستطيع الآن الجزم بأي شيء ؛ فالحقيقة الوحيدة المطلقة التي أمامه هي هؤلاء الجياع، وضرورة إطعامهم أولًا ، قبل تطوير نظام حياتهم ، يالها من مسئولية! بل قل مصيبة!!

وبحركة لا إرادية من جراء شعوره بالذنب والخجل في آنٍ واحدٍ ، نزل من على المنصة ، التي كان يعتليها وجلس بينهم ، وقال لهم بصوت رخيم ودموعه تغالبه : أنا أتيت إليكم لأعمل معكم على النهوض بواحتكم ، وفي ذهني أجندة عمل مُعينة .. ولكني أعترف أنني أخطأت التقدير ، ولم أدرس

الأمر جيدًا ، فالواقع مختلف تمامًا عن التقارير المكتبية ..سأغير أجندتي بما يُناسب الواقع ، وسيكون على رأس أولوياتي تدبير الطعام لكم ، وزيادة موارد الغذاء ، ثم تأمين مصادرها لضمان توافرها .. وعندما نطمئن على هذا وذاك ، نبدأ خطة التطوير معًا..

اعلموا أن الأمر ليس صعبًا ، ولكنه السهل الممتنع .. اسألوا أنفسكم: ما الذي يصنع واحة من العدم ، ويجعلها في مصاف الواحات المتقدمة ؟ ستجدون أن الإجابة ببساطة مجموعة من الفرص وموارد طبيعية ومهارات حيوانية ، يجب أن يتم توظيفها جيدًا واستغلالها على أحسن وجه ممكن .. ويجب أن تضعوا تحت كل كلمة مما أقوله مائة خط حتى تُدركوا معناها..

كالمعتاد في كل زمان ومكان ، ومثلما يحدث في أي غابة ، حتى ولو كنا على أطرافها .. استقبلت جموع الحيوانات كلماته بتصفيق حاد .. هكذا نحن بمجرد أن نجد من يحدثنا بعبارات منمقة ، ويخاطب مشاعرنا ، ويعدنا بوعود براقة .. يعلو حماسنا ، وسرعان ما تلتهب أيدينا بالتصفيق ، حتى ولو كان ما نوعد به مستحيلًا ..

سكت الثعلب قليلًا ، ثم سألهم: ولكنني أرى عشرات الأفدنة الخضراء، ومراعي وأعشابًا ولديكم مصدر مياه جارية من هذا الجدول القريب منا فلماذا لا تأكلون من ثروات واحتكم الطبيعية؟!

عادوا يجيبون في وقت واحد ، مثلما فعلوا في المرة الأولى: إنها حشائش وأعشاب سامة..

أسقط في يده ، وسألهم في استنكار ، رافعًا أحد حاجبيه : من قال ذلك وكيف تأكدتم؟؟

أجابه القنفذ تلك المرة : الضبع أخبرنا بذلك ، وهو الذي يأتي لنا مرة كل شهر بالحبوب والغلال اللازمة لنا ، ولكنها كميات قليلة ، وحذرنا من أكل الحشائش والأعشاب .. أو شُرب ماء الجدول ؛ لأنها سامة ومرات عديدة كان يموت منا العشرات عندما نأكل من حشائش الواحة أو نشرب من جدولها ، رغم أن الضبع ورفاقه قاموا بمعالجتها بالمبيدات .. إلا أنها ظلت سامة ، وكل حيوان ينفق منا تأتي الضباع وتأخذه بعيدًا لتدفنه ... وهكذا ..

كان الوضع شائكًا جدًّا ، فنقص الموارد على هذا النحو سيعوق التنمية التي أتى من أجلها! وحتى لو تجاهل هذا الأمر ، فهو لن يستطيع الآن أن يتركهم في هذا المأزق ، الذي هم فيه .. فكيف يمضي ، وهم مهددون بالموت جوعًا!!

لم يرق للثعلب الحديث عن مُبيدات وضباع وتوريد غذاء مرة كل شهر .. شعر أن وراء الأمر مؤامرة ما .. ومع الوقت بدأ يتلمّس الحقيقة رويدًا رويدًا ، فعلم أن أحد الضباع البنية التي تعيش عادة بأطراف الصحاري ، هو الذي يتحكم في توريد الغذاء للواحة ، بأمر مباشر من التمساح ، وهو يعمل كل فترة على تقليل الكمية التي يورّدها ؛ حتى تنفق الحيوانات التي تعيش في الواحة ، وفي الوقت ذاته يضع لهم سمومًا بماء الجدول وبالأعشاب والحشائش ، موهمًا إياهم أنها مبيدات حتى يموت من يأكل منها أو يشرب ماء الجدول ، وعلم أن الضباع هي التي تأكل من ينفق من حيوانات الواحة، فالجيفة إحدى مصادر غذائها المفضلة ..

* * *

بدأ الثعلب يفطن إلى أن الواحة بها أمر ما ، يجعل الضباع تتفق مع التمساح على إجلاء سكانها منها ، ولو بالقتل .. بل إن شئت الدقة إنهم يعملون على إبادتهم.

وضع الثعلب خطة لزيادة الموارد ، من خلال إمدادات من غابة قريبة، ملاصقة للواحة ، أسهمت السناجب في نجاحها ، من خلال نفق صغير حفرته لنقل الطعام ، ثم بدأ يُضيق الخناق على الضبع وأعوانه الذين يُوردون الغلال والحبوب .. يُراجع معهم الأوراق بدقة ، ويمنعهم من استخدام مبيدات لرش أعشاب الواحة وحشائشها .. عمل جاهدًا على سد جميع الثغرات في وجههم ..

بعد مرور ثلاثة أشهر ، أرسل أول تقاريره إلى التمساح ، طالبًا منه معونات مادية وزيادة في كميات الطعام وتغيير المُورد وتنويع المصادر ، وتوفير أدوات عمل لتنمية موارد الواحة ، واستغلال ثرواتها ، كما طلب منه دعوة حيوانات أخرى للإقامة بالواحة ، فمن غير المنطقي أن تُترك خاوية ، لا تزيد كثافة الحيوانات بها على 3 ٪ ، بينما يتكدس الباقون في المناطق الوعرة والجبلية ، التي لا تصلح غالبيتها لعيش كثير من الفصائل.

وختم تقريره بأن رائحة فساد عفنة ، تنبعث من الواحة ، والشُبهات تُحيط بالكثيرين ممن حولها ؛ فتحرك قبل فوات الأوان ..

عقد الثعلب اجتماعًا للفصائل بالواحة ، كانت صورتهم قد تغيرت ، ومالت إلى التحسّن بعد مرور ثلاثة أشهر منذ قُدومه .. وأخبرهم الثعلب بمضمون تقريره ، وأنه يتوقّع تقدمًا كبيرًا في الأيام القادمة .. وقبل أن يُكمل حديثه ، قاطعه الجمل العجوز طالبًا الحديث ..

سمح له الثعلب بالحديث ، بلا تردد ، فقد كان يُحبه ونشأت بينهما صداقة، خلال تلك الفترة القصيرة الماضية ، قال الجمل في تجهّم : إنك واهم ونحن واهمون .. لقد صوّرت لنا سذاجتُنا جميعًا أن الأمر يمكن أن يمر بسهولة ، أو من خلال تقريرك .. هذا مخطط مدروس بعناية شديدة ، ومُعد له منذ سنوات

بعيدة مضت والآن حان وقت الحصاد .. وموعد التنفيذ المُرتقب، فالواحة تعوم على ثروات طبيعية كثيرة ، ومتنوعة .. هل تخيلت وتوهمت أنهم قد يستجيبون لك أو لتقريرك ، مهما بلغت فصاحته أو قوة أدلته وبراهينه .. لم أكن أدري أنك بهذه السذاجة. .

اعلم أنك هالك لا محالة ، وإن نجحت في شيء .. فإن نجاحك الوحيد سيكون في نجاتك من مصيرك المحتوم هنا .. هذه الواحة مقبرة للمُصلحين من قبلك ، وأصحاب النوايا الحسنة .. ألم يخبرك التمساح بذلك ؟! أنا لا أحبطك أو أقلل من قيمة عملك ، ولكني واقعي ، وأنت رومانسي حالم ، والمخططات التي وضعها الضباع لا تعرف العواطف أو المشاعر.. فانج بنفسك ، قبل أن ينالوا منك ، واتركنا نتدبر أمورنا ، ويكفي أنك أيقظت الأسد الكامن بداخلنا .. فقد نفيق من غفلتنا ، ونزأر في وجه الضباع .. أما أنت فبقاؤك هنا يعني هلاكك .. اتركنا نعتمد على أنفسنا ولو لمرة واحدة .. دعنا نجرب ونفشل .. فالتجربة خير معلم ، ويكفي مرة أخرى أنك أرشدتنا إلى بداية الطريق ، ولا نريد أن نفقدك ، فقد تُعين غيرنا كما ساعدتنا . ويكفيك فخرًا أنك ألقيت حجرًا في الماء الساكن .

ذُهلت الحيوانات مما قاله الجمل .. كما نزل حديثه على الثعلب كالصاعقة .. كان مفاجأة بكل المقاييس ، وبدأ ذهن الثعلب يذهب إلى أبعد نقطة .. فهل الجمل عميل للضباع؟ أم مخلص بالفعل في مشاعره إلى الدرجة التي يرى فيها الثعلب بطلًا ، لا يجب التفريط فيه من أجل واحة صغيرة ؟!!

هل كان ساذجًا بالفعل حسبما وصفه الجمل ، عندما تصور أنه سيقاوم قوى الشر بمفرده ؟ شعر أنه لو تركهم الآن ، سيكون كالجندي الذي يهرب من الميدان .. فقرر أن يبقى ..

ولكن عادت كلمات الجمل ترن في أذنيه ، قوية عن هلاكه واحتمالات اغتياله ؛ فيُفكر مرة أخرى في أن بقاءه سيجعله كالانتحاري ، الذي يُطلق النار فجأة على أعدائه ، قبل اقترابهم بمسافة كافية ؛ فلا يتمكن من إصابتهم في مقتل ، وفي الوقت نفسه يكشف لهم عن مكانه ، فيصبح من السهل اقتناصه .. جلس وحيدًا يُفكر ويتدبر أمره حتى أعيته الحيلة ، فلم يجد حلًّا لمشكلته .. قطع عُزلته دخول القنفذ إليه ، يُخبره أن التمساح قد وصل إلى الواحة الآن ، على رأس وفد كبير من الزواحف ، ويسأل عنه!

خرج الثعلب مسرعًا وهو يحكم ربط رابطة عنقه .. شاهد التمساح يقف مع زواحفه ، بالقرب من الجدول مُتحدثًا مع الحيوانات ، وما إن شاهد الثعلب حتى رحب به ، مُهنئًا إياه على التقرير ، الذي أرسله إليه ..

ظهرت أمارات الفرحة على وجه الثعلب ، ونظر إلى الجمل ، وكأن لسان حاله يقول له ما زال هناك أمل.. إلا أن الجمل بادله النظرات في يأس ، وكأنه يتحسر على سذاجة الثعلب ..

تفقد التمساح الواحة في عُجالة ، ثم اجتمع بحيواناتها ، وخطب فيهم خُطبة عصماء قوية وإن كانت من أوراق مكتوبة أمامه فلم يرتجلها .. هنأهم فيها على إنجازاتهم ونشاطهم في الفترة الأخيرة ، كما أشار إلى إخلاص الثعلب ودوره في التطوير ، ووعدهم بالقضاء على الفساد ، وأنه سيعمل على تحقيق ما طلبه الثعلب في تقريره ، فلا أحد فوق القانون مهما كانت فصيلته !!

التهبت الأيدي بالتصفيق كالمُعتاد ، حتى ولو كان الذي يخطب فينا تمساحًا فاسدًا حتى النخاع ..

سكت التمساح قليلًا مُستعذبًا التصفيق ، الذي ربما لم يسمعه في حياته من قبل .. فمن الذي سيجلس ليستمع إلى خطاب من تمساح ، ومن الذي سيكتب له خطابًا إلا في زمن الضباع !

فجر التمساح مفاجأة من العيار الثقيل في نهاية خطابه ، عندما قال: لقد رأى كبير الضباع ملك الغابة وحاكمها أنه لابد من مكافأة الثعلب على مجهوداته في تحفيز همتكم ، واستدعاء الأسد الكامن بداخلكم .. وخير تكريم له هو إلحاقه بالمنطقة النائية الشمالية من الغابة ؛ لتطويرها وللاستفادة من خبراته وقدراته في الإدارة ، مثلما فعل بالمنطقة الجنوبية ، وكلنا كما تعلمون جنود في خدمة غابتنا الحبيبة ..

تعالت أصوات التصفيق مرة أخرى ، بينما كان الثعلب في تلك المرة يشعر بالخطر ، يحدق به من كل جانب .. فقد أحس أنهم سوف يتخلصون منه في أقرب فرصة .. وألقى ببصره على وجه الجمل ، فوجده حزينًا شاردًا تتلألأ الدموع في عينيه .. دموع حبيسة يُقاوم انهمارها حفاظًا على وقاره .. والتقت نظراتهما معًا لبرهة ، شعر فيها الثعلب وكأن لسان حال الجمل يقول له بصوت ، يحمل نبرة لوم وعتاب : ألم أقل لك ذلك !!!

أنهى التمساح خطابه وترجل مغادرًا المنصة ، وانفض الجمع ، وطلب التمساح أن ينتحي بالثعلب جانبًا .. فمضيا معًا إلى خيمة الثعلب حيث جلسا متجاورين .. مال التمساح بجزعه نحو الثعلب ، وهمس في أذنه بأن الضبع البني سوف يعود قرب الفجر مرة أخرى لاصطحابه إلى المنطقة الشمالية من الغابة .. فهو الوحيد الذي يعرف طريقًا مُختصرًا إليها ..

زادت مخاوف الثعلب ، وشعر بأن الخطر قد بات محلقا أعلى خيمته.. فحاول أن يبدو متماسكا ، وظل يعتذر للتمساح ، مُتعللًا بأنه يحتاج بعض

الوقت لتدبير أموره ، وأن بعض حيوانات الواحة سوف يصطحبونه للمنطقة الشمالية ، وبعضهم سيعمل معه بها.. إلا أن التمساح أصر في حدة ، غير مبررة ، على ضرورة الرحيل في الفجر في صحبة الضبع .. وغادر الخيمة مناديًا القنفذ بصوته الخشن ، طالبًا منه إشعال نيران للتدفئة ..

لم يتمكن الثعلب من وداع حيوانات الواحة ، بعد أن أخبرهم التمساح بأنه سوف يرحل في مساء اليوم التالي ، وطلب منهم الاستعداد لتوديعه ، فخلدوا إلى النوم مبكرا استعدادًا للاحتفال بالثعلب .. ولم يشأ الثعلب من جانبه أن يوقظهم ؛ فلحظات الوداع غالبًا ما تكون من أصعب اللحظات على نفسه ، وقد كان دائمًا لا يعرف كيف يتغلب عليها ، وهاهي تتجنبه من تلقاء نفسها ، عندما خُدعت حيوانات الواحة بحديث التمساح فخلدت للنوم ..

* * *

في الفجر تمامًا ، وصل الضبع إلى الواحة ، وتوجه إلى التمساح ، الذي كان لا يزال ساهرًا ، لم ينم بعد ودار بينهما حديث قصير ، تخللته إيماءات كثيرة من رأس الضبع بالإيجاب لما يقوله التمساح ، ويؤكده بإشارات من أصابع يده .. أمر التمساح أحد زواحفه باستعجال الثعلب ، فتوجه إلى خيمته ، وهز الجرس المعلق بوتدها من أعلى ووقف ينتظر .. مرت دقيقة كاملة ، خرج بعدها الثعلب ، في هدوء وثبات وشموخ أيضًا .. كان يرتدي معطفًا داكنًا ، وقد وضع يديه في جيوبه ، ومشى واثقًا باتجاه الضبع والتمساح .. كان خياله على ضوء نيران التدفئة التي أشعلها التمساح يبدو شامخًا ؛ حتى دبت الرهبة في جسد الضبع ، فاعتدل في وقفته التي كانت منذ برهة يسيرة متراخية قليلا.. بينما هب التمساح من جلسته مرددًا بعضا من عبارات التوديع ، التي تقال عادةً في مثل هذه المناسبات ، محاولًا تفادي نظرات الثعلب الصارمة المصوبة إلى وجهه..

خرج الثعلب والضبع من الواحة بعد الفجر بقليل ، فمشيا معًا في طريق جانبي متعرج ، ثم توغلا قليلًا في الصحراء ، ثم سارا بالقرب من وادٍ سحيق، وعرجا منه إلى مُنحدر ضيق بمحاذاة الجبل ، ثم شرعا في تسلقه ..

كانت خيوط النور الأولى قد بدأت تتسرب من السماء ، وكان في إمكان الثعلب أن يرى وجه الضبع ، وهو يسير أمامه سابقًا إياه بخطوة واحدة .. كانت ملامحه تبدو أنها قد انطوت على الغدر ، بينما كان الثعلب يسير خلفه في تأهب . . تبدو ملامحه صارمة نوعًا ما .. ظل الثعلب يُحملق في وجه الضبع، وكأنه يستحثه على كشف نواياه .. قطعا شوطًا في تسلق الجبل ، حتى بلغا ثلثيه ، وبدا الوادي من بعيد كبساط أخضر..مشهد يدعو للتأمل ، ويبعث على السكينة والهدوء ..

لم تمض ثوان قليلة أخرى ، حتى التفت إليه الضبع فجأة ، بعد أن استل سكينًا من بين طيات ملابسه ، مندفعا نحوه في تهورشديد ووحشية أشد .. كان مضطربًا .. ترتعش يده القابضة على السكين ، فقد كان الخوف يتملكه من قوة كامنة في الثعلب ، لاحت له بوادرها في الأفق ، منذ أن غادرا الواحة فاشتم منها رائحة الأسد .. وجه الضبع ضربة في مقتل إلى رقبة الثعلب مباشرةً ، قاصدًا فصلها عن جسده..

تجنب الثعلب الضربة بقدر الإمكان .. إلا أنها طالت إحدى وجنتيه فجرحتها .. ثم استدار بجسده نصف دورة حتى ألصق ظهره بصخر الجبل، وترك الضبع المندفع كالمجنون ، يهوي من علٍ من جراء ركضه على المنحدر .. بينما ظلت زمجرته الشهيرة ، التي أطلقها لإلقاء الرعب في نفس الثعلب تحدث دويًا هائلًا ، أعقبه صدى شق رنينه سكون الصحراء ، حتى استقرت

جثة الضبع في الوادي السحيق ، وما لبثت أن تسربت الدماء من أسفلها حتى أحاطت بها ..

* * *

ظل الثعلب يتأمل المشهد ، وهو يتحسس جرحه بيده .. كانت الدماء لا تزال تسيل منه ساخنة على وجهه ورقبته ، وتختلط بحبات العرق التي تصببت من جبهته من جراء ما حدث.. بينما ضربات قلبه تكاد تشق صدره من فرط قوتها وتلاحقها .. لم يكن يدري إلى أين يذهب.. ظل يصعد المنحدر، حتى استقر به المقام آمنًا على هضبة عالية ، تطل على الغابة ، والتي بدت معتمة رغم حلول الصباح إلا نقطة واحدة بدت له مضيئة .. هي العرين القديم ، واتسعت ابتسامته رغم آلامه وجروحه ، التي كانت غائرة ، وخلفت وراءها أثرًا ظاهرًا ربما لا يمحوه الزمن .... فقد أدرك أن الأسد القابع بداخله قد خرج أخيرًا من مكمنه ، بعد أن اكتمل ، ولن يسمح له بأن يموت أبدًا ، ومضى في اتجاه الغابة لاختيار أسد جديد مع أقرانه وعشيرته .. وأطلق عواءً طويلًا متقطعًا ، أشبه بالزئير ، ظل صداه يتردد في أرجاء الغابة، بينما كان قرص الشمس يميل إلى الشروق بلونه الأصفر ..

وبدا الثعلب من بعيد كنقطة صغيرة ظلت تتضاءل رويدًا رويدًا .. حتى توحدت مع قرص الشمس.

« تمت »

القاهرة في 22 يناير 2011

اشرف العشماوي

رواية

زمن الضباع

"استطرد كبير الضباع وهو يضغط على مخارج ألفاظه : سنعتقل رءوس المظاهرات وقادتها وبعضًا لا بأس به من الأتباع ثم نفرج عن الباقين .. سيكون عددهم محدودًا نوعًا ما .. وبعد الحصول على الاعترافات من الأتباع على قادتهم سنقدم الجميع للمحاكمة ونختار لهم ضباعًا تابعين لنا ممن لا يعرفون للرحمة سبيلاً .. ثم توقف برهة وأضاف "في الحق طبعًا" .

حين يظل الصوت حبيسًا ، حين يكون الصبر جليسًا ، حين تُوزّع آلاف الأعذار كطوق نجاة للمنكوبين ، حين تنادي الأسد الكامن بين ضلوع لم تعرف إلاّ ذُلّ القهر ، ويتلاقى النداء خافتًا بحلم سرعان ما يبدده الفجر ، حين يتحكّم فردٌ في قوت البسطاء ويقود خرتيت مصير غابة ، غابت عنها الأسود .. فلابد أن تعلم يقينًا أن الزمن قد كشف عن وجهه القبيح كأسوأ أيام، وأن مآل الأمر أصبح بيد الضباع واللئام .

مكتبة الدار العربية للكتاب

EL Shorouk الشروق
6222006324216
زمن الضباع
L.E35.00

أشرف العشماوي
زمن الضباع
رواية
مكتبة الدار العربية للكتاب